محمد عبد المنعم خفاجي

ابو عثمان الجاحظ

الطبعة الأولى

محمد عبد المنعم خفاجي

أبو عثمان الجاحظ

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم



أبو عثمان عمرو الجاحظ

تصدير

ابو عثمان الجاحظ

— ١ —

علم من أعلام العرب الخالدين

وإمام من أئمة الفكر والثقافة والدين

وشيخ من شيوخ اللغة والأدب والنقد والبيان

عاش أكثر من قرن من الزمان ، وشهد حضارة العرب الزاهرة فى عصر الرشيد والمأمون ، وعاصر التطورات الروحية والسياسية والاجتماعية والعقلية والأدبية التى آلت إليها حياة العرب والمسلمين فى ظلال العصر العباسى الأول ؛ واشترك فى هذه التطورات بانيا ومجددا وعاملا فى كل حقل ، ومكافحا فى كل ميدان ؛ ونال من تقدير عصره ، وتكريم دولته مالم ينله إنسان .

كان إماماً من أئمة المعتزلة، وصاحب مذهب من مذاهبهم سمى (الجاحظية) ، وكان كذلك عالماً من أكبر علماء عصره ، ومفكراً من أعظم مفكرى جيله ، كتب بطريقة علمية مبتكرة فى النبات والحيوان والاجتماع والتربية وعلم النفس ، والجغرافيا والطب والكيمياء والفلك ؛ وغيرها .. وكان يقوم مذهبه فى البحث العلمى على الشك ، ويقيم آراءه على التجربة ؛ فكان بذلك معلما للعقل العربى ، ومصدرا أخذ منه فلاسفة العرب ، كما أخذ منه فلاسفة الغرب ، أمثال بيكون وديكارت وغيرهما ، نظرياتهم الجديدة ، التى اتخذوها أساسا من أسس النهضة .

والجاحظ فوق ذلك صاحب مذهب فى النقد ، ومنشىء مدرسة وطريقة فنية فى الأدب ، ومؤسس للبلاغة العربية ؛ وهو شيخ من شيوخ اللغة ، وعالم من أكبر علمائها .

وألف الجاحظ أكثر من ثلاثمائة وخمسين كتابا فى مختلف فروع الثقافة ، ضاعت كلها إلا القليل النادر منها ، على مرور الأيام والأجيال ،

ولم يبق لنا منها إلا عدة رسائل ، وكتبه الثلاثة : البخلاء ، والحيوان ، والبيان والتبيين ، وآثار قليلة مفرقة . ولو لم يكن للجاحظ سواها لكفاه شرفا وفخراً ومجداً فى تاريخ العقل العربى ، فلقد تتلمذت عليها الأجيال ، ولا زالت منبعاً خالدا من منابع الثقافة العربية ، ومصدرا أصيلا من أهم مصادرها ؛ ولا زالت كذلك موسوعة علميــــة كبيرة عن عصر الجاحظ وحضارته المزدهرة فى ظلال الخلافة العباسية .

— ٣ —

وهذا الكتاب الذى كتبته عن الجاحظ كان ثمرة وقت طويل ، وقراءات كثيرة ، وجهد شاق .

وقد تناولت فيه بالتحليل والدراسة عصر الجاحظ وحياته وشخصيته وثقافته ، وآراءه فى السياسة ، ومذهبه فى الاعتزال ، ومنهجه العلمى فى البحث ، وأثره فى النقد ، وطريقته فى الأدب ، ومدرسته فى البلاغة العربية ؛ كما أبنت عن أثره فى العقل العربى وآداب العرب .

وحسبي أن أكون قد كتبت بأمانة ودقة هذه الصورة الواضحة ، والدراسة الشاملة ؛ عن هذا المفكر المبدع ، والأديب الإنسان ، والعالم المتمكن ؛ شيخ العربية : عمرو بن بحر الجاحظ .

وثقة بالقارئ العربى ، وأملا فى تقديره ، يسعدنى أن أقدم إليه هذا الجهد المتواضع ، رمز تقدير وحب وإكبار ، لمفكر عربى ، صمد أدبه وفكره لامتحان الأجيال ، فلم يزدد جوهره الثمين إلا تألقا وضياء ونصوعا ، ونال من تقدير المفكرين فى الشرق والغرب فى كل جيل أوسمة المجد والفخار والخلود . ولسوف يحتفل العالم العربى بعد سنوات قلائل بمرور أحد عشر قرنا على وفاته ، أو اثنى عشر قرنا على ميلاده .

رحمك الله يا أبا عثمان .

فقد أديت الرسالة ، وسجلت فى تاريخ الفكر العربى والإنسانى أروع الصفحات ...



الجاحظ

البَابُ الأول

عصر الجاحظ

تمهيد

ولد أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني البصري عام ١٥٠ هـ : ٧٦٧ م ، وتوفى فى المحرم عام ٢٥٥هـ : يناير ٨٦٨ م ، ففى عام ١٩٦٧ م يكون قد مضى على ميلاده اثنا عشر قرنا ، وفى يناير ١٩٦٨ يكون قد مضى على وفاته أحد عشر قرنا ؛ وعاصر الجاحظ اثنى عشر من خلفاء بنى العباس ؛ وهم : المنصور ، المهدى ، الهادى ، الرشيد ، الأمين ، المأمون ، المعتصم ، الواثق ، المتوكل ، المنتصر ، المستعين ، المعتز ؛ وهم أشهر الخلفاء العباسيين ، وأعظمهم نفوذا ، وأجلهم همة ، وأوسعهم سلطانا ، وأبعدهم فى خدمة الحضارة والعروبة والاسلام أثرا .

وقد اقترن ميلاد الجاحظ بميلاد النهضة السياسية والفكرية والأدبية فى العصر العباسى الأول ، وفى ظلال نفوذ الخلافة العباسية ؛ ولسوف ندرس عصر الجاحظ لنقف على جميع المؤثرات التى أثرت فى تفكيره وأدبه .

ولقد كان قيام دولة الخلافة العباسية عام ١٣٢ هـ : ٧٤٩ م على يدى أبى العباس السفاح العباسى حدثا كبيراً ؛ إذ أعلن من فوق منبر المسجد فى الكوفة زوال دولة بنى أمية ، وقيام حكم بنى العباس ، واتخذ الهاشمية قرب الأنبار عاصمة له ، ووطد دعائم عرشه ، وأخذ البرد والقضيب من خلفاء بنى أمية ، وكان مروان بن محمد الأموى حين أحاط به العباسيون أمر خادما له أن يدفنهما فى الصحراء(١) ؛ وفى عهد المنصور العباسى (١٣٦ - ١٥٨ هـ : ٧٥٤ - ٧٧٥م) أسست بغداد فى موضع قرية كانت تقوم على ضفة دجلة الغربية ، فإذا قصور

---

(١) ٣ : ٦٩ البيان والتبيين ، طبعة الخانجى - القاهرة

الأكاسرة فى المدائن تنقل حجارتها (١) وأنقاضها لتبنى بها قصور بغداد ، وإذا المدينة الجديدة ترتفع على شكل مستدير يقوم فى وسطه قصر الخليفة المسمى باب الذهب أو القبة الخضراء ، وإذا المدينة فارسية الطابع والنظام ، وترتفع فيها حول قصر الخليفة قصور الأمراء والوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ومستشارى الخليفة ، وبدأ العمل فيها عام ١٤١ ﻫ وانتهى عام ١٤٥ﻫ ؛ وسارت النهضة السياسية والفكرية والأدبية فى عهد المنصور فى طريقها لا تلوى على شيء ، فازدهرت الحضارة ، وامتد نفوذ الإسلام حتى بلغ كشمير فى الهند ، وكان المنصور داهية أريبا ، ومقدما فى علم الكلام(٢) أديبا ؛ وفى عهده ولد أبو عثمان الجاحظ ، الذى صار فيما بعد من أعلام الفكر العربى فى عصره ، بل من أئمة الفكر الإنسانى ومن أشهر الأدباء العالميين قاطبة ، واحتل منزلة عالية فى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية ، لم يبلغها أديب آخر على مر الأيام .

---

(١) الجاحظ طبع دار المعارف ـ القاهرة ، بقلم حنا الفاخورى

(٢) ٣ : ٣٦٧ البيان والتبيين ـ الخانجى ـ القاهرة

الفصل الأول

الحياة السياسية فى عصر الجاحظ

— ١ —

شاهد الجاحظ عظمة الخلافة العباسية ، وعاش فى ظلال سلطانها العظيم ونفوذها الكبير ، كانت حياته عهد استقرار وازدهار ، فقد ثبتت قواعد الدولة على يدى المنصور ، وامتد نفوذها فى كل مكان فى أيام المهدى ، وتألقت حضارتها وعظمت هيبتها فى زمن الرشيد والمأمون ، وتوالت انتصاراتها العسكرية فى خلافة المعتصم ، وظلت فى قوة وازدهار فى عصر الواثق والمتوكل .

وفى ظلال هؤلاء الخلفاء كان النفوذ السياسى للعنصر الفارسى الذى ساعد على قيام الدولة ونشر دعوتها ، وثل عروش الأمويين ؛ وكانت الأمور بأيدى الوزراء والقواد الفرس ، وإن كان للخليفة العباسى الرأى الأعلى ، والسلطان الكامل ، والكلمة النافذة ، والرأى القاطع ؛ وربما أوجس فى نفسه خيفة من معاونيه من الفرس ، فيبطش بهم كما فعل المنصور ، وكما فعل الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل ؛ وإذا كانت دولة بنى أمية عربية أعرابية فان دولة بنى العباس أصبحت أعجمية خراسانية كما يقول الجاحظ(١) ، فقد كان للفرس فى هذا العهد نفوذ كبير ، فهم أكثر من تولى الأعمال للمنصور(٢) ، واتخذ الخلفاء ذلك سنة (٣) ، وفى عصر الرشيد زاد

---

(١) ٣ : ٢٠٦ البيان والتبيين

(٢) راجع الجهشيارى ١٣٩ - ١٥٧

(٣) ٢ : ٤٠١ مروج الذهب للمسعودى

نفوذ الفرس بفضل البرامكة ، وكان منصب الوزارة وغيره وقفا عليهم ، وظل نفوذهم فى ازدياد بتوالى السنين(١) ، نخفت كفة العرب ، ورجحت كفة الأعاجم ، وصار العرب عنصراً من العناصر الكثيرة التى عاشت فى ظلال الخلافة ، وقد جعل الفرس قصور الخلفاء فى بغداد أشبه بقصور الأكاسرة فى المدائن ؛ وهم الذين نسقوا الدواوين ، ووضعوا أساليب الحرب ونظم الحكم ، فتحولت الأنظار عن العرب وتقاليدهم ، وانفتحت على الجديد والاستفادة منه ، وبتأثير ذلك نشأت نزعة التجديد والتخير ، أى تخير أمثل ما فى الحضارات القديمة ، وتوسيع الصدر لها . والعمل بها(٢) . فاتخذ الخلفاء الوزراء من الفرس ، وجعلوا وزارتين : وزارة تفويض ووزارة تنفيذ ، فالأولى تخول لصاحبها حق تدبير الشئون برأيه ، والثانية يملك صاحبها شئون التنفيذ لأوامر الخليفة ؛ وبجانب الوزراء : المتولى على ديوان البريد ويراقب تصرف الولاة فى الأقاليم الكبرى ، وصاحب ديوان التوقيع ويقوم بختم الرسائل وتسجيلها ، وصاحب ديوان الضياع ، ويتولى النظر فى ضياع الخلفاء وأملاكهم ، وصاحب ديوان الخاص وينظر فى حسابات الحاشية والخدم ، وصاحب ديوان الضرب وديوان الطراز ويتصرف فى ضرب النقود والقيام بالطراز ، ثم هناك ديوان العزيز ، وديوان الجيش وديوان بيت المال ودواوين أخرى تقوم بشئون الإدارة ، ومنهم يختار حكام الأقاليم ، ومنهم الفضل بن يحي البرمكى ، وجعفر بن يحي البرمكى ، وقد اتخذ الفضل بخراسان جندا من العجم سماهم (العباسية) ، وبلغ عددهم نحو خمسمائة ألف ، وجعل ولاءهم للعباسيين(٣) . وتبادل الخلفاء العباسيون

---

(١) ١ : ١٨ - ٤٩ ضحى الاسلام ط ١٩٥٦

(٢) ص ٨ الجاحظ للفاخورى

(٣) ١٠ : ٦٢ الطبرى

الهدايا والسفراء مع ملوك غربى أوربا مثل شارلمان ، ودفع ملوك الدولة الرومانية الشرقية الجزية للخلفاء وهم صاغرون .

— ٢ —

وإذا كان عصر هؤلاء الخلفاء قد امتاز بقوة الخلافة ، وعظمة الخلفاء ، ومجد الدولة ، وبنفوذ الفرس ،فان عصر المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز كان يتسم بضعف الخلافة ، وضياع هيبة الخلفاء ، وفساد شئون الدولة ؛ وذلك بسبب نفوذ الأتراك ، الذين بلغ عددهم مبلغا كبيراً فى ظلال حكمهم .

وكان المعتصم قد كون منهم فرقة عسكرية كبيرة فى جيش الخلافة بلغ عددها نحو السبعين ألفا ؛ ولما ضاقت بهم بغداد ، وكثرت الخصومات بينهم وبين الفرس ، أتى المعتصم « سامراً » ، على شاطىء دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، فاتخذها معسكراً لجيشه ، وحاضرة لملكه ، منذ عام ٢٢١ هـ(١)، وأصبحت مدينة عظيمة فى مدة وجيزة(٢) ، وظلت مقر الخلافة حتى عام ٢٨٩ هـ، والمعتصم أمه «ماردة» تركية من السغد، ولاطمئنانه إلى الأتراك صاروا موضع ثقته وإيثاره ، وكان ذلك ضربة شديدة أصابت نفوذ العرب والفرس فى الصميم(٣) ، وأصبح نفوذ الترك قويا فى دولة الخلافة ؛ وبعد قليل أخذوا يعتدون على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء ، وينهبون الدور ، ويتعرضون للحرم والأطفال ، فكرههم الناس ، وقد هجا دعبل الشاعر الخليفة المعتصم من أجل ذلك فقال :

---

(١) ٤ : ٥٤ المسعودى — مروج الذهب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد

(٢) ٥٢ و ٥٣ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد

(٣) ٤ : ١٤٤ و ٢٧٠ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان ، ١٦٥ حضارة الإسلام فى دار السلام

وهمك تركى عليه مهانة فأنت له أم وأنت له أب

والأتراك هم الذين رشحوا للخلافة المتوكل عام ٢٣٢ هـ - بعد موت الواثق - لأن أمه « شجاع » تركية خوارزمية . وفى عصر المتوكل ازداد نفوذ الأتراك كذلك، ثم لاحظوا أخيرا أن الخليفة يعمل على كبح جماحهم ، فدبروا مؤامرة لقتله(١) ، ومعهم المنتصر الذى كان أبوه المتوكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولاية العهد ، وقتلوا المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان فى أواخر عام ٢٤٧ هـ ، وعقب ذلك ازداد تدخلهم فى أمور الخلافة ، وخاصة فى عهد المنتصر والمستعين والمعتز ، الذى مات الجاحظ فى آخر خلافته عام ٢٥٥ هـ(٢) . .

— ٣ —

وقد قامت ثورات كثيرة شعبية ضد الأتراك ، أهمها ثورة عام ٢٤٩ هـ التى قضى عليها الأتراك بعنف وقوة ، وكان بعض زعماء الترك يحاولون التخفيف من حدة شعور الرأى العام وبغضه لهم ، وبثوا دعايات كثيرة ، كان من مقدماتها ، ومن أبرعها رسالة كتبها الجاحظ بإيحاء من الفتح بن خاقان ، عن مناقب الأتراك وعامة جند الخلافة ، ودعا فيها إلى وحدة الأجناس والعناصر ، وأشاد فيها بالأتراك ونوه ببطولتهم ، على أن هذه المحاولة وسواها من المحاولات جميعها قد فشلت فى الوصول إلى الغرض المنشود . .

وكذلك حفل عصر الجاحظ بكثرة ثورات العلويين وخروجهم على

---

(١) ٤ : ٦٥ — ٦٧ مروج الذهب

(٢) ١١٠ : ١٦٢ طبرى ، ٢ : ١٣٠ شذرات الذهب ، ٤ : ١٢٠ مروج الذهب

الخلافة ، وذلك راجع لاضطهادهم واضطهاد شيعتهم ، وقد زاد هذا الاضطهاد حدة فى عهد الرشيد والمتوكل(١) .

ولم تخل البلاد فى عصر الجاحظ من الفتن والحروب ؛ ففى الداخل نهض الخلفاء إلى قمع ثورات الراوندية أتباع ابن الراوندى الرافضى ، والزنادقة فى فارس والعراق ، والخرمية أتباع بابك الخرمى الذى ملك « الجبل » أكثر من عشرين عاما (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) حتى قضى المعتصم على ثورته ؛ وفى الخارج كانت غزوات الصيف والشتاء مستمرة ، وأكثر ما كانت موجهة إلى الأمبراطورية الرومانية الشرقية فى سهول آسيا الصغرى ، وخاصة فى زمن الرشيد والمعتصم .

وفى ظلال هذه الفوضى السياسية استقلت بعض البلاد عن حكم الخلافة العباسية ، كالدولة الطاهرية بخراسان وهى فارسية ، والدولة الدلفية بكردستان وهى عربية ، وسواهما . .

---

(١) ٧ : ١٩ تاريخ ابن الأثير ، ١ : ٤١ ظهر الإسلام لأحمد أمين ، ١٧٣ الإدارة الإسلامية لمحمد كرد على ط ١٩٣٤

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية فى عصر الجاحظ

— ١ —

أساس الحياة الاجتماعية هو الحالة الاقتصادية فى أى مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم . ولقد كانت الحياة الاقتصادية فى عصر الجاحظ لا تكاد تستقر على أساس متين ، وإذا كان الجمالون يحاولون التخلص بكرائم أموالهم من أيدى السلطان بالحيل ، كما يقول الجاحظ(١) ، فما بالك بغيرهم من أصحاب الأموال .

انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للمقربين لدى الخلفاء والوزراء ، وكان كبار الملاك يستقلون بإقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين حالة الناس ، وكانت الرشوة منتشرة بين طبقات الموظفين صغارهم وكبارهم جميعا ، وعمت المصادرة ، وصارت مصدراً من مصادر بيت المال(٢) ، وأنشىء لها ديوان مخصوص(٣) ، وكانت ضرائب الأطيان أساس دخل الخلافة(٤) وقد كثرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواهم من طبقات الخاصة ، وتنافسوا فى الترف وتشييد القصور ، وكان الفرق بين طبقة الخاصة وطبقة العامة كبيراً(٥) ،

---

(١) ٣ : ٢٠٧ الحيوان ، ط الحلبى القاهرة

(٢) ٤ : ١٨٠ التمدن الإسلامى

(٣) ١٦٩ الادارة الإسلامية ، ١ : ٣٥ ظهر الاسلام

(٤) ٥٣ تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد

(٥) ٥ : ٢٠-٥٩ و ١٠١-١٢٩ التمدن الاسلامى

والنفوذ والثراء فى أيدى الخاصة من الناس ، مما استلزم البذخ والرفاهية ، فالمعتصم أنفق على بناء سامرا أموالا طائلة ، وكذلك فعل المتوكل فى بناء الجعفرى ، ونلمس من ذلك أن الترف والنعيم كانا حظ عدد قليل ، هم الخاصة من الناس ، وبعض رجال التجارة والصناعة ، حين كان الفقر والشقاء للعامة وهم أكثر الناس(١) . . ومن مظاهر الثراء فى عصر الجاحظ : كثرة الرقيق حتى امتلأت به القصور ، فكثر نسل الجوارى ، واختلطت الدماء ، وشاع الغناء ، وذاع اللهو والمجون بين مختلف الطبقات . وذلك كله أثر لاقتصاديات البلاد الواسعة ، وعدم عدالة توزيعها بين الناس . وقد انتشرت تجارة الرقيق من الصقلبيين والترك وغيرهم ، ويشبه الجاحظ أصناف الرقيق بألوان الحمام فشبه الصقالبة بالحمام الأبيض ، والزنج بالحمام الأسود . واشتهر من الأرقاء الغلمان الذين كانوا مثلا للجمال والظرف ، والغلاميات الحسان يقصصن شعورهن ، ويلبسن ثياب الغلمان . وكان للجاحظ عدة غلمان ، منهم غلام اسمه « نفيس »(٢) .

ويقول أبو عثمان : ابتعت خادما كان قد خدم أهل الثروة واليسار وأشباه الملوك ، فمر به خادم من معارفه ، فقال له : إن الأديب وإن لم يكن ملكا يجب على الخادم أن يخدمه خدمة الملوك(٣) .

ولضيق أبواب الرزق على كثير من الشعب ، وقصور وسائل الكسب من أن تفى بمطالب الحياة ، اتخذ بعضهم تكفف الناس حرفة ، وقعدوا للسؤال فى كل مقعد ، ولما استرعى هؤلاء نظر رسول ملك الروم إلى المنصور ، قال لعمارة بن حمزة وكان يرافقه من قبل المنصور فى تطوافه ببغداد :

---

(١) ١ : ٩٧ ظهر الإسلام
(٢) ٤ : ٢٦ و ٢٧ البيان ـ الخانجى ـ القاهرة
(٣) ٢ : ٢٣١ المرجع السابق

إنى أرى عندكم قوما يسألون الناس ، وقد كان يجب على صاحبك أن يرحم هؤلاء ويكفيهم مؤنهم وعيالاتهم ، فاعتل له عمارة بوجه ، واعتل له المنصور بوجه .

وقد صور أبو العتاهية حياة الفقراء والشعب فى شعره تصويراً رائعا . ومن ذلك وضعه للغلاء فى بغداد فى قوله :

من مبلغ عنى الإما   م نصائحا متوالية
إنى أرى الأسعار أسـ   ـعار الرعية غالية
وأرى غموم الدهر را   ئحة تمر وغادية
وأرى اليتامى والأرا   مل فى البيوت الخاليه
من بين راج لم يزل   يسمو إليك وراجية
يشكون مجهدة بأصـ   ـوات ضعاف عالية
من للبطون الجائعات   وللجسوم العارية(١)؟

وأكثر أبو العتاهية فى شعره من الدعوة إلى الزهد ، والرغبة عن الملذات والانصراف عن الدنيا ، وذلك من أثر الحرمان والفقر ، يقول من شعره :

رغيف خبز يابس   تأكله فى زاويه
وغرفة ضيقة   نفسك فيها خالية
أو مسجد بمعزل   عن الورى فى ناحية
تدرس فيه دفتراً   مستنداً بسارية
خير من الساعات فى   فىء القصور العالية

---

(١) ٣٠٤ ديوان أبى العتاهية

— ٢ —

وكانت الدولة الإسلامية فى ذلك الحين مؤلفة من عدة عناصر أهمها :

١ — العنصر العربى ، وقد أقصى عن النفوذ ، وكان للمعتصم فى ذلك آثار معروفة ، وكان ما بقى لهم من نفوذ أظهر ما يكون فى الجزيرة والشام حيث كونوا لهم هناك عدة دويلات ، وطابع العربى الزهو والاعتزاز بالنفس والفضائل ، والميل إلى الأدب ، والرغبة فى السياسة .

٢ — العنصر الفارسى ، وكانوا عماد النظام السياسى والإدارى للدولة ، التى تأثرت بهم فى حياتهم العقلية الخصبة وفى عاداتهم وتقاليدهم العامة وهم دعاة الترف والمجون والحضارة ، وطابعهم البذخ والعمل السياسى والإدارى المنظم ، وتشجيع العلوم ، والظهور بمظهر التشيع .

٣ — العنصر التركى ، علا أمرهم منذ عهد المعتصم ، وقضوا على نفوذ العرب والفرس ، فاتجه الفارسيون إلى الإستقلال ببلادهم ، وأخلاق الترك الاجتماعية ضعيفة ، وفيهم عبث بالأخلاق ، وشراهة فى جمع المال وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة ، فكثرت الجوارى التركيات والغلمان الأتراك فى قصور الأثرياء ، وكان بعض الخلفاء من أمهات تركيات ، وطابعهم حب الجندية والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلسفة والجدل فى الدين ، وعدم الرغبة فى التجديد .

٤ — العنصر الرومى . وقد كثر أسراهم فى بيوت الخلفاء والأثرياء ، وكان بعض الخلفاء من أمهات روميات ، وكانت الجوارى الروميات والغلمان الروم يملأون القصور ، ويتعشقهم الشعراء ، ومنهم نسيم غلام البحترى(١)

---

(١) ٧ : ٩٤ مطب الأغانى ، ١ : ١٠٠ معاهد التنصيص

ومن هذا العنصر ابن الرومى الشاعر (٢٢١ — ٢٨٣ هـ) .

٥ — الزنج أو السود ، كانوا يجلبون من سواحل أفريقيا الشرقية للعمل فى الزراعة والصناعة ، وفى بيوت الطبقات المتوسطة ، وفى الحراسة وغيرها من الأعمال ، وقد قاموا بثورة كبيرة قضى عليها الموفق عام ٢٧٠ هـ ، بعد خمسة عشر عاما .

— ٣ —

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة ، وترف وفقر ، ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضا للنحل ، ومجالا للدعايات السرية وأصحاب المذاهب الذين مزجوا الأغراض الاجتماعية بالمبادىء الدينية ، وعالجوا الترفيه عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة ، فكان فيها التشيع برجالاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف الأقوال فيها ، والفلسفة بمذاهبها ، والعلوم الحديثة بأنواعها ، وطوائف الأديان الأخرى بمبادئهم وآرائهم .

وقد قامت جماعات تكافح الشك فى الدين ، والمجون فى المجتمع ، وتدعو إلى الأخلاق الإسلامية الأصيلة ، ومنهم الحنابلة الذين قاموا بثورات فى بغداد لمحاربة الإلحاد واللهو . على أن النزعة السائدة من الجانب الدينى كانت هى الحرية الدينية ، وساعد على ذلك قيام المعتزلة الذين قرروا حرية العقل ودافعوا عنها ، وكذلك ترجمة الفلسفة اليونانية وذيوع مذاهبها فى الفكر الإسلامى ، وقامت ضجة عالية بين مختلف الفرق الاجتماعية والدينية من نصارى ويهود ، وصابئة وزرادشتيين ومانويين وزنادقة ودهريين وغيرهم ، وكان بين المعتزلة وأهل السنة والشيعة ورجال الحديث ، وبين الخوارج والرافضة وبين الجهمية والمرجئة وغيرهم جدل شديد .

وهكذا عاش الناس فى امتزاج وتوليد بين مختلف العناصر والأجناس، وفى صراع شديد ، بين الآراء والمذاهب ، بين العرب والموالى ، بين دعوات العروبة الخالصة ودعوات الشعوبية الجامحة ، بين حياة الزندقة وحياة الإيمان ، بين عيشة اللهو وعيشة الجد ، مما أثمر ثمره فى الحياة الاجتماعية فى عصر الجاحظ .

ومما كان له دويه الشديد وصداه العميق فى حياته وثقافته وأفكاره وآرائه .. على أن كتب الجاحظ هى أغزر مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية فى عصره (١) .

---

(١) ١ : ٤١٠ ضحى الإسلام

الفصل الثالث

الحياة العقلية فى عصر الجاحظ

— ١ —

ازدهرت الحياة العقلية فى عصر الجاحظ ازدهارا كبيرا ، وتلاقت فى الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التى تمثل حضارات الأمم العريقة فى العلم والثقافة ؛ وأخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية فى شتى جوانبها ، ويضفون عليها ظلال رعايتهم وتشجيعهم ، وكانوا يبالغون فى اكرام الأدباء والعلماء ويجالسونهم ويقربونهم إليهم ، وصار العلم والأدب وسيلة إلى المناصب العالية ، والنفوذ والجاه ؛ وكان كل من نبغ فى العلم ، أو شهر بالأدب ترفع منزلته ، ويتنافس العظماء فى تكريمه ، كما يتنافسون فى إنشاء دور العلم ، وترجمة الكتب إلى العربية من مختلف اللغات .

وإذ كانت الدولة مزيجا من شعوب كثيرة ، كانت عقلية الشعب العربى آنذاك صدى لامتزاج الثقافات ، وتلاقى الحضارات ، ولتصافى الأجناس فى غالب الأمر .

كانت الثقافة العربية الإسلامية هى الذائعة ، وهى أساس التكوين العقلى للطالب العربى فى عصر الجاحظ ؛ وقوامها علوم الدين ، واللغة والأدب ، وما يتصل بكل ذلك من علوم ومعارف ؛ ولهـا أكبر الأثر فى الفكر الإسلامى فى عصر الجاحظ ، كما كانت المورد العذب للناس جميعا .

وحيث كان النفوذ فى عصر الجاحظ للفرس ، فقد انتشرت ثقافتهم انتشارا كبيرا على أيدى الوزراء والكتاب الفارسيين ، ونقل المثقفون من

الفرس الذين أجادوا العربية ، والعرب الذين أتقنوا الفارسية ، إلى العربية، تراث الفرس القديم فى الحضارة والثقافة ، ويقول ابن خلدون (٨٠٨ هـ) : إن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم (١) .

ودخلت الثقافة اليونانية فى هذا العصر على الفكر الإسلامى بامتزاج العرب واليونان فى الحياة الاجتماعية ، وخاصة فى الشام ، وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية ؛ وإذا كان خالد بن يزيد (٨٩ هـ) أول من ترجم له كتب النجوم والطب والكيمياء(٢) فقد عنى المنصور (١٥٨ هـ) بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة . وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بما لديه من كتب الفلاسفة واختار لها مهرة التراجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها (٣) ، وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والسريانية والفهلوية (٤) .

وكذلك فعل الرشيد الذى أنشأ فى بغداد بيت الحكمة ونقل إليه ما وجده من كتب فى أنقرة وعمورية وبلاد الروم التى غزاها المسلمون ، وقلد يوحنا بن ماسويه أمر الإشراف على ترجمة الكتب القديمة ، وأوفد المأمون الرسل إلى ملك الروم فى استخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط العربى وبعث المترجمين لذلك (٥) ، وعين سهل بن هارون مشرفا على بيت الحكمة ، التى امتلأت بالكتب المهداة إلى الخليفة من ملك جزيرة قبرص ومن ملك الروم .

---

(١) ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون .

(٢) ١ : ٢١٣ البيان والتبيين للجاحظ ٤٩٧ الفهرست لابن النديم ، ٩٣ رسائل الجاحظ .

(٣) ٤٨٠ المقدمة ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسى .

(٤) ٤ : ٢٤١ مروج الذهب .

(٥) ٤٨١ المقدمة .

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر العربى مباشرة وبوساطة الفرس أيضا .

تجمعت هـــذه الثقافات فى العراق فى عصر الجاحظ ، وأحدثت أثرها الضخم فى العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل فى امتزاج هذه الثقافات (١) ، وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب ، فقدموا معانى لم يكن الأدباء والشعراء يعرفونها .

ومنذ عصر المتوكل زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها ، بتطاول الزمن وتلاقح العلوم ، وظهور آثار حركة الترجمة ، وتشجيع الخلفاء والوزراء والأمراء والولاة للعلم والعلماء ، فكان هـــذا العصر أزهى عصور العلم فى البلاد الاسلامية ، ونبغ أعلام خالدون فى كل فرع من فروع الثقافة ، وعرف الناس أن « كل عز لم يؤكده العلم فإلى ذل يؤول » ، فانكبوا على الثقافة ، وعهد أهل اليسار إلى المؤدبين بتعليم أبنائهم ، وبذلك أصبح التعليم صناعة ، وصار التأديب طريقا إلى المجد والسؤدد (٢) .

وكانت هـذه الثقافات المتعددة تؤلف التراث العلمى فى ذلك العصر ، وفيها زبدة علوم الأشوريين والبابليين والفينقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان ، وكان لابد للرجل المستنير أن يأخذ بحظ من الثقافات جميعها (٣) . . . وكانت السيادة أولا لنزعة الاعتزال التى أيدها المأمون بكل قوته ، وفى عصر المتوكل انتهى سلطان المعتزلة وارتفع شأن المحدثين ، وبطل القول فى خلق القرآن . واضطهد رؤساء المعتزلة .

---

(١) ١ : ٣٨٠ ضحى الإسلام .

(٢) ٢ : ٣١٣ أمراء البيان ـ محمد كرد على ط ١٩٢٧ القاهرة .

(٣) ١٢ الجاحظ لفاخورى .

— ٢ —

وقد تعددت مراكز الحياة العقلية العربية فى عصر الجاحظ فنشطت الدراسات الدينية واللغوية فى مصر ، وتفوقت الشام فى الشعر والآداب واللغة (١) ، وكان للعراق والصدارة فى العلم والأدب والفلسفة ، وأصبحت بغداد والبصرة وحران من أهم مراكز البحث العلمى والحضارة فى عصر الجاحظ ، فالجاحظ والكندى (٢٥٣ هـ) بصريان،والبتانى الرياضى الفلكى من حران ، واشتهرت بلخ وخوارزم وأصفهان فى ميدان الفكر والثقافة .

عمرت مجالس العلم والأدب ، والعهد بعلماء البصرة : يختلفون إلى المسجد والمربد ، وكان المسجديون والمربديون جماعا من شعب الأدب والرواية ؛ أما الكوفة فيختلف بنوها إلى الكناسة مجمع الشعراء والأدباء ، وإلى مسجدهم مجمع العلماء ، ومغنى القراء ، والمنافسة بين البصرة والكوفة على أشدها ، أما بغداد فكانت تنعقد مجالسها ، وتغص مساجدها بأرباب العقول وقادة الفكر وأمراء البلاغة ، وشعراء المحدثين (٢) .

— ٣ —

وهكذا كان عصر الجاحظ حافلا بالعلوم قديمها وحديثها ، كما كان حافلا بالفلاسفة والمفكرين والعلماء ؛ وصارت العلوم المترجمة شرطا فى تكوين ثقافة الكاتب والأديب ؛ وعلى أى وجه فقد كانت مناهج التفكير متعددة ، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده فى العراق ، حتى رأينا

(١) ١ : ٨ يتيمة الدهر للثعالبي ، ١ : ١٧٧ ظهر الاسلام لاحمد امين .
(٢) ٢ : ٣١٢ امراء البيان .

ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) يثور فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب » على الحالة فى عصره ، حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق (١) ولقد نبغ فى عصر الجاحظ كثير من أئمة العلماء،ومن أشهرهم:

١ - فى التشريع : مالك (١٧٩ هـ)، والليث بن سعد (٩٢ - ١٧٥ هـ)، والشافعى (٢٠٤ هـ) ، واحمد بن حنبل (٢٤٠ هـ) والكرابيسى (٢٤٥ هـ) ، والزعفرانى ٢٦٠ هـ ، وداود الظاهرى (٢٠٢ - ٢٧٠ هـ) ، والبويطى المصرى ٢٣١ هـ .

٢ - وفى العلم : أبو الحسن المدائنى (١٣٥ - ٢٣٤ هـ)، والواقدى (١٣٠ - ٢٠٧ هـ) ، والزهرى كاتب الواقدى (٢٣٠ هـ) ، وابن السماك ١٨٣ هـ .

٣ - وفى التصوف : ابراهيم بن ادهم البلخى ١٦٢ هـ ، وصالح المرى الزاهد واعظ البصرة ١٧٢ هـ ، ورابعة العدوية (١٠٠ - ١٨٠ هـ) (٢) ، وبشر الحافى البصرى (٢٢٧ هـ) ، وذو النون المصرى (٢٤٥ هـ) ، والمحاسبي (٢٤٣ هـ) ، والبسطامى (٢٦١ هـ) .

٤ - وفى علوم اللغة والأدب : المفضل الضبي (١٧٠ هـ) ، والخليل (١٠٠ - ١٧٥ هـ) ، وسيبويه (١٨٨ هـ) ، والأصمعى (٢١٦ هـ) ، وأبو زيد الأنصارى (٢١٤ هـ) ، وابو عبيدة (١١٠ - ٢٠٨ هـ) ، وابو محمد اليزيدى (٢٠٢ هـ) ، والقاسم بن سلام (١٥٠ - ٢٢٣ هـ) ، وابن الأعرابى الكوفى (١٥٠ - ٢٣١ هـ) وهو من أصل هندى ، وابن سلام الجمحى البصرى ٢٣١ هـ ، ومصعب الزبيرى (٢٣٦ هـ) ، والتوزى (٢٣٨ هـ) ، وابو العميثل (٢٤٠ هـ) ، وابن السكيت (٢٤٤ هـ) ، ومحمد بن حبيب (٢٤٥ هـ) ، والمازنى

---

(١) ص ٢ وما بعدها - أدب الكاتب بهامش المثل السائر

(٢) : ٢٧٨ العبر فى خبر من غبر للذهبي (٧٤٨ هـ) الكويت ١٩٦٠

(٢٤٩ هـ) وابو حاتم السجستانى وقد توفى ـ كالجاحظ ـ عام ٢٥٥ هـ، والزبير ابن بكار (٢٥٦هـ)، والرياشى (٢٥٧هـ)، وعمرو بن شبة (١٧٣ - ٢٦٢ هـ)، وابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ)، والمبرد (٢١٠ - ٢٨٥ هـ).

٥ - وفى علم الكلام ظهر من المعتزلة: بشر بن المعتمر (٢١٠ هـ) وثمامة بن أشرس ٢١٣ هـ، والنظام (١٨٠ - ٢٢٣ هـ)، وابن أبى دواد (١٦٠ - ٢٤٠ هـ)، ويحى بن أكثم ٢٤٣ هـ، وابو الهزيل العلاف البصرى (٢٣٥هـ)، والجاحظ (٢٥٥ هـ).

٦ — ومن المفكرين والفلاسفة ابن ماسويه الطبيب ٢٤٣ هـ، والكندى ٢٥٣ هـ، وتلميذه السرخسى ٢٨٦ هـ، وحنين بن اسحاق (١٩٤ - ٢٦٠ هـ)، وابو حنيفة الدينورى ٢٨٢ هـ، وثابت بن قرة (٢٢١ - ٢٨٨ هـ)، ثم البتانى الحرانى (٣١٧ هـ)، وابو زيد البلخى (٣٢٢ هـ) وسواهم.

وهكذا حفل عصر الجاحظ بأفذاذ العلماء والمفكرين ورجال الدين، كما حفل بالأدباء والكتاب والشعراء.

وتلك هى معالم الحياة العقلية فى عصر الجاحظ، بما فيها من مؤثرات وتأثيرات، وبما اشتملت عليه من تطورات ونهضات، وكان الجاحظ يعيش فى قمة هذا الطود الشامخ من الثقافات، يدرس هذه البيئات الثقافية، مصورا ومؤرخا، يحيا ويراقب، يختبر وينظر، يمتزج وينعزل؛ وكان العصر كله مصورا فى نفسه وكتبه، تتجلى فيه وفيها العديد من النزعات والثقافات؛ فكان بذلك علما من أكبر أعلام الفكر العربى، فى عصره وبعد عصره على السواء.

الفصل الرّابع

الحياة الأدبية فى عصر الجاحظ

— ٣ —

صبغت آثار الثقافات المترجمة الحياة الاجتماعية والعقلية فى عصر الجاحظ بأصباغ جديدة ، ولكن أثرها فى الأدب واللغة كان متفاوتا ، فظلت مناهج الأداء والأساليب ولغة الكتابة والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل ، من حيث نضجت معانى الكتاب وخيالات الشعراء ، وعمقت صياغتهم الذهنية وتفكيرهم العقلى إلى حد كبير .. ظلت العربية هى لغة التفكير والأدب وإن سايرت حركة الرقى ، ولم تقف جامدة ضعيفة الإحساس بالحياة .

ولقد أثرى الأدب فى عصر الجاحظ بما ترجم من فلسفة اليونان ومنطقهم ، فقد صبغا عقلية الأدباء والشعراء بآثارهما العميقة فى التفكير والمعانى وطرافة التقسيم والخيال ، كما أثرى كذلك بالمترجم إلى العربية من قصص الهند وأدب الفرس ، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية وللفرس المتعربين مجال كبير فى الأدب العربى ، ومن بينهم : بشار وأبو نواس ، والعتابى (٢٢٠ هـ) وغيرهم .

فأنتجوا أدبا عربيا فيه معانى الفرس وبلاغة العرب . وكبار الكتاب والشعراء فى هذا العصر من أصول فارسية ، ممن أحدثوا آثاراً واسعة فى الكتابة الفنية ، كذلك فى أغراض الشعر ومعانيه وأوزانه وقوافيه ، وإذا كان الأدب فى عهد بنى أمية عربيا خالصا فى المادة والمعنى ، ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظ وروايته ، فقد كان أثرهم فى عهد بنى العباس أعمق ،

لافى الأسلوب البيانى ، بل فى التفكير والخيال ، وبتأثيرهم تنوعت الأوزان وظهر التأنق فى النثر والشعر ، وطلبت الرقة والدماثة ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها .

☆ ☆ ☆

ويمتاز الأدب فى هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه ، ويصدق تمثيله للحياة الاجتماعية ، وبكثرة الحكم والقصص فيه ، وبظهور المؤلفات الجامعة فيه : كالبيان والحيوان وأمثالها ، وبأن الأدب أصبح صناعة علمية فى الإنشاء والتأليف، وأظهر ما يتجلى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال، والمبالغة الشديدة والإكثار من البراهين العقلية والأمثال . . وقد أصاب الأدب كساد ، وانصرف الناس إلى الفلسفة وعلومها مما يبسطه ابن قتيبة فى مقدمة كتاب « أدب الكاتب » .

ولقد كان ظهور الموالى وعلو منزلتهم فى المجتمع العباسى ، مما أحيا فى نفوسهم الشعور القومى ، فظهرت الشعوبية تنفس عن غيظها المكظوم طول عهد الأمويين ، وتمجد العجم بإعلان مآثرهم ، وتزرى على العرب بتلمس المثالب لهم ، وتسجل ذلك فى الشعر ، من أمثال بشار ، والخريمى وأبى نواس ، وفى الكتب يضعها أمثال أبى عبيدة والهيثم بن عدى ، وسعيد بن حميد ، وعلان الشعوبى ، وانبرى لهؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم ، ويدفع عن العرب وينتصر لهم ، كالجاحظ وابن قتيبة ومحمد بن يزيد الأموى .

وكان الأدب فى هذا العصر يعيش فى ظلال القصور ، التى تملك من النفوذ والثراء وأسباب الترف ما لا يملكه الأدباء ، ولا العامة من الشعب .

وظهر تأثير الحضارة فى أدب الكتاب وشعر الشعراء واضحاً جليا ، خاصة فى طبقة شعراء اللهو والغزل والمجون من أمثال بشار ومطيع بن إياس ووالبة وأبى نواس ومسلم وحسين بن الضحاك وغيرهم . وقد ضعفت الخطابة فى هذا العصر بزوال أسبابها ، وأعجمية رجال الدولة ، ولأن العرش العباسى كان قد حكم بالاستبداد ، وبطلت الخطابة فى الجيوش ، وضعفت الملكات .

وصار فى الكتابة ، وقد تنوعت أساليبها وأغراضها،غنى عن الخطابة . فاحتلت كتابة الرسائل منزلة سامقة ، وقد كان للانقلاب العباسى أثر فى الميول والعقول ، ظهر على أقلام الكاتبين فاستنبطوا عيون المعانى ، وتخيروا شريف الألفاظ ، مما لم يكن حوشيا ولا سوقيا ، وفتحوا أبواب البديع،وبذ الكتاب فحول الشعراء فى الثراء والجاه ، ونبغ فى الكتابة كما نبغ فى الأدب والشعر جمهور كبير ، ونهض الشعر فى هذا العصر نهضته التى لم يبلغ مثيلتها فى عصر من العصور .

— ٣ —

وكانت مصادر الثقافة الأدبية فى هذا العصر كثيرة ، ومن أهمها : القرآن والحديث ، والكتب المؤلفة حولها مما يتصل بالأدب من مثل : مجاز القرآن لأبى عبيدة ، ونظم القرآن للجاحظ ، والإعجاز للواسطى المعتزلى (٣٠٦ هـ)،وكذلك خطب الخطباء وحكم الحكماء ورسائل الأدباء ، وكتب التاريخ والسياسة ، وكتب الأدب الجامعة : كالحيوان والبيان والتبيين وعيون الأخبار ، وكتب الكتابة والنقد والبيان ومنها كتاب الفصاحة للسجستانى والبلاغة للمبرد وقواعد الشعر لثعلب ، والرسالة العذراء لابن المدبر . ثم كتب الشعر وأخبار الشعراء وطبقاتهم ، وغير ذلك من روايات الرواة وأخبار الأخباريين وأحاديث الاعراب .

ويقول الجاحظ : « وقد أدركت رواة المسجديين والمربديين ، ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الاعراب ونسيبهم ، والارجاز الأعرابية القصار ، والأشعار المنصفة ، فإنهم كانوا لايعدونه من الرواة ، ثم استبردوا ذلك كله ، ووقفوا على قصار الحديث والقصائد والفقر والنتف من كل من كل شيء ، ولقد شهدتهم وماهم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف نسيب الأعراب ، فصار زهدهم فى نسيب العباس بقدر رغبتهم فى نسيب الأعراب، ثم رأيتهم منذ سنيات وما يروى عندهم نسيب الاعراب إلا حدث السن قد ابتدأ فى طلب الشعر ، أو فتيانى متغزل ، ولقد جالست إلى أبي عبيدة والأصمعى ويحيي ابن نجيم وعمرو بن كركرة ، مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد إلى شعر فى النسيب فأنشده ، وكان خلف الأحمر يجمع ذلك كله »(١) .

ومن ذلك نعلم أن الرواة كانت تختلف أذواقهم فى الرواية بين وقت وآخر ، كما تختلف أذواق الناس فى الملابس و (المودات) اليوم .

— ٤ —

ومن أشهر أعلام النهضة الأدبية فى عصر الجاحظ : أبو نواس ١٩٨ ﻫ ومسلم ٢٠٨ ﻫ ، وأبو العتاهية (١٣٠ - ٢١١ﻫ) ، وأبو تمام (١٩٢ - ٢٣١ ﻫ) وأبان اللاحق (٢٠٠ ﻫ) ، والعتابى ٢٢٠ ﻫ ، وديك الجن (١٦١ - ٢٣٥ ﻫ) وعلى بن جبلة (١٦ ، ٢١٣) ودعبل (١٤٨ ، ٢٤٦ ﻫ) ومحمود بن الحسين الوراق ٢٣٠ ﻫ ، وعبد الصمد بن المعذل (٢٤٠ ﻫ) وكان شاعر البصرة (٢)

---

(١) ٤ : ٢٣ و ٢٤ البيان والتبيين - نشر الخانجى

(٢) ٩٣ خاص للثعالبي ، ٣ : ٧٤ زهر الآداب للحصرى

وعلى بن الجهم (٢٤٩ هـ)، والحسين بن الضحاك الخليع (١٦٢ - ٢٥٠ هـ)، وابن الرومى (٢٢١ - ٢٨٣ هـ)، والبحترى (٢٨٤ هـ).

وكذلك: الفضل البرمكى (١٤٧ - ١٩٢ هـ) والفضل بن سهل (٢٠٢ هـ)، والفضل بن الربيع (٢٠٨ هـ)، وابراهيم بن المهدى (٢٢٤ هـ) وابراهيم الموصلى (١٢٥ - ١٨٨ هـ)، والحسن بن سهل (١٦٦ - ٢٣٦ هـ) واسحاق الموصلى (٢٣٥ هـ) وعمرو بن مسعدة (٢١٤ هـ) واحمد بن يوسف (٢١٣ هـ) وابراهيم بن العباس الصولى (٢٤٣ هـ) وسعيد بن حميد (٢٦٠ هـ)، والحسن بن وهب (٢٦٥ هـ)، وسليمان بن وهب (٢٧٢ هـ)[2]، وابراهيم بن المدبر (٢٧٩ هـ) وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٢ هـ)، وابن أبى الدنيا (٢٨١ هـ)، وابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ)، وأبو على البصير (٢٥١ هـ)، وجحظة البرمكى (٢٢٤ - ٣٢٦ هـ) وسواهم.

وهكذا حفل عصر الجاحظ بكثير من أعلام اللغة والرواية والأدب والشعر والنقد؛ وكان الجاحظ درة العصر، وقمة مابلغه من نهضة أدبية مرموقة.

---

(١) ١ : ٤٢٣ العبر للذهبى

(٢) ٤ : ٢١٠ مروج الذهب للمسعودى، ويهمل تاريخ وفاته عام ٧٠

الباب الثانى

حياة ابى عثمان الجاحظ

١٥٠ — ٢٥٥ ﻫ

٧٦٧ — ٨٦٨ م

الفصل الأول

البصرة موطن الجاحظ

– ١ –

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بصرى ، ولد ونشأ وعاش ومات فى البصرة ، ولم يغادرها إلا قليلا إلى بغداد أو غيرها من العواصم والبلدان .

ولقد بنيت البصرة فى الإسلام عام ١٤ ﻫ ، بناها عتبة بن غزوان بأمر الخليفة عمر بن الخطاب ، فأخذ عمرانها فى الإتساع ، والحياة فيها تزدهر رويدا رويدا ، ونبغ منها فحول العلماء والشعراء ، والأدباء والمفكرين على مر العصور ، وحسبك بالجاحظ ابنا من أشهر أبنائها ، وعلما من أكبر أعلامها .

وصارت البصرة بعد قليل من أكبر مراكز الحياة العقلية فى الإسلام، وميناء العراق الكبرى ، ومن أعظم الموانىء البحرية فى العالم الإسلامى القديم ، ترد إليها التجارة من كل مكان ، وتنقل تجارة البلاد العربية فى سفنها الكبيرة إلى جميع موانى المحيط الهندى حتى الصين ، ويغشاها أصناف من شعوب آسيا وإفريقية ، وقد اشتهر البصريون بأسفارهم البحرية فى المحيط الهندى ، وفى البحر الرومى (الأبيض المتوسط) ، وفى غيرهما من البحار ، وكان لهم مران على التجارة يصرفونها فى البر والبحر ، تاركين الزراعة لأبناء الذمة من السريان ، والعجم والزنج وغيرهم (١) ، ومراكب

---

(١) ٢ : ٣١٤ أمراء البيان ـ محمد كرد علي ط القاهرة ١٩٣٧ .

البصرى عزيزة عنده كمنزله ، والجاحظ يذكر المراكب ويقدمها على المنزل (١) ، والبصرى كذلك خبير بالأسماك وأنواعها (٢) .

وازدادت حضارة البصرة فى حياة الجاحظ (١٥٠ — ٢٥٥ هـ)،وعم الرخاء والرفاهية جميع سكانها ، واتسع البصريون فى المال والتجارة ، وأصبحت المدينة أكبر ما تكون عمرانا ، وأكثر ما تكون ثراء . تزخر بشتى ألوان الحياة والترف ، وكان الخلفاء لا يولون عليها إلا أميرا من أمراء البيت الهاشمى العباسى ، ولى أمورها جعفر بن سليمان بن على(٣) ، وقد دعا الرشيد لزيارة المدينة فزارها عام ١٧٦ هـ (٤) ، ويصف الجاحظ ماقدم على المائدة من طرائف الطعام للخليفة (٥) ، ووليها كذلك محمد بن سليمان الهاشمى ، وقد أهدى إلى الخيزران زوج الرشيد مائة وصيفة فى يد كل واحدة جام من ذهب ، وزنه ألف مثقال مملوء مسكا(٦) ، ومن ولاتها كذلك اسحاق ابن سليمان بن على وليها للرشيد (٧) ، ومات ببغداد ، وكان من معادن العلم(٨) ، ومن ولاتها أيضا عيسى بن جعفر حفيد المنصور وصهر الأمين(٩)

---

(١) ٢٦٨ رسائل الجاحظ نشر السندوبى .

(٢) ٣ : ٢٦١ وأول الجزء السادس والسابع من الحيوان نشر الحلبى .

(٣) ٣ : ٧٤٠ الطبرى ط أوربا .

(٤) ٩٧ الذخائر والتحف لابن الزبير ط الكويت ١٩٦٠ .

(٥) ٧ : ١٨٧ الحيوان ـ نشر الحلبى .

(٦) ١١٥ رسائل الجاحظ نشر السندوبى .

(٧) ١ : ٣٦٤ لسان الميزان ، ويذكر الجاحظ عزله عن البصرة وعكوفه على القراءة (١ : ٦١ الحيوان) .

(٨) ٦ : ٣٤ الحيوان .

(٩) ٣ : ٨٩ المرجع السابق .

وكان سكان البصره من شتى العناصر والأجناس ، مع غلبة العنصر العربى فيها ، وأكبر العناصر تأثيرا فى حياتها الاقتصادية : الفرس ، ثم الزنج الذين قاموا بثورة كبيرة فيها استمرت خمسة عشر عاما (٢٥٥ — ٢٧٠ ﻫ) حتى قضى عليها الموفق . وقد نزل بالبصرة كثير من الصحابة ، واختلط فيها العرب بالموالى بالتزاوج والسكنى ، كما كانت مبرزة فى الميدان اللغوى ، لتبحرها فى العمران والثقافة ، ولقربها من البادية التى عرف أهلها بالفصاحة وصدق اللهجة ، وكانت تبارى الكوفة فى شتى نواحى الحياة والمعرفة ، ولهاتين المدينتين منزلة جليلة فى العالم الإسلامى آنذاك ، بما خرجت حلقاتهما من أعلام اللغة والأدب والشعر والنقد (١) .

— ٢ —

وقد اشتهرت البصرة بمربدها ، الذى كان فى الإسلام سوقا أدبية كبيرة كسوق عكاظ فى الجاهلية ، والمربد ضاحية من ضواحى البصرة فى الجهة الغربية منها ، مما يلى البادية ، بينه وبين البصرة ثلاثة أميال ، وكان سوقا عامة للإبل والتجارة أولا ، ثم للغة والأدب والشعر والنقد والبلاغة أخيرا ، وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة إليها ، أنشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شئونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه .

ومما نقله صاحب اللسان عن النضر بن شميل من أن البصرة بنيت بالمربد نستدل على أنه كان موجودا فى الجاهلية ، وإن كانت أخباره آنذاك معدومة وإنما شهر أمره بعد فتح العرب للعراق ، حيث سكنوه وخططوا البصرة ،

---

(١) راجع الحياة الأدبية فى البصرة - فى القرن الثانى الهجرى .

وأنشأوا فيه المساكن ، وكان من قبل مربداً ـ محبسا ـ للابل فقط . ثم اتصلت العمارة بينه وبين البصرة ، حتى قالوا فيه : « العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة » وصار المربد صورة لعكاظ ، فهو سوق للتجارة ، وسوق للدعوات السياسية ، وسوق للآداب ، وأصبح مجتمع العرب من مختلف الأمصار يتناشدون فيه الأشعار ، ويروون عن أعرابه طرائف الأخبار والآثار .

وفى البصرة نزلت عائشة أم المؤمنين فى مسيرها إلى البصرة مطالبة بدم عثمان بن عفان بعد مقتله ، وكانت تستنصر بأهل البصرة ، وتدعوهم بدعوتها وخرج معها طلحة والزبير ، وخرج أهل البصرة للقائها ، وخرج إليها كذلك عثمان بن حنيف عامل على على البصرة ليقنعها بالرجوع إلى الحجاز ، وأصبح المربد يموج بأنصار على وأنصار أم المؤمنين عائشة عليها السلام ، وتعددت فيه حلقات الخطابة والخطباء ، وهكذا انتقل المربد إلى مجمع حافل .

وفى العصر الأموى شهد المربد نهضة أدبية جديدة ، إذ استراح العرب من الفتح ، واستقرت الممالك فى أيديهم ، وأصبح العراق وخاصة البصرة مقصد العرب يؤمه من أراد الغنى والمتعة ؛ ويسكنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن ، ويقصده أهل البصرة للنزهة والاستجمام ، ومن ثم أصبح ملتقى العرب جميعا ، يتلاقون فيه ، ويحيون به حياة تشبه حياة الجاهلية ، من إحياء للعصبيات ، ومفاخرة بالأنساب ، وتعاظم بالكرم والشجاعة ، وذكر لما كان بين القبائل من احن ، وكان لجرير فيه حلقة ، وللفرزدق حلقة ، وكذلك كان للعجاج ولذى الرمة وغيرهما من الشعراء ، حلقات ينشدون فيها أشعارهم ، وحولهم الناس يسمعون منهم ، وأصبح المربد يزخر بالشعراء ، يتهاجون ويتفاخرون ، ويعلى كل شاعر شأن قبيلته

ومذهبه السياسى ، ويضع من شأن غيره من الشعراء (١) .

وهكذا نشأ فيه فى العصر الأموى لون جديد من ألوان الأدب،وهو الشعر السياسى ، وكثير من نقائض جرير والفرزدق والأخطل كانت أثرا من آثار المربد ، قيلت فيه ، وقيلت فيما كان بين الشعراء من مفاخرة ومنافرة وخصومات .

وبذلك كان المربد مدرسة كبيرة فى العصر الأموى ، تنتج أدبا غزيرا ، وشعرا ضخما ، يعد امتدادا للشعر الجاهلى لاتحاد البواعث والمؤثرات ، وبعد العصر الأموى بقى للمربد نشاطه الأدبى وحده .

وأجل ما كان للمربد من أثر أدبى هو خروج شباب البصرة لتلق الأعراب ومشافهتهم ، والأخذ عنهم ، وتدوين بلاغاتهم ، قال أبو نواس : بكرت إلى المربد ومعى ألواحى أطلب أعرابيا فصيحا (٢) ، ويقول الجاحظ : أدركت رواة المسجديين والمربدين (٣) ، وهكذا ظل المربد قائما فى العصر العباسى : سوقا للتجارة ، ومدرسة للأدب والبلاغة والشعر فحسب ، حتى خربه الزنج فى ثورتهم السياسية (٢٥٥ — ٢٧٠ ﻫ) ، فعفا أثره ، وذهبت دولته .

— ٣ —

ولقد نزل بالبصرة كثير من الصحابة والعرب ، ومن أعلامها الأولين : أبو موسى الأشعرى (٧٠ ﻫ) وأنس بن مالك (٩٢ ﻫ) ، والحسن البصرى (١١٠ ﻫ) ، وابن سيرين (١١٠ ﻫ) ، ومنهم كذلك أبو الأسود الدؤلى

---

(١) ذكر الجاحظ المربد فى الحيوان (١ : ٢٥٨ و ٢٦٠) .

(٢) ٦ : ١٣٩ الحيوان .

(٣) ٤ : ٢٣ البيان ـ نشر الخانجى ـ القاهرة .

(٦٩ هـ) ، والفرزدق وجرير والراعى ، ومنهم سعيد بن أبى عروبة (١٥٦ هـ) وهو شيخ البصرة وعالمها وأول من دون العلم بها[١] فهو أول من صنف بالعراق ، كما أن ابن جريج الرومى أمام الحجاز كان أول من صنف الكتب بالحجاز[٢] ، وكان إياس المزنى قاضى البصرة (١٢٢ هـ) .

ومن أعلامها فى اللغة والنحو والعربية : عيسى بن عمر الثقفى (١٤٩ هـ) أستاذ الخليل وسيبويه ، وأبو عمرو بن العلاء (٧٠ - ١٥٤ هـ) والخليل بن أحمد (١٠٠ -١٧٥هـ) ، ويونس بن حبيب (٩٤ - ١٨٢هـ)[٣] ، وسيبويه ١٨٨ والأخفش الأكبر ١٧٧ هـ[٤] ، ومؤرج السدوسى البصرى (١٩٥ هـ)[٥] ، وأبو محمد اليزيدى (١٢٨ - ٢٠٢ هـ)[٦] والنضر بن شميل المازنى ٢٠٣ هـ ، ويعقوب الحضرمى البصرى النحوى (٢٠٥ هـ)[٧] وقطرب ٢٠٦ هـ ، وأبو عبيدة (١١٠ - ٢٠٨ هـ) . وأبو زيد الأنصارى ٢١٤ هـ ، والأصمعى (١٢٢ - ٢١٦ هـ) ، والأخفش الأوسط ٢٢١ هـ[٨] ، والقاسم بن سلام (١٥٠ - ٢٢٣ هـ) ، وابن سلام الجمحى ٢٣١ هـ ، ويروى الجاحظ عنه كثيرا فى الحيوان والبيان ، والجرمى ٢٢٥ هـ ، والتوزى ٢٣٣ هـ ، وأحمد بن حاتم الباهلى ٢٣٥ هـ ، والمازنى ٢٤٧ هـ ، والزيادى ٢٤٩ هـ ، وأبو حاتم

---

(١) ١ : ٢٢٥ العبر للذهبى
(٢) ١ : ٢١٣ المرجع نفسه
(٣) روى عنه الجاحظ فى الحيوان ٥ : ٥٩١
(٤) أستاذ سيبويه ١ : ٤٨٧ زهر الآداب - الحلبى بالقاهرة
(٥) ١٩ : ١٩٦ معجم الأدباء لياقوت
(٦) ١ : ٣٣٨ العبر للذهبى
(٧) ١ : ٣٤٨ المرجع
(٨) ١١ : ٢٢٤ - ٢٣٠ معجم الأدباء

السجستانى ٢٥٥ ﻫ ، والرياشى ٢٥٧ ﻫ ، والسكرى ٢٥٧ ﻫ ، والمبرد (٢١٠ - ٢٨٥ ﻫ) ثم الزجاج ٣١٠ ﻫ ، والأخفش الأصغر ٣١٥ ﻫ ، وابن السراج ٣١٦ ﻫ ، وابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١ ﻫ) وعبد الرحمن الهمــــذانى ٣٢٠ ﻫ ، والزجاجى ٣٢٧ ﻫ ، وابن درستويه ٣٤٧ ﻫ ، والسيرافى (٢٨٠-٣٦٨ ﻫ) ، والآمدى ٣٧١ﻫ ، والرمانى ٣٨٤ ﻫ .

ومن أعلامها فى الأدب والشعر : ابن المقفع (١٠٦ - ١٤٣ ﻫ) وبشار ١٦٧ ﻫ ، وصالح بن عبد القدوس ١٦٧ ﻫ ، وكان يجلس للوعظ فى مسجد البصرة[1] ومروان بن أبى حفصة ١٨٣ ﻫ ، والعباس بن الأحنف ١٨٨ ﻫ ؛ وأبو نواس (١٤٥ - ١٩٨ ﻫ) ، وأبو الشمقمق ١٩٨ ﻫ وهو شاعر بصرى قدم بغداد أيام الرشيد ، ومسلم بن الوليد ٢٠٨ ﻫ ،وسهل بن هارون ٢١٥ﻫ[2] وحسين بن الضحاك ٢٥٠ﻫ وأشجع السلمى ١٩٩ ﻫ ، والفضل بن عيسى الرقاشى ٢٠٠ ﻫ ، ومحمد بن يسير ، وخالد بن يزيد المهلبى ، والجماز وقد أدرك عصر المتوكل ، وأبو سعيد المخزومى البصرى ، ومحمد بن مناذر ، وابن أبى عيينة ، واحمد بن المعذل البصرى المتكلم ٢٤٠ ﻫ .

ومن أعلامها فى الاعتزال : واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١ ﻫ) وعمرو ابن عبيد (٨٠ - ١٤٤ ﻫ) ، وأبو الهذيل العلاف (٢٣٦ ﻫ - ٨٤٠ م) ، والنظام (١٨٠ - ٢٢١ ﻫ) والجاحظ ، وابن أبى دؤاد (١٦٠ - ٢٤٠ ﻫ) ، ويحي بن اكثم ٢٤٢ ﻫ ، وسواهم ، ومنهم : الجبائى (٢٣٥ - ٣٠٣) ، والأشعرى (٢٧٠ - ٣٣٣) وأبو الحسين الخياط صاحب كتاب الانتصار (٣٠٠ﻫ) .

---

(١) ١٢ : ٨ - ١٠ المرجع السابق

(٢) ٣ : ٣٤ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، ويجعل الجارم فى تحقيقه على البخلاء وفاته عام ١٧٣ ﻫ : ٧٨٩ م نقلا عن الأعــــلام للزركلى وكان شعوبيا (١ : ٥٧٧ زهر الآداب) .

ومن المفكرين والفلاسفة : الكندى ٢٥٣ هـ ، والسرخسى ٢٨٦ هـ ، وأبو زيد البلخى ٣٢٢ هـ ، ومنهم ابن ماسويه ٢٤٣ هـ ، وسلمويه ٢٢٥ هـ ، وابن سهل الطبيب ٢٥٥ هـ . وكذلك أعين الطبيب البصرى (١) ، وقدامة حكيم المشرق(٢) ، وأبو شمر المعتزلى وهو من تلاميذ المدائنى(٣) ، وسابور ابن سهل (٢٥٥ هـ) رئيس مدرسة جنديسابور . .

ومن رواة الأدب والأخباريين البصريين : أبو المنجوف السدوسى البصرى ، وأبو هفان الاخبارى البصرى ، ويحيى بن نجيم ، وعمرو بن كركرة (٤) ، ومحمد بن سلام ، وأبو كعب القاص وكان يقص فى مسجد عتاب كل أربعاء (٥) ، وجهم بن خلف المازنى (٦) ، وأبو اليقظان (١٩٠هـ)(٧) وابن أبى كريمة ، والعتبى ٢٢٨هـ ، وعبدالله الغبشى البصرى الاخبارى ٢٢٨هـ وأبو زيد الأنصارى (٢١٥ هـ) وكان يحفظ ثلثى اللغة والأصمعى ثلثها (٨) ، والمدائنى البصرى (١٣١ — ٢٢٤ هـ) (٩) ، وهشام الكلبى ٢٠٤هـ ، وأبو بكر الهذلى البصرى الأخبارى (١٦٧ هـ) (١٠) .

---

(١) ٢ : ٢٢٣ الحيوان
(٢) ٥ : ٩٥ الحيوان
(٣) ٣ : ٢٥٧ الحيوان
(٤) كان يحفظ اللغة كلها كما قيل ، وكان يزعم أن الأغنياء أكرم عند الله من الفقراء - ١٣١و١٣٢ : ١٦ معجم الأدباء .
(٥) ٣ : ٢٥ الحيوان
(٦) ٣ : ٢٤٢ الحيوان
(٧) ٢ : ١٠ الحيوان
(٨) ١ : ٣٦٧ العبر للذهبى
(٩) ١ : ٣٩١ المرجع
(١٠) ١ : ٢٥١ المرجع

هؤلاء هم أعلام البصرة الذى عاصرهم الجاحظ وروى عنهم ، وتتلمذ على لفيف منهم ، وكانت البصرة فى عصره أكبر حواضر العلم والأدب بعد بغداد ، ومدرسة كبرى تخرج منها الكثير من العلماء والأدباء والشعراء .

وكان من أصدقاء الجاحظ البصريين ، ممن روى لهم ، وسجل فكاهاتهم وجدهم ولهوهم : أبو محمد عبد الله بن هارون العروضى الذى ذكره فى الحيوان (١) ، وجعفر بن سعيد ، وإسماعيل بن غزوان ، وخاقان بن صبيح ، والخريمى كاتب البرامكة ، والحزامى عبد الله بن كاسب ، وعمرو الخاركى البصرى ، وموسى بن عيسى الكسروى ، ومحمد بن جهم المكى (٢) ، ومحفوظ النقاش ، ومحمد بن حسان الأسود ، وتمام بن أبى نعيم ، وأحمد بن خلف اليزيدى البصرى ، وأبو على الأسوارى ، وابن مناذر البصرى الشاعر ، وابراهيم بن سيابة ، وعمرو بن كركرة البصرى المذهب ، وابراهيم بن أبى السندى ، ومحمد بن الجهم البرمكى ، وابن أبى كريمة ، ويذكر الجاحظ قصة إعادة الحياة إلى غلام له (٣) ، ولعله أحمد بن زياد بن أبى كريمة ، وسواهم . .

تلك هى البصرة المدينة البحرية العربية الكبرى ، التى ولد فيها الجاحظ ، وقضى أكثر حياته فى ظلالها ، وتنقل منذ طفولته بين مرابعها ومسارحها ، وقص فى كتبه قصص أعلامها ، وأدبائها وبلغائها ورواتها

---

(١) ٢ : ٣١٦ ، ٣ : ١٨٦ الحيوان ، وقد أخذ عن الخليل وأخذ عنه وزين العروضى الشاعر ٢٤٧ هـ ، وكان بين أبى محمد العروضى وبين النظام عداوة (٣ : ٢٤٨ الحيوان) .

(٢) كان المكى طبيبا طيب الحجج ، ظريف الحيل عجيب العلل (٣ : ٢٢٥ الحيوان)

(٣) ٣ : ٣٥٠ الحيوان .

وبخلائها ، وأحاديث تجارها وعمالها وكهولها ، وذوى التجربة والخبرة فيها ، كما نقل فكاهات وقصص أهل البصرة من المسجديين (١) وغيرهم ، حتى ليقول فى البخلاء : « قال أصحابنا من المسجديين : اجتمع ناس فى المسجد — أى مسجد البصرة الجامع — ممن ينتحل الاقتصاد فى النفقة والتنمية للمال ، من أصحاب الجمع والمنع ، وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب » (٢) .

ثم يقص قصصهم ونوادرهم ووصاياهم فى البخل مما تقف معه على أدب رائع ، وتصوير جليل لبيئة البصرة الاجتماعية والاقتصادية .

ويقول الجاحظ : قال شيخ من أهل المسجد : ما كنت أريد أن أجلس إلى قوم إلا وفيهم من يحدث عن الحسن (البصرى) وينشد للفرزدق (٣) » ، ويقول : وقد أدركت رواة المسجديين والمربديين »(٤) .. إلى نصوص كثيرة أخرى فى هذا الباب .

---

(١) طائفة من البخلاء كانوا يجتمعون فى المساجد « ١ : ٦٢ البخلاء تحقيق الجارم » أوهم قوم اتخذوا المسجد منتدى لهم وطال غشيانهم له فعرفوا به وكانوا خليطا من الشعراء والرواه ومصطنعى الحكمة وكانوا لا يتقيدون بنوع من العلم ، ولهم أثر فى التوجيه الأدبى فى عهدهم « راجع البخلاء تحقيق الحاجرى » ويذكر الجاحظ فتيان المسجديين فى ادبه كثيرا « ٣ : ٣٦٠ الحيوان »

(٢) ١ : ٦٢ البخلاء تحقيق الجارم والعوامرى

(٣) ٣ : ٢٢٠ الحيوان

(٤) ٤ : ٢٣ البيان ـ نشر الخانجى

الفصل الثانى

ميلاد الجاحظ وطفولته

— ١ —

أبو عثمان الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة ، الكنانى الليثى ، من بنى كنانة بن خزيمة ، والد النضر أبى قريش ، وبنو كنانة بطن من مضر ، يقال لهم كنانه طلحة ، والليثى نسبة إلى الليث بن بكر بن عبد مناة ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة ، وإلى هذه القبيلة ينتسب ابو عثمان الجاحظ فهو عربى كنانى .

وقد حاول بعض الشعوبيين أن يخرج الجاحظ من العرب ، لأنه من مفاخرهم الكبرى ، فزعم أن جده فزارة كان مولى لأبى القلمس عمرو بن قلع بن عباد بن القلمس(١) الكنانى الفقيمى ، وكان إلى هذه الأسرة نسء الشهور فى الجاهلية ، وكان فزارة جد الجاحظ أسود اللون ، فقالوا إنه كان جمالا لعمرو بن قلع ، واستندوا فى ذلك إلى رواية منحولة ، تروى عن يموت بن المزرع البصرى(٢) (٣٠٤ هـ) ، وهى : « كان فزارة جد الجاحظ

---

(١) من حكام العرب وذوى الرأى فيهم ، وأول من نسأ الشهور على العرب فى الجاهلية ، وورث أبناؤه عنه هذه المفخرة التى نزل القرآن بتحريمها

(٢) كان الجاحظ خالا لامه ، وكان من العلماء والأدباء والرواة ، وله شعر مأثور ، تتلمذ على المازنى والجاحظ وسواهما « ١٦ : ٨٤ معجم الأدباء لياقوت » وكذلك (١ : ٨ ٤ ضحى الاسلام) ويجعل ابن خلكان الجاحظ خالا له (٢ : =

أسود اللون ، وكان جمالا لعمرو بن قلع » ، ويضيف بروكلمان إلى ذلك أن جد الجاحظ كان زنجيا أسود (١) ، وممن أيد ذلك أحمد أمين (٢) وغيره ، ومعنى ذلك أنه من الجنس الأفريقي الذى اختلط بالعرب بعد الإسلام .

وسواد فزارة فى رأى يموت ليس دليلا على أن الجاحظ انحدر من أصول غير عربية فقد يكون العربى أسود اللون ، وما جاء فى هذه الرواية من أن جد الجاحظ كان جمالا لعربى هو عمرو بن قلع ليس دليلا قاطعا على إثبات ما يزعمون . على أنى أرجح أن الرواية منحولة ، إذ لم ترد عن مصدر موثوق به ، ولم يرو أحد أن أحد آباء الجاحظ كان رقيقا أو وقع فى أسر ، ووصف فزارة بأنه كان مولى لأبى القلمس لا يدل على الرق ، فالمولى يأتى بمعنى الحليف والنصير والصاحب والقريب ، وقد تكون قبيلة عربية صريحة النسب مولاة لقبيلة عربية أخرى (٣) ، والذين هجوا الجاحظ من معاصريه لم يصفوه بالرق ولا بأنه كان مولى لأحد ؛ ولو كان الجاحظ من أصل غير عربى لنزع منزع الشعوبيين ، وذهب مذهبهم ، ويؤيد عروبة الجاحظ أبو زيد البلخى ٣٢٢ هـ ، وابن حزم (٣٨٤ — ٤٥٦ هـ) ، وسواهما .

= ٣٤٥ وفيات الاعيان تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد) وكان من أهل العلم والنظر والمعرفة (٤ : ١٩٦ مروج الذهب)

(١) ٣ : ١٠٦ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

(٢) ١ : ٤٠٨ ضحى الإسلام

(٣) ١٣ أدب الجاحظ للسندوبى القاهرة ١٩٣١ .

ولقد عاش الجاحظ محبا للعرب والعروبة ، يدافع عنهما ، ويرد على الشعوبيين ، وكان يقول فى الشعوبية ، إنها « الحمية التى لا تبقى دينا إلا أفسدته » ويقول الجاحظ : « وأنا رجل من بنى كنانة »(١) ، ويقول : ولكنى أخذت بآداب وجوه أهل دعوتى وملتى ولغتى وجزيرتى وجيرتى وهم العرب(٢) ، ويقول عن الموالى : « وقد نبتت منهم نابتة تزعم أن المولى بولائه صار عربيا ، والأعجمى لا يصير عربيا(٣) » ويقول : « وقد كتبت كتبا فى رد الموالى إلى مكانهم فى الفضل والنقص ، وإلى قدر ما جعل الله لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عدلا بينهم ، وداعية إلى صلاحهم »(٤) ، وهذه النصوص وحدها كافية لإثبات القضية التى يحاول الشعوبيون إثارتها .

إن الجاحظ ينحدر من أصل عربى صريح خالص ، ومن بيت كريم المحتد ، عظيم المنزلة فى الجاهلية والإسلام .

— ٢ —

والجاحظ لقب لأبى عثمان ، فقد كان جاحظ العينين بارزهما ، مشوه الوجه ، وكان يلقب بالحدقى ، لأنه كان ناتىء الحدقتين ، وكان أبو عثمان يأنف من لقب الجاحظ ، ويعتز باسم « عمرو » ، وألف رسالة فيمن يسمى من الشعراء (عمراً) ، ويقول إنه لم يقع فى الجاهلية والإسلام إلا على فارس مذكور ، أو سيد مطاع . أو رئيس متبوع . وكان لقب الجاحظ هو

---

(١) ٢٩١ رسائل الجاحظ ـ من رسالته فى مدح النبيذ ، ويقول عنه ياقوت إنه كنانى (١٦ : ٧٤ معجم الأدباء)

(٢) ٣ : ٢٦٧ الحيوان ـ ط الحلبى

(٣) ٢٩٩ رسائل الجاحظ من رسالته فى بنى أمية

(٤) ٣٠٠ رسائل الجاحظ

الذى شهر به أبو عثمان ، وأصبح لقب فخر وشرف لكل أديب يمكن أن يلقب به ، أو يستعيره رمزاً على اسمه .

وقد ولد أبو عثمان الجاحظ فى البصرة فى أوائل عام ١٥٠ هـ : ٧٦٧ م(١) ويروى عن الجاحظ(٢): أنا أسن من أبى نواس بسنة ، ولدت أول سنة ١٥٠ هـ وولد فى آخرها(٣) ، وهذا نص صريح على أنه ولد عام ١٥٠ هـ فى خلافة المنصور ، ويذكر البعض(٤) أنه ولد عام ١٥٩ هـ : ٧٧٥ م فى خلافة المهدى ، ويذكر آخرون(٥) أنه ولد عام ١٦٠ هـ : ٧٧٦ م فى خلافة المهدى أيضا .

إن الجاحظ على الصحيح ولد فى المحرم عام ١٥٠ هـ : فبراير ٧٦٧ م فى خلافة المنصور العباسى (١٢٦ - ١٥٨ هـ)

— ٣ —

ودرج الجاحظ طفلا فى كنف أبويه ، ولم يلبث أن توفى والده وهو ناشىء صغير ، فنشأ فى كفالة أسرته الفقيرة ، التى كانت من سواد الشعب فى البصرة ، ولما ترعرع دخل الكتاب فى البصرة (٦) ، يتعلم فيه القراءة والكتابة شأن غيره من الأطفال .

---

(١) ٣ : ١٠٦ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة د . النجار ، ١٩ و ٢٠ أدب الجاحظ

(٢) ١٦ : ٧٤ معجم الأدباء لياقوت

(٣) يذكر ابن خلكان نقلا عن تاريخ بغداد للبغدادى (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ أن أبا نواس ولد عام ١٤٦ هـ ، وهذا غير صحيح

(٤) ١ : ٤٠٨ ضحى الاسلام ، ١٩ أدب الجاحظ للسندوبى ، ١٥ الجاحظ للفاخورى

(٥) ٢ : ٣١٥ أمراء البيان - محمد كرد على

(٦) يصرح الجاحظ بأنه تعلم فى الكتاب (٢ : ١٤ الحيوان)

وبدافع الرغبة فى العلم، والطموح إلى مستقبل كريم بسببه، والتعويض عن اليتم الذى هاض جناحه ، أقبل الطفل الصغير بكل قلبه وجوارحه على العلم والدرس والقراءة ، موفور الموهبة ، تام الملكة ، وأخذ يتردد على حلقات العلم فى مسجد البصرة الجامع(١) ، ويتلقى الفصاحة شفاها عن العرب فى المربد ويستمع من القصاص إلى أحداث الفتوح وسير الغزاة وأطوار الزهاد والناسكين ، وكان من أعلام البصرة فى طفولة الجاحظ أمثال ابن أبى ذئب (٨٠ - ١٥٩ هـ) ويزيد بن إبراهيم البصرى ١٦٢ هـ وشعبة المحدث شيخ البصرة ١٦٠ هـ وسواهم .

وكان الجاحظ بعد انتهائه من العمل اليومى التعليمى يذهب ليتعيش بكسب يديه ، فيبيع الخبز والسمك بسيحان(٢) بالبصرة(٣) ، وكانت والدته تعنى به ، ولما ضايقها ما كانت فيه من بؤس وانصراف ابنها إلى العلم والقراءة أكثر مما ينصرف إلى العمل ، جاءت يوما ، وقد طلب منها الأكل ، بطبق عليه كراريس ، فقال : ماهذا ؟ قالت هذا الذى تجىء به ، فخرج من منزله مغموما وجلس فى جامع البصرة ، ويونس بن عمران جالس ، فلما رآه مغتما قال له : ماشأنك ، فحدثه الحديث ، فأخذه معه إلى منزله ، وقرب إليه الطعام ، وأعطاه خمسين ديناراً ، فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره ، وحمله الحمالون إلى داره فعجبت الأم من ذلك وقالت : من أين لك هذا ؟ قال : من الكراريس التى التى قدمتها إلى .

وهكذا عاش الجاحظ فى خلافة المنصور (١٥٠ - ١٥٨ هـ) ، وجزء من خلافة المهدى ، مقبلا على التعليم ، مثابراً على التحصيل ، حتى بلغ مرحلة الشباب .

---

(١) يقول الجاحظ : بينا أنا جالس يوما فى المسجد مع فتيان المسجديين مما يلى أبواب بنى سليم ، وأنا يومئذ حدث السن (٣ : ٣٦٠ الحيوان) .

(٢) نهر البصرة　　　(٣) ١٦ : ٧٤ معجم الأدباء لياقوت

الفصل الثالث

حياة الجاحظ

١ – مرحلة الدراسة والتحصيل (١٦٣ - ١٨٠ هـ)

انتقل الجاحظ من طفولته إلى مرحلة الشباب ، وهى مرحلة الدراسة والتحصيل ، حيث أخذ عن جلة العلماء وأئمة البصرة ، من أمثال القاضى أبى يوسف (١٨٢ هـ) والسرى بن عبدويه ، والحجاج بن محمد ، وحماد بن سلمة البصرى الحافظ عالم أهل البصرة (١٦٧ هـ) ، وصالح بن جناح اللخمى ، ويزيد بن هارون (٢٠٦ هـ) ، وعبدالله بن عون وشعبة بن الحجاج ، وحماد ابن زيد بن درهم الأزدى البصرة ١٧٧هـ ؛ وأخذ عن الخليل (١٠٠ - ١٧٥هـ) وسيبويه ، وعمرو بن كركرة ، ومؤرج السدوسى البصرى ١٩٥ هـ ، والنضر ابن شميل (١٢٢ - ٢٠٣ هـ) وقطرب ٢٠٦ هـ والأصمعى (١٢٢ - ٢١٦ هـ) وأبى عبيدة معمر بن المثنى ٢٠٨ هـ[٢] ، والأخفش الأوسط البصرى ٢١٥هـ . كما أخذ عن أبى إسحاق النظام (١٨٠ - ٢٢١ هـ وثمامة بن أشرس[٣] (٢١٣هـ) وغير هؤلاء ، من أئمة اللغة والشعر وعلوم العرب ، وممن لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم ، وعنهم أخذ جل مافى أيدى الناس من العلم بل كله[٤] .

---

(١) ١٩ : ١٩٦ معجم الأدباء

(٢) ١٩ : ١٥٤ » »

(٣) ٢ : ١٢١ شذرات الذهب لابن العماد

(٤) ٢ : ٣١٧ أمراء البيان

وأخذ الجاحظ كذلك عن الأعراب الفصحاء ، من مثل : أبي المهدى ، وأبي خيرة ، ويزيد بن كثوة ، وأبي الربيع الغنوى ، وأبي المنتجع بن نبهان التميمى ، وعبيد الكلابى ، وسواهم .

وممن روى عنهم من الكوفيين : أبو عمر الشيبانى (١٢٥ — ٢١٠ هـ) ، وابن الأعرابى ٢٣١ هـ . . وكذلك روى عن إبراهيم بن السندى وعلى الأسوارى(١) ، وغيرهم .

وأدرك الجاحظ من أعلام البصرة : عبد العزيز بن مسلم الزاهد ١٦٧ هـ وبشارا (١٦٧ هـ) ، وجرير بن حازم البصرى (١٧٠ هـ) ، وسلام بن سليم المزنى ١٧١ هـ ، وسلام بن أبي مطيع ١٧٣ هـ ، وبشر بن منصور الأزدى ١٨٠ هـ ، وسواهم .

وعن غير هؤلاء من العلماء أخذ الجاحظ أيضا ، حيث اختلف إلى ندوات الشعراء ومجالس الأدباء ، يأخذ عنهم ، ويجالسهم ، ويناقشهم فى البلاغة والأدب والشعر واللغة وكل ضروب المعرفة ، تساعده على ذلك موهبته الأصيلة ، وحافظته القوية ، وذكاؤه المتوقد ، وأمده طموحه وفقره بالمثابرة والقوة فى التحصيل ، كما كان الأحداث فى عصره ، وتطور الحياة والحضارة ، ولحركة الترجمة أثر فى ثقافته وعقليته .

ومن مربد البصرة ، وحلقات المسجديين ، ودروس العلماء ، ومشافهة الأعراب ، وأحاديث البلغاء ، وفكاهات الظرفاء ، ومجالس الحكماء : أخذ الجاحظ كثيرا من ضروب الثقافة ؛ وما أكثر ما كان أبو عثمان الجاحظ يلتقى بالأعراب الواردين على المربد ، يتلقف الفصاحة منهم شفاها .

---

(١) ١ : ٣٥٠ العبر للذهبي .

وعن أدباء الكتاب كابن وهب وابن الزيات أخذ الجاحظ الكثير كذلك من ثقافته الأدبية والنقدية ، وبهم عرف ماهية الشعر ، وقام بحق الأدب والكتابة ، حتى ليقول : طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لايحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لايتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لاينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات(١) ؛ وأعجب أبو عثمان برواة الأخبار فقال فيهم : ورأيت عامتهم ، فقد طالت مشاهدتي لهم ، وهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة ، والمعاني المنتخبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وكل كلام له رونق (٢) .

وأحب الجاحظ العلم والكتاب محبة شديدة ، حتى كان يعد الظفر بكتاب شيئا عظيما ؛ قال محمد بن سليمان الجوهري : كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل ، فخرجنا يوما للنزهة ، فبينا نحن على باب جامع البصرة ، ننظر شيئا أردناه ، إذ عارضت امرأة معها أوراق مقطعة ، فعرضت ذلك علينا ، فلم نجد فيها طائلا فتركناها ، وتخلف معها أبو عثمان ونحن ننتظره ، فأطال . ثم رأيناه قد وزن لها شيئا ، وأخذ الأوراق ومضى بها إلى منزله ، فلما عاد أخذنا نهزأ به ، فقال : « أنتم حمقى والله إن فيها مالايوجد إلا فيها ، ولكنكم جهال ، لا تعرفون النفيس من الخسيس » .

ويحدث أبو هفان عنه فيقول : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته

---

(١) ٢ : ٨٤ العمدة لابن رشيق ، والكشف عن مساويء شعر المتنبي للصاحب ، ويعلق على ذلك الصاحب بقوله : فلله أبو عثمان فلقد غاص على سر الشعر ، واستخرج أرق من السحر .

(٢) ١٦٣ دلائل الإعجاز للجرجاني « ٤٧١ هـ » .

كائنا ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للنظر [١].
ويقول كذلك : لم أر قط ولا سمعت من أكثر محبة للكتب من ثلاثة : الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، واسماعيل بن اسحاق القاضى [٢] (٢٨٢ هـ) ، وقد وصف الجاحظ فى الحيوان الكتاب وصفا رائعا .

وكان الجاحظ كثيرا ما يقصد الكوفة وبغداد ، ليصل بعلمائهما وأدبائهما ، ولما كثرت أعباؤه الأدبية اتخذ لنفسه وراقا خاصا ، هو أبو يحيي زكريا ابن يحيي [٣] .

حذق الجاحظ اللغة والأدب والشعر ، كما حذق علم الكلام وعلوم الدين ، وألم بالثقافات المترجمة ، ولم ينقطع عن القراءة ، ولم يثنه فقره عن العلم ، بل وجد فيه كل لذة ، وأصبح ولوعا به ، مشغوفا بحياته من أجله ، وبدأ يؤلف الكتب إلا أن الناس كانوا ينصرفون عنها ، فلم تلق رواجا ولا ذيوعا وأخذ يؤلف الكتب ، وينسبها لغيره ، فتلقى من الرواج والشهرة أكثر مما كان يقدر ، وكل ذلك ليستطيع أن يعيش ، وأن يدفع عن نفسه الخصاصة . ومرارة الجوع وقسوة الفقر والحرمان .

يقول الجاحظ : « إنى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن فى الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطاب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه إلى نفسى ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته وفصاحته ، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفا لملك معه القدرة على التقديم والتأخير والحط والرفع فانهم يهتاجون عند ذلك هياج الإبل المغتلمة ؛ فإن أمكنتهم الحيلة فى

---

(١) ١٦ : ٧٥ معجم الأدباء .
(٢) ١٦ : ٧٤ المرجع السابق .
(٣) ١٦ : ١٠٦ المرجع ، وفى الأمالى ١ : ٢٤٨ ، يجعل اسمه ابن زكريا

فى اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذى ألف له فهو الذى قصدوه ، وإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريرا نقابا وحاذقا فطنا وأعجزتهم الحيلة سرقوا معانى ذلك الكتاب وألفوا من أغراضه وحواشيه كتابا ، وأهدوه إلى ملك آخر ، ومتوا إليه به ، وهم قد ثلبوه لما رأوه منسوبا إلى ، وموسوما بى ، وربما ألفت الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيرى ، وأحيله على من تقدمنى عصره ، مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب « بيت الحكمة » ويحي بن خالد البرمكى ١٩٠ هـ ، والعتابى ومن أشبه هؤلاء من مؤلفى الكتب ، فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكم من هذا الكتاب لاستنساخ هـــذا الكتاب ، وقراءته على ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيرونه إماما يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأدبون به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ويروونه عنى لغيرهم من طلاب ذلك الجنس ، فتثبت لهم به رياسة ، يأتم بهم قوم فيه ، لأنه لم يترجم باسمى ، ولم ينسب إلى تأليفى (١) » .

وفى هذا المجال عاش أبو عثمان فى خلافة المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) ، والهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ) .

وفى خلافة الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) كان الجاحظ قد بلغ مبلغ الرجال واستكمل كل أسباب ثقافته ، وأخذ يجد فى تأليف الكتب والرسائل ، وكثيراً ماكان ينسبها ، كما سبق ، لغيره (٢) ، وفى عام ١٧٦ هـ ، زار الرشيد البصرة بدعوة من واليها جعفر بن سليمان بن على (٣) ، وشاهد الجاحظ من عظمة الخلافة ماشاهد ، وبهره جلال الخلفاء وعظمتهم . . وأخذ كلما تقدم

---

(١) ص ٨ مقدمة المحاسن والاضداد للجاحظ .

(٢) ٢ : ٣٥٦ و ٣٥٧ أمراء البيان - محمد كرد على .

(٣) ٩٧ الذخائر والتحف لابن الزبير ط الكويت ١٩٥٦ ، ٣ : ٧٤٠ طبرى « أوربا » .

به الزمن تزداد مكانته ، وتطير شهرته العلمية والأدبية فى كل مكان .

ولا شك أن اتساع الثقافة العربية فى عصر الرشيد ، بترجمة الثقافات الأجنبية إلى لغـــة القرآن الكريم ، وحركة المعتزلة وتأثيراتها الفكرية الواسعة ، مما أمد الجاحظ الطموح بطاقات قوية من المعارف والعلوم ، وظل مقيما بالبصرة ، عاكفا على القراءة والكتابة .

٢ — مرحلة الأستاذية والشهرة (١٨٠ - ١٩٨ هـ)

وهذه الفترة من حياة الجاحظ تبدأ وهو فى سن الثلاثين ، والرشيد على عرش الخلافة العباسية ، وتستمر إلى نهاية عصر الرشيد ، وطيلة عصر الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) حتى يبلغ الجاحظ الثامنة والأربعين من عمره .

وقد ألف فى هذه الفترة الكثير من الكتب ، وجلس فى صدر حلقات العلم والأدب ، استاذا وموجها ومفيداً لجماهير العلماء والشباب الإسلامى ، فكان من تلاميذه : أبو بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى (٣١٦ هـ) ، ومحمد بن عبد الله بن أبى الدهاب ، ودعامة بن الجهم . وأبو سعيد الحسن ابن على العدوى ، وابن شبة (٢٦٢ هـ)(١) ، وأبو حاتم السجستانى ٢٥٥ هـ وسواهم .

وفى هذه المرحلة طارت شهرة أبى عثمان فى البصرة والكوفة وبغداد وفى عواصم العالم الإسلامى ، وبين العلمـــاء والأدباء والمفكرين ، وقام برحلات كثيرة إلى مختلف الحواضر الاسلامية دارسا وباحثا ومفيدا ، حتى ليقال إنه زار دمشق وأنطاكية ومصر (٢) .

والجاحظ نفسه يقول فى الحيوان : « ورأيت عجبا آخر ، وهو أنى فى طول

---

(١) ١٦ : ٦٠ معجم الأدباء لياقوت .

(٢) ١ : ٤٠٩ ضحى الإسلام .

مادخلت البراری ، ودخلت البلدان فی صحاری جزیرة العرب والروم والشام والجزیرة وغیر ذلك ما أعلم أنی رأیت حجراً واحداً یجوز أن یدخله ضبع أو ظباء(١) ، وقد زادته الأسفار والضرب فی الآفاق اطلاعا وسعة معرفة ، ومهرت خیاله بصور جدیدة(٢) ، ویقول محمد كرد علی(٣): إنه طاف بأرض العراق والشام وفارس والروم والجزیرة وبلاد العرب .

وقد رأی أبو عثمان مارأی من عظمة الخلافة العباسیة فی عصر الرشید ، وشاهد مصرع البرامكة ومالنطوی علیه من أحداث ، وأدرك وفاة الرشید والصراع علی الخلافة بین ابنیه الأمین والمأمون ، ومقتل الأمین ، وجلوس المأمون علی عرش الخلافة فی المحرم ١٩٨ ھ .

وفی هـذه الفترة تبدلت حیاة أبی عثمان من الحرمان والفاقة إلی الغنی والثراء ، وبعد أن كان یشكو الفقر أصبحت له ضیعة تنسب إلیه ؛ واقتنی مالا وبیتا،وعنی بأبواب بیته فاختار لتركیبها أمهر النجارین(٤).. فقد عرف فضل الجاحظ ، واشتهرت مؤلفاته ؛ وطار ذكره ، ونبه حظه ؛ وطاب عیشه ، ودرج فی بحبوحة الرخاء ، فنبل جده ، وأقبلت الدنیا علیه ، وانثالت علیه المنح والهدایا من الخلفاء والوزراء وأصحاب السلطان ، كالبرامكة والطاهریة وسواهم من ذوی النفوذ والثراء .

٣ — مرحلة المجد والزعامة الفكرية (١٩٨ - ٢٤٧ ھ)

تبدأ هذه الفترة من حیاة الجاحظ ببدء خلافة المأمون وتنتهی بنهایة

---

(١) ٧ : ٤٤٢ الحیوان
(٢) ١٨ الجاحظ للفاخوری
(٣) ٢ : ٧ ٤ أمراء البیان
(٤) ٣ : ٢٧٦ الحیوان

خلافة المتوكل عام ٢٤٧ هـ ، وهو فى السابعة والتسعين من عمره ، وتستمر نحو نصف قرن من الزمان ، بلغ فيه أبو عثمان كل ما يمكن أن يطمح إليه أديب من مجد ، وما يتمناه مفكر لنفسه من الإمامة والزعامة الفكرية فى عصره ؛ وفى هذه الفترة عاصر الجاحظ أربعة خلفاء ، وهم :

المأمون العباسى ١٩٨ - ٢١٨ هـ (٨٣٣م) .

المعتصم العباسى ٢١٨ - ٢٢٧ هـ

الواثق العباسى ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ

المتوكل العباسى ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ

وسوف نتناول حياة أبى عثمان فى هذه المرحلة بشىء من التفصيل .

الجاحظ فى خلافة المأمون :

بلغت الخلافة فى عهد المأمون غاية نفوذها وسلطانها ، وأقصى ما وصلت إليه من رخاء وحضارة ، وأصبحت بغداد مثابة العلماء ، ومقصد الأدباء ، وكان المأمون محبا للعلم ، مكرما للأدباء ، ذا بصر بمختلف فروع الثقافة ، وقد توج المأمون الحركة العقلية والفكرية فى عصره بترجمة كل ما يفيد من تراث الأمم ، وشجع المترجمين على نقل ثقافات الفرس واليونان والرومان والهند إلى العربية ؛ وقد تتلمذ على أيدى شيوخ المعتزلة فى عصره وتأثر بهم ، وكان طبعه ينزع به إلى العلوم والجدل ، فقرب علماء الكلام والفلسفة من المعتزلة إليه ، وذاعت فى عصره محنة القول بخلق القرآن ، واستمرت حتى مات المأمون فى يوم الخميس ١٧ رجب ٢١٨ هـ والجاحظ فى الثامنة والستين .

وفى عصر المأمون الذى امتد عشرين سنة بلغ الجاحظ قمة المجد والزعامة الفكرية والأدبية فى عصره ، وشارك فى مختلف ألوان النشاط

الإسلامى ، وألف الكثير من الكتب ، وتتلمذ عليه فى البصرة العديد من الأدباء والعلماء والشعراء ؛ وكان يفد إلى بغداد بين الحين والحين ، ثم اتخذها دار إقامة له ؛ وكان دخوله إلى بغداد عام ٢٠٤ هـ ، فى الوقت الذى قدم إليها المأمون فيه من خراسان ؛ وما إن استقر به المقام فيها حتى تصدر للتعليم والمناظرة والتأديب والمحاضرة ، فقصده العلماء ، وأمه الحكماء ؛ وممن كان يلزم مجلسه الفراء (١٤٠ - ٢٠٧ هـ) ، وكان كما يقول الجاحظ : يشتهى أن يتعلم منه شيئا من علم الكلام ولم يكن له فيه طبع .

وفى عام ٢١٧ هـ حدث وباء عظيم بالبصرة قضى على أكثر سكانها(١) ، ونجا منه أبو عثمان الجاحظ .

وكان على صلة فكرية بالمأمون ، يقدره الخليفة لعبقريته واعتزاليته ، ويقدر هو الخليفة لسعة ثقافته وميوله الاعتزالية وعظمة الخلافة فى عصره .

ولما قرأ المأمون للجاحظ كتاب « الإمامة » أعجب به إذ وجده على ما أمر به ، وكان قد أمر اليزيدى بالنظر فيها ليخبره عنها ، فأثنى اليزيدى عند الخليفة على الجاحظ وكتابه ، فاستدعاه ، وصار إليه ، فأثنى على عمله(٢) ، وسأله أن يكتب له رسالة فى « العباسية » والاحتجاج لها ، ففعل الجاحظ ؛ وقدمه للخليفة ، ولما نظر المأمون فى الكتاب ، وكان اليزيدى أدخله عليه ، دعا بالجاحظ فقال له : ياعمرو ، قد كان من يرتضى عقله ، ويصدق خبره(٣) ، ألقى إلى صفة هذا الكتاب ، فكنت أرى الصفة عيانا ، فلما حضر العيان أربى على الصفة ، ولما فلى أربى الفلى على العيان ، كأربى العيان على الصفة ،

---

(١) ١ : ٣٧١ العبر فى خبر من غبر للذهبى - ط الكويت ١٩٦٠
(٢) راجع ٣ : ٢٧٤ البيان والتبيين للجاحظ - ط الخانجى
(٣) يقصد به المأمون اليزيدى مؤدبه المتوفى عام ٢٠٢ هـ

وهو كتاب ينوب عن حضور الصاحب ، ويجل عن الحاجة إلى المحتجين له ، جامع لاستقصاء المعانى ، واستيفاء الحقوق ، بلفظ جزل ، ومخرج سهل ، سوقى ملوكى ، عامى خاصى ، قال الجاحظ : فوالله لما أفدته من تعلم صفة هذا الكتاب ، آثر عندى من الكتاب(١) .. ومن رسالة العباسية صفحات قلائل نشرها السندوبى فى كتاب « رسائل الجاحظ »(٢) .

وعاصر الجاحظ محنة القول بخلق القرآن ، واشترك فى تفاصيلها ودافع عن المأمون دفاعا مجيداً فى سياسته فى هذه المشكلة .

وفى أوائل خلافة المأمون ، وبعد أن توثقت الصلة بين الجاحظ والخليفة ، كان المأمون يريد تكريم أبى عثمان ، وإسناد رياسة ديوان الرسائل إليه ، وكانت رياسته أهم منصب أدبى فى الخلافة ، لأن عمل الديوان من أهم مايدور عليه محور السياسة العامة للخلافة ، ولم يكن يتصدر فيه إلا ذوو الأدب والكفاية والموهبة ونباهة الذكر ، والحذق بشتى ألوان الثقافات ، أصيلة أو مترجمة ، وإلا أصحاب السياسة والتدبير والتفوق فى صنوف البلاغات ، وكان إبراهيم بن العباس الصولى (٢٤٣ هـ) من رؤساء الديوان فى أوائل عهد المأمون ، ولشهرة أبى عثمان وذيوع اسمه ، وأن أئمة المعتزلة من مستشارى الخليفة كانوا يثنون عليه ويمدحونه عنده ، ولصلة أبى عثمان بالخليفة ، أخذ المأمون يكلفه بأن يخلف « الصولى » فى الديوان كلما تغيب فى شأن من الشئون العامة أو الخاصة ، ثم أصدر المأمون أمره بإسناد هذا المنصب إلى الجاحظ ، فصدع على كره منه بالأمر ، ولكن حفائظ الكتاب أحنقتهم ، وجلهم من عناصر فارسية ، وهم يرون أن مثل هذا المنصب لايتولاه إلا واحد منهم ، فأثاروا جوا خانقا ظهر

---

(١) ٢ : ٤٨٦ أمراء البيان

(٢) ٣٠٠ - ٣٠٣ رسائل الجاحظ

دخائله ، وتولوا الجاحظ بالغمز ، والدس ، وكان سهل بن هارون(١) يقول: إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب ، واستعفى الجاحظ من منصبه ، معتذراً للخليفة بما وسعه من أعذار ، فأعفاه منه بعد ثلاثة أيام من عمله فيه(٢) .

ورجع الجاحظ إلى البصرة(٣) بعد أن أبى أن تستعبد نفسه الحرة حياة الوظيفة وقيودها ، ولم يرض أن يعمل مع عناصر شعوبية تعيش فى ديوان الرسائل وبالقرب منه ، ولا عمـــل لها إلا الدسائس والمؤامرات ، وقد ظل الجاحظ بعد ذلك يتهكم بسهل ، ويسخر منه ، ليد سهل الخفية فى حمل أبى عثمان على الاستعفاء من رئاسة الديوان ، فسجل اسمه فى كتابه « البخلاء » فيمن سجل أسماءهم فيه من أعلام البخل والموصين به ، وسجل رسالته المشهورة فى مدح البخل فى كتابه ، ويظن أن سهل بن هرون ألفها بباعث شعوبى ، وهو السخرية من المثل الأعلى ـ الكرم ـ عند العرب (٤) .

---

(١) من الكتاب والحكماء والعلماء فى عصر المأمون ، وهو من أصل فارسى ، عاش فى البصرة ، والتى علماءها وأدباءها ، وحظى عند المأمون فولاه رياسة « بيت الحكمة » وتوفى عام ٢١٥هـ : ٨٣٠م (٣ : ٣٤ بروكلمان ، ١٢٠ الفهرست، ٤ : ٢٥٨ معجم الأدباء لياقوت «مرجليوث» ٣ : ٤٨-٥٨ عصر المأمون ، ١ : ٧٠ ضحى الإسلام) ، ويجعل الجارم فى تحقيقه على البخلاء وفاة سهل بن هرون عام ١٧٣ هـ : ٨٩٠م (١ : ١٨ البخلاء) نقلا عن الأعلام للزركلى ، وهو خطأ ، ويروى الجاحظ له شعرا (٢ : ١٩٦ البيان ـ ط الخانجى ، ٢ : ١٣٤ البخلاء) .

وكان ابن سهل شعوبيا ، وعمل معه فى بيت الحكمة علان بن الحسن الشعوبى (٣ : ٣٤ و ٣٥ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان)

(٢) ١٦ : ٧٩ معجم الأدباء لياقوت

(٣) ٣ : ١٠٦ بروكلمان

(٤) ٣ : ٣٥ بروكلمان ـ تاريخ الأدب العربى ـ ورسالة سهل بن هرون =

وهكذا ترك الجاحظ ديوان الرسائل ، مؤثرا الحياة الحرة ، بعيدا عن قيود المناصب وعن الشعوبيين والعناصر الحاقدة على العرب من الفرس وغيرهم ، ممن كان همهم إبعاد العرب عن مصادر النفوذ ودواوين الخلافة . ويدل على حب الجاحظ للحرية وكراهيته لقيود الوظائف ماروى عنه أنه دخل يوما ديوان المكاتبات ، وهو فرع من فروع ديوان الرسائل ، فرأى جماعات من الكتاب قد صقلوا ثيابهم ، وصففوا عمائمهم ، ووشوا طرزهم ، فقال : هؤلاء كما قال الله تعالى : (فأما الزبد فيذهب جفاء) ظواهر نظيفة ، وبواطن سخيفة ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون (١) .

ويروى عن الجاحظ أثناء توليه ديوان الرسائل فى عهد نيابته عن الصولى أن أبا العيناء (١٩١ - ٢٨٣ هـ) دخل عليه فى أمر له ، فلما أراد الانصراف أحب الجاحظ أن يداعبه ، فأسر إلى حاجبه أنه إذا وصل أبو العيناء إلى الدهليز لا يدعه يخرج ولا يمكنه من الرجوع إليه ، فلما خرج أبو العيناء حجزه الحاجب وضيق عليه ، فنادى بأعلى صوته : يا أبا عثمان قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك (٢) .

ولام الكثيرون من الأدباء أبا عثمان لاستعفائه من ديوان الرسائل ، وقال بعضهم : « لم أر أغبن من الجاحظ لنفسه وإن كان أوحد البلاغة فى عصره ، فما باله لم يلتمس شرف المنزلة بشرف الصنعة ، وقد رأى ابن الزيات

= تجدها فى : ١ : ٣٣ - ٤٥ البخلاء ، ٣ : ٣٥٥ العقد ، ٣ : ١٣٨ و ١٣٩ زهر الآداب على هامش العقد ، ٢ : ١٢ الأمثال للعسكرى على هامش مجمع الأمثال للميدانى .

(١) ٣٧ أدب الجاحظ للسندوبى .

(٢) ١٦ : ٨٤ معجم الأدباء لياقوت .

والصولى بلغا فيها ما بلغا ، وهو يلتمس فوائدهما والجـــاه بهما (١) ، بيد أن الجاحظ آثر أن يكون أميراً فى وسط كتبه على أن يكون رئيسا فى ديوان من دواوين الخلافة ، وما أشد ما يعجب الجاحظ بنفسه وهو يجلس إلى مكتبته يقرأ ويكتب ، إعجابه بأمير معزول عادإلى دولة الأدب وإلى مكتبته فى داره ، وهذا الأمير هو إسحاق بن سليمان الذى قال الجاحظ فيه (٢) إنه دخل عليه فى إمرته للبصرة ، فرأى السماطين والرجال مثولا كأن على رؤوسهم الطير ، ورأى فرشته وبزته ، ثم دخل عليه وهو معزول ، وإذا هو فى بيت كتبه ، وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر ، قال الجاحظ : فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه فى ذلك اليوم ، لأنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع الفخامة الحلاوة ، ومع السؤدد الحكمة .

ومات المأمون فى رجب عام ٢١٨ هـ . ولا ريب أن الجاحظ أسف لوفاة صديقه الخليفة ، وقدر له جهاده الصادق فى خدمة الفكر الإسلامى ، والحضارة العربية ، وتراث الإسلام ، وإعزاز مجد المسلمين .

الجاحظ فى خلافة المعتصم :

تولى المعتصم بن الرشيد عام ٢١٨ هـ : ٨٣٣ م عرش الخلافة العباسية فى بغداد بعد المأمون ، ونهج نهج أخيه فى تأييد الاعتزال والقول بخلق القرآن ، ووقف للعناصر الفارسية ومؤامراتها بالمرصاد ، ومن ثم كون فرقة عسكرية ضخمة من الأتراك ليقاوم بها نفوذ الفرس والعناصر الفارسية فى الدولة ،

---

(١) ٢ : ٣٢٠ أمراء البيان .

(٢) ١ : ٦١ الحيوان .

ولما كثروا وكثر ما يقع منهم ضد شعب بغداد من مصادمات ، بنى لهم مدينة « سر من رأى » وأصبحت عاصمة للخلافة (١) (٢٢١ - ٢٨٩ هـ) ؛ وشاهد الجاحظ الأحداث التى حدثت فى عهد المعتصم ، من ثورة بابك الخرمى ومقتله عام ٢٢٣ هـ ، ومقتل الأفشين عام ٢٢٥ هـ ، وفتح عمورية عام ٢٢٣ هـ ، وغيرها .

وكان وزير المعتصم محمد بن عبد الملك الزيات صديقا حميما للجاحظ ، وهذا الوزير هو الذى قرب أحمد بن أبى دؤاد (٢) إلى الخليفة ، ثم حدث بين الرجلين سباق على القربى من الخليفة . . . وتوفى المعتصم عام ٢٢٧ هـ : ٨٤١ م .

وبلغ الجاحظ فى خلافة المعتصم كل ما كان يطمح إليه من مجد ونفوذ وسلطان إذ قربه ابن الزيات من عرش الخلافة تقريبا شديدا ، فأصبح أبو عثمان ذا حظوة شديدة عند الخليفة ورجال دولته ، فهم جميعا يقدرون فضله ، ويكبرون أدبه ، ويجلون ما اختص به من المعارف الواسعة ، ويعجبون به وبإخلاصه للخلافة ، وبما طبع عليه من لطف المعشر ، وحسن السمر ، وطيب النادرة ، وكانوا يتوقون إلى حديثه ، ويقدرون بلاغته حق قدرها .

وكان ابن الزيات أشد الناس حبا له ، وإعجابا به ، فآثره أبو عثمان بوفائه وإخلاصه ، حتى كان يحب أن يكون الجاحظ معه ، يحادثه ، ويؤاكله ، قال أبو العيناء : كان الجاحظ يأكل مع ابن الزيات ، فجاءوا بفالوذج ، فآثر الوزير الجاحظ بأن يأكل معه منه ، فأسرع أبو عثمان فى الأكل حتى

---

(١) ٤ : ٥٥ مروج الذهب تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

(٢) ٤ : ٩٧ و ٩٨ المرجع نفسه .

نظف ما بين يديه ، فقال له الوزير : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس يا أبا عثمان، فرد عليه الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقا .

ويبدو أن بعض الوشاة أفسدوا ما بينهما . فكتب إليه الجاحظ رسالة مشهورة يقول منها : « أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح فى قلبك إيثار الأناة . . . الخ »(١) .

وقد أقطع ابن الزيات الجاحظ أربعمائة جريب (٢) ، واستمرت صلة الجاحظ بابن الزيات تزداد توثقا على مر الأيام .

وفى خلافة المعتصم ألف الجاحظ كثيرا من رسائله المشهورة فرسالته فى « صناعات القواد (٣) » ، يذكر فى مقدمتها أنه دخل على أمير المؤمنين المعتصم بالله . فقال له : يا أمير المؤمنين ، فى اللسان عشر خصال ، ثم يخلص من ذلك إلى قوله : فحض يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل الأدب ، فإنك إن أفردتهم بشىء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه (٤) .

وكذلك ألف الجاحظ رسالته : « فضل هاشم على عبد شمس (٥) » فى عهد المعتصم ، ويبدو أنه أهداها إلى الخليفة عام ٢٢٦ هـ ، إذ يقول الجاحظ

---

(١) راجعها فى ٣١١ و ٣١٢ رسائل الجاحظ للسندوبى ، ١٦ : ٧٧ معجم الأدباء لياقوت .

(٢) ٢ : ٣١٩ أمراء البيان .

(٣) ٢٦٠ – ٢٦٥ رسائل الجاحظ نشر السندوبى ، ١١٦ – ١٢١ ذيل زهر الآداب للحصرى .

(٤) ٢٦١ رسائل الجاحظ .

(٥) راجعها فى ص ٦٧ – ٨٦ رسائل الجاحظ نشر السندوبى عام ١٩٣٣ .

فيها (١) : « بلغت مدة ملك بنى هاشم إلى اليوم أربعا وتسعين سنة » وابتداء ملك العباسيين بنى هاشم عام ١٣٢ هـ .

وهكذا عاش الجاحظ فى عصر المعتصم ، مقربا من الخلافة ، معظما من الخاصة والعامة على السواء ، حتى توفى الخليفة فى ربيع الأول عام ٢٢٧هـ .. وقد كثر تلاميذ الجاحظ ، فكان من بينهم العديد من شباب البصرة والكوفة وغيرهما ، وفى مقدمتهم أبو العيناء (٢) (١٩١ - ٢٨٣ هـ) ، وأبو العباس المبرد (٢١٠ - ٢٨٥ هـ) ، وثعلب (٢٩١ هـ) ، وابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦هـ)، ويموت بن المزرع (٢٠٤ هـ) وسواهم ..

الجاحظ فى خلافة الواثق :

ولى الواثق بن المعتصم الخلافة عام ٢٢٧ هـ : ٨٤١م ، فسار على نهج أبيه فى سياسته ، وفى تأييده للاعتزال وزعمائه ، وفى حمل الناس على القول بخلق القرآن ، وفى أيامه مات أبو تمام الشاعر (٢٣١ هـ) بالموصل(٣) ، وابن الأعرابى (١٥٠ - ٢٣١هـ)(٤) .. وكان - كما يقول المسعودى - محبا للنظر مكرما لأهله ، مبغضا للتقليد ، محبا للإشراف على علوم الناس وآرائهم(٥) ،

---

(١) ص ٧٧ المرجع نفسه .

(٢) يذكره الجاحظ فى « الحيوان » مرارا - راجع ٣ : ٣٧ الحيوان ، وترجم ابن خلكان لأبى العيناء (٣ : ٤٦٦ - ٤٧٠ وفيات الأعيان نشر محمد محيي الدين) .

(٣) يجعل المسعودى وفاته عام ٢٢٨ هـ (٤ : ٦٦ - ٦٧ مروج الذهب)

(٤) راجع ٣ : ٤٣٣ وفيات الأعيان

(٥) ٤ : ٧٧ مروج الذهب

وله مجالس فى الكلام والفلسفة والطب(١) وكان ابن الزيات وزيره ، وأحمد ابن أبى دؤاد قاضيا للقضاة فى خلافته .

وكان عمر الجاحظ فى نهاية حكم الواثق ٨٢ عاما ، وهو سن متقدم ، حمل فيه صاحبه أعباء الزمن ، ومع ذلك فقد ظل مكبا على القراءة والتأليف يفيد تلاميذه ويوجههم ، مقربا من الخليفة ووزيره ابن الزيات .

وألف الجاحظ كتاب الحيوان وأهداه إلى ابن الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار(٢) وكان ابن الزيات أديبا أريبا وسياسيا بعيد النظر ، وكان الجاحظ ينادمه فى خلافة الواثق(٣)،وزاره الجاحظ مرة وقد افتصد ، فقال له : أدام الله صحتك ، ووصل غبطتك ، ولا سلبك نعمتك ، فقال الوزير: ماذا أهديت إلينا يا أباعثمان ؟ فقال : فكرت فى شىء أهديه إليك ، فلم أر أشرف ولا أطرف من كتاب سيبويه بخط الكسائى(٤) وعرض الفراء(٥)، وقد اشتريته من ميراث الفراء ، فقال : والله ما أهديت إلى شيئا أحب منه (٦) .

وممن اتصل بهم الجاحظ فى خلافة الواثق نجاح بن سلمة (٢٤٥ ﻫ)

---

(١) ٤ : ٧٨ — ٨٤ المرجع
(٢) ١٦ : ١٠٦ معجم الأدباء
(٣) ٣ : ١٠٦ بروكلمان
(٤) شيخ أئمة النحويين الكوفيين ، وكان مؤدب الرشيد والأمين والمأمون وتتلمذ على الخليل وغيره . وفى معجم الأدباء أن النظام ناظره فى القدر فى مجلس الرشيد ، وهذا زعم عجيب لأن الكسائى مات عام ١٨٩ ﻫ وولد النظام عام ١٨٠ ﻫ
(٥) توفى الفراء عن سن عالية (١٤٠-٢٠٧ ﻫ) ٢ : ١٩٩و٢٠٠ بروكلمان
(٦) ١٦٦ أدب الجاحظ للسندوبى .

وكان على الأموال فى زمن الواثق والمتوكل(١) ، وللجاحظ فيه قصيدة(٢) سنذكرها عند الكلام على « الجاحظ الشاعر » وفيها يتحدث الجاحظ عن زهده وعن الأيام التى يستوى عندها العالم والجاهل .

وكان الجاحظ فى هذه الفترة كثير المال ، عظيم النفوذ ، دخل عليه صديق له ، فسأله : كيف حالك يا أبا عثمان ؟ فقال الجاحظ : سألتنى عن الجملة فاسمعها منى واحدا واحدا ، حالى أن الوزير يتكلم برأيى ، وينفذ أمرى ، ويواتر الخليفة الصلات إلى ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب ألينها ، وأجلس على ألين الطبرى ، وأتكىء على هذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى يأتى الله بالفرج ، فقال له سائله : الفرج ما أنت فيه ، قال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى ، فهذا هو الفرج(٣) .. وفى هذه الفترة نجد الجاحظ يخدمه الحراس والخدم يقول : كان عندنا حارس يكنى أبا خزيمة(٤) ، ويقول : ابتعت خادما كان قد خدم أهل الثروة واليسار وأشباه الملوك(٥) ، ويقول : قلت لغلامى نفيس(٦) ، وقال نفيس لغلام لى(٧) .

وبعد قليل توفى الخليفة الواثق عام ٢٣٢ هـ : ٨٤٧ م ، فحزن عليه الجاحظ حزنا عميقا .

---

(١) راجع ٣ : ٤٦٩ وفيات الأعيان فى ترجمة أبى العيناء

(٢) ١٦ : ١١١ معجم الأدباء

(٣) ٣٤ السندوبى ـ أدب الجاحظ

(٤) ٣ : ٢٨ الحيوان

(٥) ٢ : ٣٣١ البيان والتبيين ـ ط الخانجى

(٦) ٤ : ٢٦ المرجع

(٧) ٤ : ٢٧ المرجع

الجاحظ فى خلافة المتوكل :

جلس المتوكل بن المعتصم على عرش الخلافة خمسة عشر عاما (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) ، وكانت أيامه أحسن الأيام وأنضرها[١] ، ولما أفضت الخلافة إليه أمر بترك النظر والجدل ، وأنهى محنة القول بخلق القرآن[٢] ، وبعد أشهر من خلافته قتل وزيره ابن الزيات عام ٢٣٣ هـ ورفع منزلة أبى دؤاد ، وقد يكون ابن الزيات حاول فى خلافة الواثق إبعاد المتوكل عن الخلافة بعد الواثق[٣] .

وكان الفتح بن خاقان التركى أغلب الناس على المتوكل وأقربهم منه وأكثرهم تقدما عنده ؛ وكان البحترى شاعره الأثير لديه ، ثم ولى منصب قاضى القضاة يحيى بن أكثم (٢٤٣ هـ) مكان ابن أبى دؤاد الذى نحاه عن القضاء عام ٢٣٩ هـ ، وكانت سياسة المتوكل القضاء على نفوذ الأتراك فى دولة الخلافة ، ولكن الحزب التركى دبر مؤامرة لقتل المتوكل ونفذها بدقة عام ٢٤٧ هـ : ٨٦٢م بمعاونة ولى العهد المنتصر بن المتوكل ، وقتل المتوكل فى قصره الجعفرى ، وقتل معه وزيره الفتح بن خاقان .

وكان البحترى حاضراً وجرح فى المعركة فهرب ، وله حديث طويل وصف فيه اليوم الأخير فى حياة المتوكل وصفا رائعا[٤] ، ورثاه البحترى برائيته المشهورة .

وإثر نكبة المتوكل لوزيره ابن الزيات الذى كان الجاحظ مقربا إليه هرب أبو عثمان إلى البصرة ، فقيل له : لم هربت ؟ فقال : خفت أن أكون ثانى

---

(١) ٤ : ٨٦ و ١٢٢ مروج الذهب للمسعودى
(٢) راجع المسعودى ٤ : ٨٦
(٣) راجع ٤ : ٨٨ مروج الذهب فى سخط المتوكل على وزيره
(٤) ٤ : ١١٩ - ١٢٢ مروج الذهب

اثنين إذ هما فى التنور(١) ، وأمر ابن أبى دؤاد أن يجاء بالجاحظ من البصرة، فجىء به مقيد الرجلين ، مغلول العنق بسلسلة ، فى قميص سمل ، فدخل على ابن أبى دؤاد ، فلما وقع نظره عليه قال : والله ماعلمتك إلا متناسيا للنعمة ، كفورا للصنيعة ، معدنا للمساوىء وما فتئى باستصلاحى لك ، ولكن الأيام لاتصلح منك ، لفساد طويتك ورداءة دخيلتك ، وسوء اختيارك ، وغالب طبعك .

فرد عليه الجاحظ : خفض عليك ، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك ، ولأن تحسن وأسىء أحسن فى الأحدوثة من أن أحسن وتسىء ، ولأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجمل بك من الانتقام منى . فقال له ابن أبى دؤاد ، قبحك الله ، والله ماعلمتك إلا كثير تزويق الكلام، وقد جعلت بيانك أمام قلبك ، ثم أضغنت فيه النفاق والكفر، ماتأويل هذه الآية : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) ؟

قال الجاحظ : تلاوتها تأويلها ، أعز الله القاضى ، فقال : جيئوا بحداد، فبادره الجاحظ : أعز الله القاضى ، ليفك عنى أوليزيدنى ، قال القاضى : بل ليفك عنك ، وأخذ الحداد يعنف بساقه ، فلطمه الجاحظ ، وقال له : اعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر على ساقى ، وليس بجذع ولا ساجة ، فضحك القاضى ومن معه ، وقال لمحمد ابن منصور الكاتب ، وكان حاضرا : أنا أثق بظرفه ولاأثق بدينه ، ثم قال : ياغلام صر به إلى الحمام ، وأمط عنه الأذى ، فنزع عنه الغل والقيد، وأدخل الحمام ، وحملت إليه الملابس فلبس ، ثم دخل على القاضى فأحله فى صدر المجلس، وأقبل عليه قائلا : هات الآن حديثك ياأباعثمان .. وأصبح الجاحظ مقربا من القاضى بعد أن كان منحرفا عنه(٢) .

---

(١) إشارة إلى التنور الذى عذب فيه ابن الزيات - ١٦ : ٧٦ معجم الأدباء

(٢) ٣ : ١٥٨ ضحى الإسلام

وللجاحظ شعر فى ابن أبى دؤاد(١)،سنعرض له فى موضعه ، وله رسالة إليه فى الاعتذار (٢) ، وألف الجاحظ كتابه المشهور « البيان والتبيين » وأهداه إليه ، فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، ولما فلج القاضى وخلفه ابنه أبو الوليد لزمه الجاحظ إلى أن صرف عن القضاء . وتوفى أبوالوليد ، ثم توفى أبوه بعده بعشرين يوما وذلك عام ٢٤٠ ﻫ (٣) .

وفى خلافة المتوكل أصبح الجاحظ وثيق الصلة بوزيره التركى الفتح بن خاقان ، وقدم له بعض كتبه ، ومنها رسالته المشهورة « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » واستحكمت أواصر الصداقة بينهما ، وكان الفتح يثنى على الجاحظ عند المتوكل (٤) ويأخذ له منه الجوائز الطائلة .

ويقول الجاحظ : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآنى استبشع منظرى ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى (٥) ، فخرجت من عنده ، فلقيت محمد بن إبراهيم (بن السندى) وهو يريد الانصراف إلى مدينة السلام ، فعرض على الخروج معه ، والانحدار فى حراقته ، وكنا بسر من رأى ، فركبنا الحراقة ، فلما انتهينا إلى فم القاطول نصبت ستارة وأمر بالغناء » .

ويذكر الجاحظ قصة انتحار المغنية وغلام لمحمد بن ابراهيم فى الماء ، وكانا عاشقين ، وما قصه الجاحظ عليه من قصة مماثلة انتحر فيها عاشقان

---

(١) ١٦ : ٨٦ معجم الأدباء ، ١٨٠ - ١٨٢ أدب الجاحظ للسندوبى .
(٢) ٣١٣ رسائل الجاحظ .
(٣) ٤ : ٩٧ مروج الذهب ، ٣ ص ٥ - ٨ ضحى الإسلام .
(٤) راجع ١٤٦ - ١٤٨ أدب الجاحظ للسندوبى .
(٥) راجع : ٢ : ١٢٢ شذرات الذهب ، ٣ : ١٠٦ بروكلمان ، ١٥٩ أدب الجاحظ للسندوبى .

فى دار يزيد بن عبد الملك الأموى (١) الخليفة (١٠١ - ١٠٥ هـ) .

ومن صور إيثار الفتح بن خاقان (٢) للجاحظ. هذه الرسالة التى كتبها من عاصمة الخلافة إلى أبى عثمان بالبصرة ، وجاء فيها : « إن أمير المؤمنين يجد بك ، ويهش عند ذكرك ، ولولا عظمتك فى نفسه لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ، ومتوفر عليه ، ولقد كان ألقى إلى من هذا عنوانه ، فزدتك فى نفسه ، زيادة كف بها عن تجشيمك ، فاعرف لى هذه الحال ، واعتقد هذه المنية على كتاب (الرد على النصارى) وافرغ منه ، وعجل به إلى ، وكن ممن جدا به على نفسه ، وتنال مشاهرتك ، قد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة ، وهذا مالم تحلم به نفسك ، وقد قرأت رسالتك فى (بصيرة غنام) ، ولولا أنى أزيد فى مخيلتك لعرفتك ما يعترينى عند قراءتها والسلام » (٣) .

وهكذا كان الجاحظ فى عهد المتوكل يعيش فى أموال وافرة ، ونفوذ عريض ، دخل (٤) عليه صديقه ميمون بن هرون ، فرأى مافيه من ثراء وجاه ، فقال له : ألك ضيعة بالبصرة ؟ فتبسم الجاحظ. وقال : إنما أنا وجارية لى ، وجارية تخدمها ، وخادم ، وحمار ، أهديت كتاب « الحيوان » إلى محمد بن عبد الملك فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب « البيان والتبيين » إلى أحمد بن أبى دؤاد فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع

---

(١) ١٦ : ٩٩ معجم الأدباء ، ٤ : ١٠٠ و ١٠١ المسعودى ، ٣ : ١٤١ وفيات الأعيان .

(٢) له ترجمة فى معجم الأدباء ١٦ : ١٧٤ - ١٨٦ .

(٣) ١٦ : ٩٩ معجم الأدباء .

(٤) ١٦ : ١٠٦ المرجع .

إلى ابراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار . فانصرفت إلى البصرة ، ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد .

كل هذا والجاحظ فى شيخوخته . الخلفاء والعظماء يحبون مجلسه ، ويفاخرون بصداقته ، وجميع رجال الدولة أصدقاء له ، ولاشك أنه حزن لمصرع المتوكل ، ولاذ بالصبر وهو مقيم فى البصرة ، خوفامن بطش الأتراك.

المرحلة الأخيرة :

تبدأ هذه المرحلة الأخيرة فى حياة الجاحظ بوفاة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان فى ٣ شوال ٢٤٧ هـ : يناير ٨٦٢ م . وولاية ابنه المنتصر مكان أبيه صبيحة الليلة التى قتل فيها الخليفة ، وشاهد أبوعثمان عهود ثلاثة من الخلفاء ، هم :

١ — المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) وكان وزيره أحمد بن الخصيب وفى عهده رفع الاضطهاد عن العلويين من آل أبى طالب وشيعتهم .

٢ — المستعين بن المنتصر (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) .

٣ — المعتز بن المتوكل (٢٥٢ - رجب ٢٥٥ هـ) .

وكانت سن الجاحظ عالية . والأيام تضعضع من قوته . والمرض تشتد وطأته على مفكرنا العظيم ، وأصيب بفالج نصفى ، فلزم بيته فى البصرة سجين المرض والشيخوخة ، ويبدو أنه أصيب بفالج فى خلافة الواثق وشفى منه ، ففى كتاب البخلاء يذكر أثناء ذكره لقصته مع محفوظ النقاش(١) أنه أصيب بطرف من الفالج ، ومع ذلك كان يغدو ويروح .

---

(١) ٢ : ٤٥ البخلاء بتحقيق الجارم .

ويروى عن الجاحظ(١) أنه كان (بسر من رأى!!) فدخل عليه ابو معاذ الطبيب يعوده وقد فلج ، فلما أخذ مجلسه أتى رسول الخليفة المتوكل إليه يطلبه ، فقال الجاحظ : « وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولعاب سائل ، أحد الشقين لو غرز بالمسال ما أحس والآخر يمر به الذباب فيغوث وأكثر ما أشكوه الثمانون » فقد كانت هذه القصة إذا عام ٢٣٠ ﻫ ، وذكر المتوكل فيها يدل أنها حدثت عام ٢٣٢ ﻫ أو بعده إلا إذا كان ذكر الثمانين على وجه التقريب لا التحديد ، وأنشد الجاحظ يومئذ أبياتا من قصيدة عوف بن محلم الخزاعى الشاعر (٢٢٠ ﻫ) ومنها :

إن الثمانين — وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

ويجعل محقق كتاب الحيوان الأستاذ عبد السلام هارون مرض الجاحظ فى خلافة الواثق نحو ذلك التاريخ ، ولكنه لايذكر أنه شفى منه ، بدليل ماجاء فى البخلاء ، وما روى عنه من روايات فى أثناء خلافة المتوكل تدل على أنه لم يكن ملازما للفراش .

والظاهر أن المرض عاد إليه عام ٢٤٦ ﻫ فى آخر خلافة المتوكل ، فقد روى(٢) أن المبرد تلميذه قد عاده فى مرضه فقال له الجاحظ : أنا من جانبى الأيسر مفلوج (مشلول) فلو قرض بالمقاريض ماعلمت ، ومن جانبى الأيمن منقرس (مصاب بالروماتزم) فلو مر بى الذباب لألمت ، وبى حصاة لاينسرح لى البول معها ، وأشد ما على ست وتسعون سنة ، وأنشد :

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب

---

(١) ١٦ : ١٠٣ معجم الأدباء

(٢) ١٦ : ١١٣ المرجع نفسه ، ٣ : ١٤٣ وفيات الأعيان

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب(١)

وقريب من هذه الرواية رواية يموت بن المزرع(٢) : دخل ناس من البصرة من أصدقاء الجاحظ فى العلة التى مات فيها ، فسألوه عن حاله ، فقال:

عليل من مكانين من الأسقام والدين

وأنا فى هذه العلة المتناقضة التى يتخوف من بعضها التالف ، وأعظمها نيف وتسعون سنة ، قال يموت : وكان يطلى نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته ، والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض ماشعر به من خدره وبرده . . وشكا الجاحظ لطبيب علته فقال : قد اصطلحت الأضداد على جسدى ، إن أكلت بارداً أخذ برجلى ، وإن أكلت حارا أخذ برأسى(٣) .

وفى رواية ليموت أن المتوكل وجه فى السنة التى قتل فيها إلى الجاحظ أن يحمل إليه من البصرة ، وقد سأله الفتح بن خاقان ذلك ، فوجده لافضل فيه ، فقال لمن أراد حمله : ما يصنع أمير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ، ذى شق مائل ، ولعاب سائل ، وفرج بائل ، وعقل زائل ، ولون حائل(٤) وهذه

---

(١) يستدل محقق كتاب الحيوان الأستاذ هارون بهذه الرواية على أن الجاحظ ألف الحيوان وهو على هذه الحالة ، ولكنها لاتصلح دليلا لأن الجاحظ حدد تاريخ الرواية بعام ٢٤٦ هـ بتحديده لسنه (٩٦ سنة) ؛ ويقول الحصرى (١٦٥ جمع الجواهر) إن الجاحظ ألف «الحيوان» وهو على تلك الحال ، فيقول محقق الحيوان : يعنى السن العالية والفالج الشديد ، وأرى أن الفالج الذى أصيب به الجاحظ وهو يؤلف «الحيوان» زال ولم يلازمه ، بل عاد إليه بعد ذلك عام ٢٤٦هـ ، ويقول الجاحظ (٤ : ٦٩ الحيوان - ساسى) :وقد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه ، أول ذلك العلة الشديدة . .

(٢) ٤ : ١٩٦ المسعودى

(٣) ١٦ : ١١٤ معجم الأدباء

(٤) ١٦ : ١١٣ المرجع

الرواية تصور لنا الجاحظ عام ٢٤٧ هـ مريضا ، أما بدء المرض فكما أرجح كان عام ٢٤٦ هـ .

إن الجاحظ مرض بالفالج عام ٢٣٠ هـ وشفى منه ، وعاوده المرض عام ٢٤٦ هـ بعد نحو ستة عشر عاما ، وفى سبب مرض الجاحظ يذكر ابن أبى أصيبعة (٦٦٨ هـ) فى كتابه «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» نقلا عن ابن بطلان الطبيب (٤٤٤ هـ) أن الجاحظ ويوحنا بن ماسويه (٢٤٣ هـ) اجتمعا على مائدة اسماعيل بن بلبل(١) (أحد الكتاب والوزراء توفى عام ٢٧٨ هـ) ، فكان فى جملة ماقدم على المائدة مضيرة بعد سمك ، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما ، فقال له أبو عثمان : أيها الشيخ لايخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاد له ، فان كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له ، وإن كانا من طبع واحد فلنحسب أناقد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا ، فقال له يوحنا . والله مالى خبرة بالكلام (الجدل) ، ولكن كل ياأباعثمان وانظر مايكون فى غد ، فأكل نصرة لدعوته ، ففلج فى ليلته ، فقال : هذا والله نتيجة القياس المحال .

ويذكر كثير من الباحثين والعلماء أن مرض الجاحظ كان فى آخر خلافة المتوكل ، ومن هؤلاء : ابن خلكان ، وصاحب تاريخ بغداد ، وابن العماد فى شذرات الذهب(٢) والسندوبى(٣) ، وسواهم

أصيب الجاحظ إذا للمرة الثانية بالفالج عام ٢٤٦ هـ ، ومع ذلك فقد ظل حافظا لقواه الفكرية والعقلية ، وهرع العلماء والأدباء إليه من كل مكان

---

(١) فى سرح العيون ص ١٣٦ مائدة أحمد بن أبى دؤاد ، وكان ابن أبى دؤاد أيضا قد أصيب بالفالج عام ٢٣٣ هـ (٤ : ٤٧ مروج الذهب)

(٢) ٢ : ١٢٢ شذرات

(٣) ص ١٨٧ أدب الجاحظ

يعودونه ، للاطمئنان على رائد الفكر العربى ، أبى عثمان الجاحظ ، وتوافدوا على البصرة . وكان الجاحظ أثناء المرض مثال المؤمن الصابر ، يفتح داره كلما أمكن للعائدين ، قال أبو طاهر : صرت إلى الجاحظ ومعى جماعة ، وقد أسن واعتل فى آخر عمره ، وهو فى منظرة له ، وعنده ابن خاقان جاره ، فقرعنا الباب ، فلم يفتح لنا ، وأشرف من المنظرة ، وقال : ألا إنى قد حوقلت ، فما تصنعون بى ؟ ! سلموا سلام الوداع ، فسلمنا وانصرفنا(١) .

وقال بعض البرامكة(٢) لما عزل من السند : ركبت البحر وانحدرت إلى البصرة ، فخبرت أن الجاحظ بها وأنه عليل بالفالج ، فأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه ، فأفضيت إلى باب دار لطيف فقرعته ، فخرجت إلى جارية صفراء ، فقالت : من أنت ؟ فقلت : رجل غريب وأحب أن أسر بالنظر إلى الشيخ ، فبلغته الخادمة ماقال ، فسمعته يقول : قولى له « وماتصنع بشق مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل ، فقالت : لابد من الوصول إليه ، فلما بلغته قال : هذا رجل قد اجتاز بالبصرة وسمع علتى فقال أحب أن أراه قبل موته فأقول قد رأيت الجاحظ » .

ثم أذن لى فدخلت وسلمت عليه فرد رداً جميلا ، وقال من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له ، فقال : رحم الله تعالى أسلافك وآباءك السمحاء والأجواد ، فلقد كانت أزمانهم رياض الأزمنة ، ولقد انجبر بهم خلق كثير ، فسقيا لهم ورعيا ، فدعوت له ، وسألته أن ينشدنى شيئا من شعره ، فأنشدنى :

---

(١) ١٩٣ أدب الجاحظ

(٢) ٣ : ١٤٣ وفيات الأعيان ، ١ : ٤٩٧ زهر الآداب (الحلبى) ، ١٩٨ اللآلى

لئن قدمت قبلي رجال فطالما ... مشيت على رسلي فكنت المقدما
ولكن هذا الدهر تأتي صروفه ... فتبرم منقوضا وتنقض مبرما

وقضى الجاحظ من عام ٢٤٦ هـ حياته مريضا ، وإن كان كما يقول باحث : لم ينقطع عن الكتابة والتأليف طول مدة مرضه ، مما يدل على أنه كان على جانب عظيم من قوة البنية ، وشدة الأسر ، ومتانة الأعصاب ، وحضور الذهن ، وقوة العقل ، وظل مفلوجا حتى عام ٢٥٥ هـ (١) .

---

(١) صـ ١٨٧ أدب الجاحظ للسندوبي

البَابُ الثَّالِث

شخصية الجاحظ وثقافتـــه

الفصل الأول

شخصية الجاحظ

— ١ —

فى نطاق كبير من الذكاء والموهبة والثقافة واتساع المعرفة ؛ ومن العقلية الناضجة ، والذهنية المتفتحة ، والنضوج الفكرى الخلاق ؛ كانت تدور شخصية الجاحظ ، شخصية المعلم العربى الأول ، ورائد الفكر العربى فى الثقافة الإنسانية . .

وكان الجاحظ بشخصيته الجليلة ، ومواهبه الكبيرة ، وذكائه اللماح ، وثقافاته الواسعة ، وآثاره الفكرية والأدبية الخالدة ، وبآرائه فى شتى جوانب الدين والأدب والحياة ؛ شعار مدرسة جامعة ، ورمزا على التبحر فى العلوم ، والتوسع فى الآداب ، والتفوق فى فنون البلاغة ، وصنوف البيان ، حتى قال رجل لأبى العيناء ، ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعرى وأى شىء كان لايحسن ؟ ملأ الجاحظ طباق الأرض علما ، وعلا على أمثاله فضلا وفهما ، وقدم للغة العربية هذا التراث فى كل فن من ضروب العلم ، ولون من ألوان الآداب ، على كثرته وجليل شأنه .

كان رائدا للفكر العربى الإسلامى فى عصره ، وكان مجده الذائع يعصف بكل مجد ويدوى فى كل أفق ، ويرن صداه فى سمع الأجيال ، فهو إمام الكتاب وشيخ البيان ، وعلم من أعلام الأدب والنقد ، ومفكر من مفكرى المعتزلة ؛ عاش الناس فى عصره وبعد عصره عيالا عليه فى الفصاحة والبلاغة ، واللسن والعارضة ، كما يقول ابن العميد : وعدوا التلمذة عليه شرفا لايعدله شرف ، ومجدا يدنيهم من قصور الملوك ، وتعصب له كثير من أعلام الفكر

فى مختلف العصور ، فألفوا الكتب فى الإشادة به ، كما فعل أبو حيان التوحيدى (٤٠٠ هـ) فى كتابه « تقريظ الجاحظ » ، وبالغوا فى التنويه به ، حتى حسد ثابت بن قرة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ، ونهج كبار الكتاب نهجه ، وكان فخر الرجل أن يلقب بلقبه ، وتثقفوا بكتبه ، ورأوها تعلم العقل أولا والأدب ثانيا ، وبلغ من اهتمام رجال الفكر والأدب بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها فى البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لا يسمهم بميسم الخزى والهوان إلى الأبد ، ومن ساء جده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة ، صار على الأجيال صورة مشوهة ، وإساءة لا يغفرها الزمن ، كأحمد بن عبدالوهاب بطل رسالته الساخرة « التربيع والتدوير » وحسبك أن المأمون كان يقرأ كتبه ويثنىَ عليها ويستجيدها(١) .

ومجد الجاحظ مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة ، وهو مجد بوأه إياه كفايته وثقافته وآثاره الفكرية والأدبية ؛ فقد عاش الجاحظ ينعم بالشهرة والمجد . لم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التى كان يصعد إليها فى عهده الكتاب ، ولم تنله كفايته منزلة فى ديوان الرسائل ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، لأنه حورب فيها حربا شديدة من الشعوبيين وغيرهم ، حذرا من أن يأفل به نجم الكتاب ، كما قال سهل بن هارون ؛ وعدم صعود الجاحظ إلى المناصب الكبيرة فى دولة الخلافة يجعله بعض الكتاب إخفاقا ويؤاخذ الجاحظ به ، كابن شهيد (٤٢٦ هـ) الأندلسى فى رسالته « التوابع والزوابع » ، ويخطىء من أجله من يذهب إلى تقديم الجاحظ على سهل بن هرون(٢) ، ويرد عليه

---

(١) ٣ : ٢١١ البيان والتبيين نشر السندوبى ط ١٩٢٧

(٢) ١ : ١٩٨ الذخيرة لابن بسام

الدكتور زكى مبارك(١) « لأن تحكيم التوفيق فى الحياة فى وزن الشخصيات وتقديرها ضلال وغبن » .

يقول ابن شهيد : إن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات والصولى إما لأنه كان مقصرا فى الكتابة وجميع أدواتها، أو لأنه كان ساقط الهمة ، أو لأن دمامته وإفراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شىء قد يكون غريبا ، فذهب إلى أن أول أدوات الكتابة العقل وقد نجد عالما غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة ـ أية كانت هذه الأداة ـ من أدوات الكتابة، فذلك ماترده الحقيقة المجردة ، فعقل الجاحظ وفنه الأدبى وطبعه الأصيل أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك ، وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح ، لا يتطلع إلى مجد أو جاه أو سلطان فذلك خلاف الواقع وهو بعيد عن شخصية الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح ، وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر فيما سماه ابن شهيد إخفاقا ، فقد نسلم به إلى حد ما .

كان الجاحظ عربيا فى دمه وروحه وفكره ، وكان يتعصب للعرب فى كل شىء ، حتى فى الثقافة والأدب فى عصر كان النفوذ فيه للعناصر الأجنبية ، خاصة الفرس والترك ، وكثيرا ما كان ينسى ذوو المواهب من العرب إلا من اتصل منهم بحبل أمير أو وزير ؛ ومع صداقة الجاحظ لابن الزيات وابن أبى دؤاد ، لم يحاول أن يكسب شيئا من وراء هذه الصداقة ، وكان ابن أبى دؤاد يثق بظرف أبى عثمان وأدبه ، لا بولائه وإخلاصه .

على أن المناصب كانت مما عافه الجاحظ وانصرف عنه ، لأنها كانت

---

(١) ٢ : ٥٠ النثر الفنى

بغيضة إلى قلبه ، وكانت قيودها وتقاليدها مما يدع الرجل مكبلا بأغلال تحول بينه وبين الحرية التى ينشدها ؛ ثم لاننسى أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب ، لامواهب رجل من رجال السياسة ، والمجتمع والحياة العامة ، وقد رفعته مواهبه العقلية مكانا ماكان ينتظر أن ترفعه إليه السياسة مهما حلق فى أجوائها .

وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من إخلاصه لأى شيء آخر ، وكان خوضه فى أعماق المعرفة يشغله عن الخوض فى ميادين السياسة والاجتماع ، وكانت لذته فى الدراسة والبحث أكثر من لذته فى السياسة وسلطانها ، وحياة الجاحظ هيأته لأن يكون محوراً للثقافة فى عصره ، لا بطلا من أبطال السياسة .

ومن ثم تجد شخصية الجاحظ تطالعك فى كتبه وأدبه من كل جانب وناحية ، وهى شخصية رجل الفكر الواثق بنفسه ، المؤمن بها ، الحريص على كرامته ، المعتز بقيمته ؛ يخاطب الوزراء والعظماء ، فلا يفنى شخصيته فى شخصياتهم ، بل يراهم إخوانه ، ويرى له عليهم حق الصداقة ، ودالة الأخوة ، ولا يجبن عن توجيه اللوم إليهم .

وحين نقرأ فى كتب الجاحظ نشعر كأننا نغيب فى جو تطل علينا منه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها ، وبتوجيهها الساحر لعقل القارىء وفكره وشعوره ، حتى لنكاد ننسى أمامها أنفسنا ، ونحس أننا قد نقلنا إلى ميدان آخر تصول فيه روح ساحرة قوية تروعنا بروعة فكرها ، وجدة بيانها وعظمة تأثيرها . . .

هذه صورة صغيرة لمعالم شخصية الجاحظ الخارجية العجيبة التى كانت ملء سمع الزمان وبصره .

— ٢ —

فإذا انتقلنا إلى النطاق الداخلى لشخصية الجاحظ ، وجدنا رجلا مقبلا على الحياة ، محبا لها ، مؤمنا بها ، يحترم العقل ويجله ويحكمه فى كل شىء ، يميل إلى التفاؤل وينظر إلى الأمور نظرة دقيقة ، لاهى نظرة السوداوى ، ولا نظرة العصبى ، يبدو عليه السرور وحب الدعابة وخفة الروح ، وتحس أنه من أعماق نفسه مطبوع على الظرف والفكاهة .

واقعى فى كل شىء ، يجرب الحياة والناس تجربة الخبير بالطباع والأخلاق ، يحاسن الكبراء فى غير إسفاف ، ويجتنب مخاشنتهم لأنه بعيد عن جوهم ، يحلم عن الأشرار بطبعه ، ويبتعد عن الحاسدين ويزيدهم حسداً .

لطيف المعشر ، حلو الحديث ، حسن المحاضرة ، سريع النكتة ، ساخر عميق السخرية(١) ، كثير الوفاء لأصحابه ، صقلت شخصيته بمواهب كثيرة جعلت منه رجل العصر ، الذى يعجب به الصغير والكبير ، والجاهل والعالم على السواء .

وهو إلى ذلك كله محب للهو وسماع القيان والمغنين (١) ، يتعشق الحسناوات(٢) ، ويحب الجمال ، ويؤمن بالإنسان ، لا يأنف إلا مما يضيع الوقت سدى ، فالوقت عنده أثمن من المال(١) فهو لذلك يحرص عليه أشد الحرص وأبلغه .

لم يكن بالمتزمت ولا المتنسك ، ومع ذلك كان يحب مثل الحياة وقيمها ، ويعتز بالإنسان وبكرامته فى الحياة ، لم يعرف عنه أنه قارف إثما ، أو ارتكب ذنبا .

---

(١) راجع ٢ : ٣٢٣ و ٣٢٤ أمراء البيان .

(٢) ١٩٠ رسائل الجاحظ .

كان ميالا إلى رحابة الخلق ، وسعة الأفق ، وفيه أنانية ، يحب المداراة ، ولا يجاهر بالخصومة ؛ ذا قلب كبير ، وشعور حي ، ونفس راضية .

— ٣ —

وكان الجاحظ قبيح المنظر ، مشوه الوجه ، ناتىء العينين ، أسود اللون، مختل القسمات ، ولبشاعة منظره لم يرتضه المتوكل لتأديب أبنائه(١)، ويكثر فى كلامه ذكر الحسد والحساد ، مما يدل على شعوره بحسد الناس له لتفوقه العقلى والعلمى ؛ وقد كره الوظائف وعاش حرا طليقا بعيدا عن قيودها .

كان من أحرار الكتاب ، وكانت حياته من كتبه التى درت عليه فى أخريات أيامه المال الكثير ، فضلا عما كان يصله من رواتب ومكافآت وجوائز وعطايا ومنح تنهال عليه فى مختلف المناسبات ، وهدايا تقدم إليه من الخلفاء والوزراء والأمراء وأصحاب السلطان وفى مقدمتهم البرامكة والظاهرية وابن الزيات وابن أبى دؤاد والفتح بن خاقان وسواهم . .

وما أكثر ما كانوا يكلفونه بكتابة رسائل معينة ، حيث كانت كتبه ورسائله أشبه بالصحف السيارة اليوم ، وكان أبو عثمان أقرب الناس إلى كتابة الصحف فى هذا العصر . . كان طلق العقل ، حاد القلم ، ولم يعرف أديب ، لقيت مؤلفاته من الشهرة والذيوع مالقيته كتب الجاحظ على كثرتها وتنوع المقاصد والأغراض فيها ؛ ولم تخل أيدى الناس من كتبه ، ولا مجالس العلماء ومحافل الأدباء من الثناء عليه ومن الجدل حول آرائه ومعانيه وصنوف بلاغاته ، وبلاغته وهى مضرب الأمثال كانت مدرسة يتخرج فيها ضروب

---

(١) ٣ : ١٤١ وفيات الأعيان تحقيق محمد محي الدين ، ٤ : ١٠٠ و ١٠١ مروج الذهب .

الشباب فى ضروب الآداب والجدل والنظر والكلام ؛ وفيها يقول المسعودى (١) : لا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح من الجاحظ ، وكان تلميذ النظام ، وعنه أخذ ، ومنه تعلم .

لقد صرف أبو عثمان عمره فيما يرفع من شأن العرب والمسلمين ، قصاراه التجديد والبعد عن مزالق التقليد ، والتعرف إلى كل شىء معرفة ثاقبة ، كان يعمل على أن يتقى شر الناس ، ولقد خلق ناقدا وأديبا ، تراه وهو العربى القح تستهويه حكمة العرب وآدابهم أكثر مما تستهويه حكمة اليونان والهند وفارس . . ولم تورثه شهرته العلمية زهوا أو غرورا أو كبرياء وتعاليا على الناس . . .

---

(١) ٤ : ١٩٦ مروج الذهب .

الفصل الثانى

ثقافة الجاحظ

— ١ —

كانت ثقافة أبي عثمان الجاحظ ثقافة واسعة متنوعة ، تحيط بسائر ألوان المعرفة الذائعة فى عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين ، وبحاثة فى اللغة وبيانها وآدابها ، وقد خاض فى بحار العلوم والمعارف ، ما كان منها عربيا أصيلا ، وما كان مترجما منقولا من الأمم الأخرى ، وكانت عقليته عميقة الغور ، بعيدة المنزع ، أفادت من مناهج « النظام » ومن الحكمة والفلسفة اليونانية ، والآداب الفارسية والهندية ؛ كما أفادت من تراث عصر الجاحظ وآدابه ؛ وكان له شغف كبير بالبحث ، وعكوف طويل على الدراسة ، ونشأته بالبصرة ، وتلقيه عن العلماء فى حلقاتها الذائعة ، ومجامعها الحافلة ، وعن رواة المسجديين والمربديين ، وعن الأعراب ، وجلوسه إلى أمثـــال النظام والأصمعى وابن الأعرابى وأبى عبيدة وأبى زيد الأنصارى وقطرب والأخفش ، وسواهم . . كل هذه العوامل والمؤثرات ، فضلا عن مواهبه وتجاربه وأثر مشاهده فى رحلاته العديدة ، كان لها أضخم الأثر فى ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب ، المتعددة الألوان .

وهذا الاتساع والتنوع ، وكثرة روايته فى تآليفه ، جعلت كثيرا ممن لا يفهمون الجاحظ ، يحسبونه كاتبا لا شخصية له ؛ تطمس شخصيات من يروى لهم ، وينقل عنهم ، كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ

لسواه ، وتبـــدو أمام عينك صور مختلفة لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ، ولا تلمس آثاره بينهم .

هكذا قالوا ، وممن ذهبوا إلى ذلك أحمد أمين فى ضحى الإسلام ، وغيره .. وهذا خطأ واضح ، فإن الجاحظ من الخاصة فى فكره وكتابته وأسلوبه ، وفى بحثه وتأليفه ، فإذا فكر فبعقل الخاصة يفكر ، وإذا كتب أو ألف فبأسلوبهم ، ولمن يفكر فى مجالهم ؛ وليس ذلك لأن الجاحظ يتكلف الغموض ليتعب الناس فى فهمه ، و « يستمسك بفائدته ويضن بما عنده غيرة على العلم ، وشحا بثمرة الفهم ، ولذلك كان كتابه « البيان والتبيين » موقوفا على أهله ومن كرع فى حوضه ، أما الجاهل والمبتدىء فلا تقع له من كتابه » ، كما يقول ابن شهيد (١) . . إنما ذلك لأنه ـ كما أرى ـ لا يستطيع إلا أن يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شىء ، ويرضى شهوته فى تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات ، كما يرى بعض الباحثين(٢) .

وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه إلا رجل مثله فى فكره واتجاهاته وثقافته ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ ، وأن يؤمنوا بشخصيته فى كتبه ومؤلفاته ما داموا لا يستطيعون مجاراته فى نواحى ثقافته العقلية والأدبية . وظهور شخصية أبى عثمان كذلك فى أدبه وكتاباته ، مما لا يقبل الريب ، ولا يعيا عن تبينه إلا أولوا الغباء .

— ٢ —

والثقافة العربية مصدر أصيل فى ثقافة الجاحظ العامة ، ومنبع غزير من منابع علمه وألمعيته وموسوعيته وعبقريته ، ولم تقف معارفه عند حد

---

(١) ١ : ١٩٨ الذخيرة لابن بسام .
(٢) ٢ : ٤٩ النثر الفنى لزكى مبارك .

المنقول ، بل تعدته إلى الأخذ من كل معقول ؛ نبغ فى الجدل والبحث والكلام والمناظرة وفى الفقه والحديث ، وكذلك نبغ فى اللغة والأدب والشعر والنقد والبلاغة وغيرها . فكان « عالما فوق العلماء (١) ، وإماما من أئمة الأدب ، وكاتبا من أعظم كتاب العربية ، ومؤلفا ليس له نظير فى تاريخها الطويل » .

وكان الجاحظ يبتكر ويجدد ويطرق نواحى مجهولة من جوانب الثقافة العربية ، فكتب فى الطب والكيمياء والظواهر الجوية، والطبيعية والأخلاق وعلم النفس ، وألف فى المعادن والأصباغ ، كما ألف فى التجارة (٢) والاقتصاد وفى النبات والحيوان ، وله معارف بحرية غزيرة (٣). وكانت هذه الموضوعات جديدة فى الثقافة العربية ، وتعتمد الكتابة عليها على مصادر غير عربية وعلى معارف كثيرة عربية ، وقد تمكن الجاحظ بعمق ثقافاته من أن يستخدم كل المصادر الأصيلة فى بحوثه ، وأن يتخذ من الشعر الجاهلى والإسلامى ، ومن أقوال البلغاء ، وحكم الحكماء ، ومن القرآن الكريم والحديث الشريف ، ومن كلام الرواة ، وتجارب العامة ، وخبرة أولى الخبرة ، مواد غزيرة تعينه فى التفكير والاستنباط والترجيح والرأى والتجديد ، ففى علم النفس مثلا نجد للجاحظ كتابات مفرقة ذات أصالة علمية ، ومناهج فى الكشف عن أعماق النفس وسبر أغوارها ، وهو حين يكتب فى ذلك يرجع إلى كل المصادر العربيـــة ، كما أنه « قرأ ما كتبه اليونان فى النفس والأخلاق » (٤) ومن أصالته العلمية ، وعقليته العجيبة أن يكتب فى الكيمياء رسالة ليست موجودة اليوم ، بل مفقودة ، ولا ندرى ماذا كتب فيها ، ولفيدمان بحث عن الكيمياء القديمة عند الجاحظ (٥) .

---

(١) ٢ : ٣٩٠ أمراء البيان . (٢) ٢ : ٤٠٣ المرجع .
(٣) راجع ٣ : ٢٦٢ الحيوان . (٤) ٣ : ١٢٨ ضحى الإسلام .
(٥) ٣ : ١١١ بروكلمان

وهكذا ترى أبا عثمان لا يقف فى دراساته عند القديم من الثقافة العربية ، بل يطرق أبواب كل جديد من الثقافات ، فيكتب فيه بعمق وغزارة وسعة . ومن كان يظن أن الرجل الذى يكتب فى علوم الدين ، والجدل والرد على المخالفين ، وهو فى أصله إمام دينى ، وشيخ من أعلام الشريعة ، يؤلف أيضا فى الحيوان وفى الزرع وفى الشجر والنخل ، وفى كل مايعرض له كذلك من موضوعات سياسية واجتماعية وأخلاقية واقتصادية وأدبية من كان يظن أن للجاحظ كتابا فى الأمصار وعجائب البلدان رآه المسعودى ، ووصفه بأنه فى نهاية الحسن ، وقال : إن الرجل وإن كان لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا تقرى الممالك والأمصار ، إلا أنه قد أجاد ، وهذا القول عجيب ، فإن الجاحظ كما أسلفنا قد طاف بأرض العراق وفارس والشام والجزيرة والروم وبلاد العرب(١) .

وتمتاز ثقافة الجاحظ بالغزارة ، والاستفاضة والموسوعية ، والاستطراد ، وقد حذا حذوه فى هذا المجال جميع الأدباء والعلماء فى مختلف العصور ، كابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) فى كتابه « عيون الأخبار » ، والمبرد (٢١٠ - ٢٨٥ هـ) فى كتابه « الكامل » ، وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٠ هـ) فى كتابه «اختيار المنظوم والمنثور» ، وابن عبدربه الأندلسى(٢٤٦-٣٢٨هـ) فى كتابه « العقد الفريد » والصولى (٣٣٥ هـ) فى كتابه « الأوراق » ، والثعالبى (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ) فى كتابه « يتيمة الدهر » ، والبيهقى فى القرن الرابع الهجرى فى كتابه « المحاسن والمساوىء » والدميرى(٧٥٠ - ٨٠٨ هـ) فى كتابه « حياة الحيوان الكبرى » ، وسواهم من أمثال: ابن الفقيه الجغرافى، والقزوينى (٦٨٢ هـ) .

وقد كانت الثقافة العربية الأصيلة والمقتبسة ، التى تجلت فى كتب الجاحظ

---

(١) راجع مثلا ٢ : ٤٠٧ أمراء البيان لمحمد كرد على

دليل عبقرية واضحة ، وألمعية فكرية عميقة ، ومظهراً لثقافة الجاحظ الموسوعية ، التى أثرت فى الثقافة العربية تأثيراً كبيراً ، وقربت الفلسفة والعلوم إلى كل ذهن وعقل ، فقد صاغها الجاحظ صياغة أدبية عالية ، مزج فيها كلام أرسطو بأشعار الجاهليين ، وأقوال الفلاسفة بأقوال الأدباء ، وجعل اللغة العربية لغة الحياة المتجددة المتطورة ، التى تنطق بكل علم ، وتعبر عن كل فكرة ، وتحتفى بكل فن .

وهكذا اتسعت هذه الثقافة الجاحظية لكثير من ضروب المعرفة(١) ، حتى عد أوسع أهل زمانه ثقافة (١) ، لأنه كان أكثرهم اطلاعا على أنواع المعارف فى عصره ؛ فهو فى الأدب مطلع على ألوانه ومذاهبه وأخبار أعلامه وآثار عبقريتهم ، وفى العلوم الدينية متضلع فى كل لون ، متعمق فى كل مادة ، فهو مرجع فى القرآن والحديث والمذاهب الكلامية ، كما كان فى الثقافة اليونانية خبيرا بها ، مطلعا على دقائقها ؛ وهكذا حوى عقل الجاحظ كل ثقافات عصره ، وقل أن كان له فى ذلك نظير ؛ وهذه الغزارة والموسوعية فاق فيها الجاحظ أقرانه وأساتيذه (٢) .

وكان الجاحظ حجة فى كثير من العلوم والمعارف ، ومن قراءاته فى كتب فلاسفة اليونان ، وحكماء الهند ، وبلغاء الفرس ، ونظره فى ثمرات قرائحهم ، وفى الجديد مما ابتكرته أذهانهم ، كانت ثقافات الجاحظ الواسعة المحيطة ، التى جعلت منه مفكراً موسوعيا ، ومن كتبه دوائر معارف حية ، فوعى فى صدره دقائق المسائل فى الدين والعلم والفلسفة والأدب ، حتى ليقول ابن الإخشيد المعتزلى (٣٢٦ هـ) : « كان أبو عثمان من أصحاب النظام ، وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن

---

(١) ٣ : ١٢٨ ضحى الإسلام .

(٢) ٣ : ١٣١ المرجع .

أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا ، وله كتب مشهورة جليلة فى نصرة الدين ، وفى حكاية المخالفين ، وفى الآداب والأخلاق ، وفى ضروب من الجد والهزل ، وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها ، وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس فى تلقيح العقول وشحذ الأذهان ، ومعرفة أصول الكلام وجواهره ، وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب ، كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدر فى المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور »(١) .

ولم يترجم كتاب إلى العربية إلا قرأه أبو عثمان واستظهره ، فوق ما استظهر من مؤلفات عربية ، وكان أبو هفان المهزمى البصرى الراوية يقول : « لم أرقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته ، كائنا ما كان ، حتى إنه ليكترى دكاكين الوارقين ، ويبيت فيها للنظر ، وكان كثير الحفظ ، واسع الرواية ، قوى الحجة ، ناصع البرهان ، وأقرب ما يوصف به أنه كان دائرة معارف تبلورت فيها ثقافات عصره(٢) ، وكان أبو هفان يقول : لم أرقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، واسماعيل ابن اسحاق القاضى(٢) .

وكان الجاحظ لا يحرص على ثقافات الملوك من النسب والخبر وجمل الفقه(٣) وطرائف الأدب بقدر حرصه على ثقافة الشعب ، وعلى كثرة ماخاض غماره من العلوم والدراسات لم يكتب فى الموضوعات التاريخية ، بالمنهج الذى كتب به مؤرخو عصره ، بل كان التاريخ الذى شغل قلبه وقلمه

---

(١) راجع ٤١ أدب الجاحظ

(٢) راجع ١٦ : ١٧٤ معجم الأدباء .

(٣) ٣ : ٣٧٤ البيان والتبيين

وصف الناس والمجتمع والشعب ، لم يعن بالملوك وأخبارهم كما عنى بتصوير الحياة الاجتماعية فى عصره ، فهو المؤرخ الاجتماعى للعصر الذى عاش فيه ، يورد لك من مشاهداته ورواياته مايوسع أفق نظرك ، ويفقهك بالعصر وأهله ، ولم يعن بالتاريخ السياسى لأنه أدب الشعب ، ولم يكن مؤرخ الملوك لأنه رأى التاريخ السياسى ضيق الجوانب فأرخ الأمة ، والكلام فيها واسع المجال(١) .

وكذلك الأمر فى الفلسفة ، قرأ ماترجم وكتب فى عصره ، فلم يقف مع الفكر الفلسفى مادحا ، بل ناقدا ، فطبق العلوم الاجتماعية والمادية وعلوم الحياة والأحياء على النظر الفلسفى ، واهتم بروح الفلسفة ، مبتعداً عما قد يكون فيها من خيال ومحال ، فقد كانت نزعته الفلسفية نزعة عملية لا نظرية ؛ وما تعدى فى الإلهيات حد المنطق المتفق الصحيح ، والمصادر السليمة(٢) .

وكان اتساع أبى عثمان فى اللغة لايشبهه اتساع اللغويين ، استنبطن من أسرارها مايقل استبطان مثله على غيره ، وعرف طوائف من الألفاظ تصلح فى الأدب ، وأخرى تصلح فى الزراعة ، وغيرها للصناعات وأعمال الحياة ، وغيرها للمسائل الدينية ؛ عدا ماخص بمعرفته من الألفاظ الصالحة لكل شأن ، وكان جد عارف بما يختار ويطرح من كل شىء .

والعجب فى مصادر الجاحظ الثقافية ، أنه لم يقف عند مصدر واحد ، بل رجع إلى كل ماأمكنه الرجوع إليه من مصادر ، فأساتذته ومطالعاته فى الكتب المترجمة وغير المترجمة ، ثم تجاربه ومعايناته ومشاهداته ، ثم مشافهته الأعراب فى جزيرة العرب وفى المربد(٣) ، ثم ماكان يأخذه من

---

(١) ٢ : ٤٠٤ أمراء البيان
(٢) ٢ : ٤٠٥ المرجع
(٣) ١٦ : ٧٥ معجم الأدباء

رواة الأدب واللغة ، ومن أفواه الخبراء وجماهير الناس ، وما كان يتلقفه في مجالس الملوك والأمراء ، وفي حلقات المسجديين والمربديين وفي اجتماعات الناس ، وغير ذلك من كل طريف وجديد .

كل ذلك كان جزءاً من مصادر ثقافته ، ومنابع معارفه الغزيرة وما أكثر ما أخذ الجاحظ من أصدقائه ومن رجالات الدولة وأقطابها ، ومن العلماء والأدباء والشعراء والكتاب ، ومن الأعراب واللغويين ، ومن أرقى طبقات الناس وأدناها ، فهذا صديقه إبراهيم بن السندي مثلا ، الذي يقول فيه الجاحظ : إنه كان مولى أمير المؤمنين ، وكان عالما بالدولة ، شديد الحب لأبناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه، ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ويدرسهم مناقبهم ، فكان فخم المعانى ، فخم الألفاظ ، لو قلت إن لسانه كان أرد على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير ، وسنان طرير ، لكان ذلك قولا ومذهبا ، ويقول فيه(١) : كان رجلا لا نظير له ، وكان خطيبا وكان ناسبا ، وكان فقيها ، وكان عروضيا ، وحافظا للحديث راوية للشعر ، شاعرا ، وكان فخم الألفاظ شريف المعانى ، وكان كاتب القلم كاتب العمل ، وكان يتكلم بكلام رؤبة ، ويعمل في الخراج بعمل زادان فروخ الأعور ، وكان منجما طبيبا ، وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالما بالدولة ورجال الدعوة ، وكان أحفظ الناس لما سمع ، وأقلهم نوما ، وأصبرهم على السهر ؛ هذه مكانة إبراهيم ، والجاحظ لايعنى به لأنه من رجال الدولة ، بل يعنى بأخباره الثقافية وآرائه في ضروب الآداب فينقل ويروى عنه كثيرا في البيان والتبيين وفي الحيوان .

وهكذا كان الجاحظ مع كل الناس ، يتخذ من كل أحد منهم مصدرا

---

(١) راجع ١ : ٣٣٥ البيان والتبيين

من مصادره ، ويعرف لكل منهم منزلته ومكانته فى العلم والأدب فلا يتجاوز بهم قدرهم ، ولا يقبل منهم شيئا إلا إذا أيده العقل وآزره الامتحان والتجربة . . .

وإذا كان أساتذة الجاحظ هم جزءا أصيل من ثقافته ، فإننا لاضير علينا فى أن نقف بالجاحظ مع بعض أساتذته وقفات قصارا ، نتبين فيها مدى أثرهم فيه ، ومدى رأيه فيهم ، لنكون على خبرة بالرجل ودراية بمنزلته بين شيوخه وشيوخ عصره . . .

الجاحظ والخليل بن أحمد :

الخليل بن أحمد الأزدى البصرى (١٠٠ - ١٧٥ هـ) إمام من أئمة اللغة وشيخ من أكبر شيوخها ، وهو مفخرة للعقل العربى ، وعليه تتلمذ سيبويه (١٤٥ - ١٨٠ هـ)(١) ، وأبو فيد السدوسى (٢٠٤ هـ) صاحب النوادر من اللغة والأنساب(٢) ، والنضر بن شميل (٢٠٣ هـ)(٣) ، وقطرب (٢٠٦ هـ) وكان مؤدبا للأمين ، وهو معتزلى يتبع النظام ، وله كتاب « الأزمنة »(٤) ، والجاحظ ، وكذلك أبو عبيدة (١٢٥ - ١٢٠ هـ) ، وسواهم ..

---

(١) راجع ١ : ٢٧٨ العبر للذهبى ، ١٣٤ - ١٣٧ : ٢ بروكلمان

(٢) ١ : ٣٤٢ العبر ، ٢ : ١٣٧ بروكلمان

(٣) المرجع السابق

(٤) منه نسخة مكية ، ونسخة مصورة فى الجامعة العربية ، وكنت قد قمت بتحقيقه أنا وأحمد عبد الغفور عطار المحقق اللغوى فى مكة المكرمة ، وأخذ التحقيق معه ولم يطبع حتى الآن . وكنت حاولت طبعه فى القاهرة ولم تظهر منه غير ملزمة واحدة ، وفى ص ١٦ يذكر راوية هذا الكتاب وهو محمد بن الجهم أن قطربا أملى الكتاب عليه عام ٢١٠ هـ . وهذا يناقض ماهو معروف من أن قطربا توفى عام ٢٠٦ هـ ، وقد نشر جزء كبير من كتاب « الأزمنة » فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق عام ١٩٢٠ م

والخليل هو مبتكر علم العروض العربى ، وهو الذى اهتدى إلى قواعد النحو التى دونها سيبويه فى كتابه ، فهو المؤسس الحيقق لعلم النحو الذى تلقاه سيبويه منه ، وأخذه عنه ، وقد اشتق النحو العربى من ألمعية الخليل ، ومن مواهبه العقلية العربية المحضة (١) .

وللخليل فضل وضع أول معجم لغوى عربى ، وعزاعم المشتشرقين ـ فى أن الخليل اتبع فى ترتيبه لكتاب « العين » ماكان يتبعه علماء النحو فى اللغة السنسكريتية من البدء بحروف الحلق والانتهاء بحروف الشفة(٢) ـ مجرد حدس لا دليل لهم عليه . . . وكذلك ابتكر شكل الحروف وعلامات القراءة فى اللغة العربية .

تتلمذ الجاحظ على الخليل ، واقتبس من علمه ، ومع ذلك نقده ، وكان النظام ينقد كذلك الخليل ، ويقول فيه : توحد به العجب فأهلكه ، وصور له الاستبداد صواب رأيه ، فتعاطى ما لايحسنه ، وفتنته دوائره التى لايحتاج إليها غيره (٣) ، وكان النظام إذا ذكر الوهم لم يشك فى جنونه وفى اختلاط عقله (٤) ؛ ويقول الجاحظ فى الخليل : غر الخليل حين أحسن فى النحو والعروض ، فظن أنه يحسن الكلام فى الإيقاع وتأليف اللحون ، فكتب فيهما كتابين ، لايشير بهما ولا يدل عليهما إلا المرة المحترقة ، ولا يؤدى إلى مثل ذلك إلا خذلان من الله (٥) ، ويقول الجاحظ كذلك : إن الخليل من أجل إحسانه فى النحو والعروض وضع كتابا فى الإيقاع وتراكيب الأصوات

---

(١) ٢ : ١٢٤ بروكلمان .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة « الخليل » .

(٣) ٧ : ١٦٥ الحيوان .   (٤) ٧ : ١٦٦ الحيوان .

(٥) ١ : ١٥٠ الحيوان ، وللخليل كتاب الإيقاع وكتاب النغم (٧٤ و ٧٥ ج ١١ معجم الأدباء لياقوت) .

وهو لم يعالج وترا قط (١) ، ويقول : إن الخليل كتب كتابا فى الكلام ولولا أن أسخف الكتاب وأهجن الرسالة (٢) لحكيت صدر كتابه فى التوحيد وبعض ما وضعه فى العدل (٣) . .

ويبدو أن هجوم إمامين من أئمة المعتزلة : النظام والجاحظ على الخليل إنما كان بسبب آرائه فى كتابه فى « الكلام » ، والظاهر أن الخليل نقد المعتزلة فى هذا الكتاب فثار المعتزلون عليه . . أما موقف الجاحظ من علم العروض فقد ذمه مرة ومدحه أخرى ، قال فى مدحه : « ميزان الشعر ومعياره ، وبه يعرف الصحيح من السقيم ، والمعتل من السليم ، وبه يسلم من الأود والكسر » . وقال فى ذمه : « علم مردود ، ومذهب مرفوض ، وكلام مجهول ، يكد العقول ، بمستفعلن ومفعول ، من غير فائدة ولا محصول » وهجوم الجاحظ على تأليف الخليل فى « الإيقاع » قد يكون لونا من التحامل ، فهذا ياقوت يقول فى كتابه « معجم الأدباء » : كانت معرفة الخليل بالايقاع هى التى أحدثت له علم العروض(٤) » .

الجاحظ والأصمعى :

كان الأصمعى (٥) (١٢٢ — ٢١٦ هـ) من أعلام اللغة والأدب والشعر ، وهو من أعلام البصرة ومفاخرها ، وكان يحفظ ثلث اللغة ، وقال الإمام

---

(١) ٤ : ٣٢٤ مروج الذهب للمسعودى .

(٢) يقصد الجاحظ رسالة « تفضيل صنعة الكلام » وهى الرسالة الهاشمية ، وهى إحدى رسائل الجاحظ .

(٣) ٤ : ٣٢٤ المسعودى ، وكذلك نقد الجاحظ ابن المقفع بأنه ترك البلاغة والحكمة واختراع المعانى إلى البحث فى الكلام (٢ : ٣٧٢ أمراء البيان)

(٤) ١١ : ٧٤ معجم الأدباء .

(٥) أو ١٢٨ هـ كما ذكر الذهبى (١ : ٣٧٠ العبر) .

الشافعي فيه : ما عبر أحد أحسن من عبارة الأصمعي ، وقال أبو نواس : أنه بلبل يطرب الناس بنغماته ، وتتلمذ على أبي عمرو بن العلاء (٧٠ - ١٥٤ ﻫ) ، وعلى خلف الأحمر (١٨٢ﻫ) ؛ وله كتب كثيرة ، منها كتاب «فحولة الشعراء» ونشر بتحقيق لي (١) ، وكان يقول : وصلت بالعلم ونلت بالملح (٢) وهو من أساتذة الجاحظ ، والجاحظ يروي عنه كثيرا في كتبه ويجله ، وكان الأخفش يقول فيه : لم أدرك أحدا أعلم بالشعر من خلف والأصمعي (٣) .

الجاحظ وأبو عبيدة :

أبو عبيدة الشيباني الكوفي (١٢٥ — ٢١٠ ﻫ) (٤) ، وهو من أئمة اللغة في عصر الجاحظ ، ومن أساتذته ، وكان الجاحظ يجله ، وروى عنه الكثير في كتبه ، وقال أبو فراس فيه : إذا أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وقال الجاحظ فيه : طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام (٥) . وكان الغريب وأخبار العرب وأيامهم أغلب عليه وكان يرى رأي الخوارج ، ويقول فيه الجاحظ : لم يكن في الأرض خارجي

---

(١) وهو تقييدات كتبها أبو حاتم السجستاني من أجوبة الأصمعي أستاذه عن أسئلة سأله إياها .

(٢) ١ : ١٩٩ البيان والتبيين ، ١ : ١٦٠ زهر الآداب .

(٣) ١١ : ٦٧ معجم الأدباء .

(٤) ١ : ٣٥٨ العبر للذهبي ، ويروى ياقوت أنه توفى عام ٢٠٨ ﻫ (١٥٤ : ١٩ معجم الأدباء) .

(٥) ٢ : ٨٤ العمدة لابن رشيق .

ولا إجماعى أعلم بجميـــع العلوم منه (١) .

ويقول الجاحظ : إن أبا عبيدة كان يقدم قصيدة فى وصف المطر على قصيدة أوس بن حجر المشهورة ، ويستدرك الجاحظ فيقول : وأنا أتعجب من هذا الحكم (٢) . . ولا يرضى الجاحظ بأحكام أبى عبيدة النقدية فيقول فى موضع آخر : ولقد رأيت(٣) أبا عبيدة الشيبانى يكتب أشعارا من أفواه جلسائه وربما خيل إلى أن أصحابها لا يقولون الشعر ، وقد(٤) بلغ من استجادته للبيتين :

لا تحسبن الموت موت البلى   وإنما الموت موت الرجال
كلاهما موت ولكن ذا   أشد من ذاك على كل حال(٥)

ونحن فى المسجد يوم الجمعة أن كلف رجلا حتى أحضر دواة وقرطاسا حتى كتبها له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبدا ، ولولا أن أدخل فى بعض القيل لزعمت أن ابنه لا يقول شعراً أيضا ، ولولا(٦) أن أكون عيابا وللعلماء خاصة لصورت لك بعض ما سمعت من أبى عبيدة ومن هو أبعد فى وهمك من أبى عبيدة (٧) .

---

(١) ١ : ٢٢٤ البيان والتبيين .

(٢) ٦ : ١٣١ الحيوان .

(٣) ٤ : ٢٤ البيان والتبيين نشر الخانجى .

(٤) ٣ : ١٣١ الحيوان .

(٥) هما لمطرف بن عبد الله البصرى (٩٥ هـ)

(٦) البيان ٤ : ٢٥

(٧) راجع ترجمته فى ١٥٤ - ١٦٢ : ١٩ معجم الأدباء .

الجاحظ والأخفش :

الأخفش الأوسط البصرى (٢١٥ هـ أو ٢٢١ هـ) أعلم الناس بالنحو وبالكلام ، وأحذقهم بالجدل (١) ، وهو من أصل خوارزمى ، وكان الجاحظ دميم الوجه قبيح التقاطيع ، مختل القسمات ، ناتىء العينين .

وكان الأخفش(٢) أجلع(٣) ، وكان الشيخ وتلميذه إذا اجتمعا تألفت منهما صورتان غريبتان ، وكان الجاحظ يألف أستاذه لبعض المشاكله فى الصورة والخلق .

ويقول الجاحظ : قلت لأبى الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلت حاجتهم إلى فيها ، وإنما قد كسبت فى هذا التدبير إذ كنت إلى التكسب ذهبت ، ولكن ما بال النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذ مثلى - فى موافقته وحسن نظره وشدة عنايته - ولا يفهم أكثرها(٤) . .

وينقل الجاحظ عن أبى الحسن الأخفش الكثير من الروايات فى كتبه ،

---

(١) ١١ : ٢٣٠ معجم الأباء .

(٢) الأخفش : الصغير العينين من سوء بصره ، وراجع ترجمته فى ٢٢٤ : ١١ معجم الأدباء .

(٣) أى لا تنضم شفتاه على أسنانه .

(٤) ١ : ٩١ و ٩٢ الحيوان .

كما نقل عن محمد بن سـلام (٢٣١ هـ) وعن العتبي البصرى (٢٢٨ هـ) الأخبارى(١) الذى نقد رواياته(٢) .

هذا هو موقف الجاحظ من الثقافة العربية ومن أساتذته فيها ، وإحاطته بكثير من مسائلها ومشاكلها فى عصره .

— ٣ —

وللثقافة الفارسية نصيبها كذلك من ثقافات الجاحظ ، وقد اتصل أبو عثمان بالثقافة الفارسية من عدة طرق :

(ا) مجتمع البصرة الذى نعيش فيه عناصر فارسية كثيرة ، وتذيع فيه كثير من الألفاظ واللهجات الفارسية ، التى أشار إلى بعضها الجاحظ فى أوائل الجزء الأول من كتابه «البيان والتبيين»، وكان بعض أدباء البصرة من أصول فارسية ، ومنهم بشار (١٦٧ هـ) ، وأبو نواس (١٩٨ هـ) ، وأبو العتاهية (٢١١ هـ) ، والحسن بن سهل (٢١٥ هـ) ، وكذلك كان سيبويه (١٨٨ هـ) . وكان البرامكة والطاهريون وغيرهم من العناصر الفارسية يعملون على تشجيع ونشر ثقافة أمتهم ، حتى صارت عنصرا من عناصر الثقافة الأدبية الأساسية .

ويذكر الجاحظ موسى بن سيار الأسوارى وأنه كان من أعاجيب الدنيا، وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ـ فى البصرة طبعا ـ فيقرأ الآية ويفسرها للعرب بالعربية ، وللفرس بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين . .

---

(١) ١ : ٤٠٣ العبر للذهبي

(٢) ٣ : ٤٤ الحيوان

(ب) الترجمات العربية للكتب الفارسية التى نقها أمثال : ابن المقفع وآل نوبخت ، وموسى ويوسف ابنى خالد ، وبهرام بن مردانشاه ، وعلى بن زياد التميمى ، والحسن بن سهل ، وجبلة بن سالم ، وإسحاق بن زيد ، ومحمد ابن الجهم البرمكى ، وهشام بن القاسم ، وموسى بن عيسى الكسروى ، ومحمد ابن بهرام الأصفهانى وغيرهم(١) .

ومما ترجم من الفارسية على يدى ابن المقفع : كليلة ودمنة ، وكتاب التاج فى سيرة أنو شروان ، وكتاب خداينامة وهو كتاب فى تاريخ الفرس من أول نشأتهم إلى آخر أيامهم ويعتمد عليه الطبرى فى تاريخه ، وحمزة الأصفهانى فى كتابه « سنى ملوك الأرض والأنبياء » وقد سماه ابن المقفع « تاريخ ملوك الفرس » وكذلك كتاب « آيين‌نامه » وهو وصف للنظم الفارسية (٢) .

وترجم جبلة كتاب رستم واسفنديار فى السير(٣) ، وترجموا كذلك كتاب « اليتيمة » و « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » و « أهزار فسانة (٤)) وعهد أردشير ، وتوقيعات كسرى ، وكتاب أدب الحرب ، وأمثال بزرجمهر ، وغيرها ، ويقول الجاحظ : إنها مع كتب ابن المقفع مؤسسة لأدب الكاتب(٥) .

وقد استفاد الجاحظ من عمل بهرام وموسى بن عيسى الكسروى فى الترجمة عن الفارسية ، وقد عمد إلى عدة نسخ من كتاب « خداينامة » فأخرج

---

(١) ٢٤٤ الفهرست لابن النديم
(٢) ١ : ١٨٥ ضحى الاسلام
(٣) ٣٠٥ الفهرست
(٤) معناه الف خرافة
(٥) ٣ : ١٠٣ بروكلمان

منها نصا محررا على مذهبه فى النقد والترجيح ، ولكنه تناول نص الكتاب الأصلى مع ذلك بالتغيير ، وأضاف إليه كثيرا من مصادر فارسية أخرى(١) . ومن ترجم « خداينامة » أيضا : محمد بن جهم البرمكى وزادويه الأصفهانى(٢) . ومن التراجمة علان بن الحسن الوراق الشعوبى ، وكان فى خزانة الحكمة فى عصر الرشيد والمأمون(١) .

ويقول الجاحظ فى رسائله(٣) مخاطبا أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته « التربيع والتدوير » : جعلت فداك كيف حفظك لكتاب « كاوريد(٤) » وقد خبرنى بعض المتكلمين أنه رأى بسيراف مجوسيا ـ فارسيا ـ يحفظه وهو فى ألف جلد بخط مقارب(٥) ويذكر المسعودى فى كتابه « التنبيه والأشراف(٦) » أنه رأى بمدينة اصطخر من أرض فارس سنة ٣٠٣ هـ عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس كتابا عظيما يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم لم أجدها فى شىء من كتب الفرس . ويقول عن كتاب « أفستا » إن رجلا بسجستان بعد الثلاثمائة مستظهر بحفظ هذا الكتاب(٧) .

ويقول الجاحظ : من أحب أن يبلغ فى صناعة البلاغه فليقرأ كتاب « كاروند » ومن احتاج إلى العقل والأدب فلينظر فى سير الملوك (٨) ،

---

(١) ٣ : ١٠٢ بروكلمان (٢) ٣ : ٣٤ و ٣٥ بروكلمان

(٣) ٢٢٩ رسائل الجاحظ نشر السندوبى

(٤) فى كتاب البيان والتبيين اسم كتاب « كاروند » (٣ : ١٤)

(٥) يذكر المسعودى أن ابن المقفع ترجم كتابا اسمه « الكيكيين » من الفارسية الأولى إلى العربية ، وأن هذا الكتاب تعظمه الفرس لما تضمنه من أخبار ملوكهم (١ : ١٠٩ مروج الذهب) (٦) ص ١٠٦

(٧) ١ : ١١٠ مروج الذهب (٨) ٣ : ١٤ البيان والتبيين

ويقول الجاحظ عن الخطابة إنها موجودة عند جميع الأمم وأن الفرس أخطب الناس(١) .

وأثر ثقافة الجاحظ الفارسية واضح فى كتبه ، وخاصة فى كتابه «البيان» فهو ينقل فيه كثيرا من النصوص الفارسية فى البلاغة والخطابة والبيان(٢) .

وكان الجاحظ يعرف الفارسية (٣) ، إذ يبدو(٤) أنه كان يتكلم الفارسية ويعرف نحوها وأدبها ويترجم منها فنراه يقول(٥) عن الزرافة : لما رأوا أن اسمها بالفارسية «اشتركا وبلنك» وتأويل «اشتر» بعير ، وتأويل «كاو» بقرة ، وتأويل «بلنك» الضبع الخ ، وفى الحيوان(٦) فصوص من «كليلة ودمنة) تختلف عن نصوص ابن المقفع . . بل كان الجاحظ يجيد اللغة الفارسية(٧) .

وفى كتب الجاحظ نصوص فارسية تدل على معرفته بهذه اللغة ، وهى كثيرة :

١ — يقول الجاحظ : وقع عبد الله بن طاهر (٢٣٠ هـ) «من سعى رعى ومن لزم المنام رأى الأحلام» ، وهذا المعنى سرقه من توقيعات كسرى «هرك روذ جرد هرك خسبد حواب بيند»(٨) .

---

(١) ١٢ و ١٣ : البيان والتبيين

(٢) للدكتور ابراهيم أمين الشواربى بحث نشره فى مجلة كلية الآداب (حـ ٤ ص ١٦٩ - ١٨٦) عن نصوص الجاحظ المتعلقة بالفرس وأخبارهم ولغتهم وعنوانه «بحث فيما نقله الجاحظ من أخبار الفرس فى كتابيه «البيان ، والحيوان»

(٣) ٢ : ٣١٧ أمراء البيان - محمد كرد على

(٤) ٢٠٠ النقد المنهجى عند الجاحظ - داود سلوم

(٥) ١ : ١٤٢ الحيوان

(٦) ٧ : ٩٢ الحيوان

(٧) ٣٦ أدب الجاحظ للسندوبى

(٨) ٨٣ المحاسن والأضداد

٢ — فى لغتهم - الفرس - اسم للسلامة ، واسم لإرادة الخير وحسن المشورة وحملك بالرأى على الصواب ، فللنصيحة عندهم أسماء مختلفة إذا اجتمعت دلت على مايدل عليه الاسم الواحد - النصيحة - فى لغة العرب(١) .

٣ — وفى البيان ذكر لبعض الألفاظ الفارسية التى شاعت فى البصرة(٢) وكذلك فى الحيوان والبخلاء .

٤ — ويحكى الجاحظ فى البخلاء كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق « لو خرجت من جلدك لم أعرفك » : قال الجاحظ : وترجمة هذا الكلام بالفارسية « اكراز بوست بارون بيائى نشناستم »(٣) .

كل ذلك يدل على أن الجاحظ كان يعرف الفارسية ، فضلا عن إلمامه بالثقافة الفارسية المترجمة . . وعن طريق هذه الثقافة اتصل أبو عثمان بالثقافة الهندية ،وقرأ فيها ، ونقل عنها ، وروى طرائفها فى البلاغة والحكمة وغيرهما ، مما نراه ماثلا فى كتابه الخالد « البيان والتبيين » .

— ٤ —

ولقد اتصل الجاحظ بالثقافة اليونانية المترجمة ، وقرأ علومها من فلسفة وحكمة وطب وغيرها ، وكانت الثقافة اليونانية قد انتشرت فى الشرق من عهد الاسكندر المقدونى من عدة طرق :

١ — المدارس والمراكز المبثوثة فى الشرق وكانت مواطن لهذه الثقافة ،

---

(١) نص عن الجاحظ (راجع ٤١ نوادر الجاحظ

(٢) ١ : ١٩ و ٢٠ البيان - نشر الخانجى)

(٣) ١٩ البخلاء طبعة قديمة ؛ ١٩ الجاحظ لمردم ، ١٨ البخلاء تحقيق الحاجرى ، والنص محذوف من طبعة البخلاء تحقيق الجارم

بجنديسابور وحران والإسكندرية ، وآل بختيشوع كانوا من أطباء جنديسابور ، ومن مدرسة حران خرج ثابت بن قره (٢٢١ - ٢٨٨ ﻫ) وابن سنان الطبيب ، وكان من مدرسة الإسكندرية فى القديم « أفلوطين » (٢٠٥ - ٢٦٩ م) وقد انتشر مذهبه الأفلاطونية الحديثة فى الشرق ، ومنها أطباء كثيرن كانوا فى عصر الرشيد والمأمون .

٢ — اللغة السريانية ، فقد ترجم بعض النساطرة واليعاقبة النصارى السريان الكثير من كتب اليونان إلى السريانية ، فلما اتصلوا بالعرب كانوا هم البادئين بنقل الكتب اليونانية إلى العربية من لغتهم السريانية .

٣ — الترجمات العربية العديدة لأصول الثقافة اليونانية ، فقد ترجمت فى عصر الجاحظ كتب أرسطو فى المنطق وغيره ، وكتاب المجسطى فى الفلك ، والحكم الذهبية لفيثاغورث ، وبعض مؤلفات بقراط وجالينوس ، وكتاب السياسة المدنية لأفلاطون ، وقامت دار الحكمة فى عهد الرشيد والمأمون فى سبيل ذلك بجهود كثيرة ؛ وكان من المترجمين عن اليونانية : الحجاج بن يوسف بن مطر الوراق الكوفى (٢١٤ﻫ) ، وحنين بن اسحاق (١٩٤ - ٢٦٠ﻫ) ، وثابت بن قرد (٢٨٨ ﻫ) ، ويوحنا بن ماسويه ، وابن البطريق ، وعمر بن القرحان ، وأبو سهل الفضل ، وسواهم .

٤ — المعتزلة ، فقد تعلم بعض المعتزلة اليونانية ، وعكفوا على دراسة كتب الفلسفة والمنطق ، واستمدوا منها القدرة على الجدل والحجاج والدفاع عن الإسلام وعلومه وثقافاته ، وعن مذاهبهم فى الاعتزال ، والبعض اطلعوا على ماترجم إلى العربية من كتب اليونان وفلسفاتها ؛ ومنهم بشر بن المعتمر والنظام ، وأبو الهذيل العلاف ، والجاحظ ، ممن استخدموا الفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى فى تأييد نزعة الاعتزال ، فأقوال كثيرة من أقوال

النظام والجاحظ بعضها نقل بحت من أقوال الفلاسفة اليونان ، وبعضها دخله شيء من التعديل(١) ، وكان تأثر المعتزلة بالفلسفة اليونانية أظهر فى مدرسة بغداد منه فى مدرسة البصرة (٢) ، وكان أبو الهذيل قد اقتبس مسائل كثيرة من الفلسفة اليونانية (٣) ، ويقول الشهرستانى : أن النظام طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة ؛ وكان الجاحظ خبيرا بالثقافة اليونانية ، مطلعا على دقائقها ، فهو عالم بالطبيعيات والإلهيات كما يدل على ذلك كتاب الحيوان(٤) .

٥ — تشجيع بعض الخلفاء كالرشيد والمأمون ومن قبلهما المنصور ، على ترجمة كتب الفلسفة اليونانية ، وخاصة ما كان منها متصلا بالطب .

٦ — وبترجمة الكتب الفارسية إلى العربية تسربت الثقافة اليونانية إلى لغتنا لأنها كانت قد عرفت عند الفرس من قبل .

وهكذا دخلت الثقافة اليونانية إلى العقل العربى ، وتأثر بها ، واصطبغت بسببها طريقة الجدل والبحث والتعبير بالمنطق الأرسطى ، وأصبح الأدباء والبلغاء والشعراء والمتكلمون حريصين على مطالعة الفلسفة والمنطق والإفادة منهما ، ودخلت هذه الثقافة الوافدة إلى الشعر على يدى أبى نواس وأبى تمام وغيرهما ، وحمل عليها ابن قتيبة فى مقدمة كتابه أدب الكاتب ، كما حمل عليها البحترى فى قوله :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالـ منطق : ما نوعه ، وما سببه

ويقول ابن قتيبة إنه ـ أى طائفة من الكتاب قد شغفت بالنظر فى النجوم والمنطق والفلسفة ، وعرفت الكون والفساد ، والجوهر والعرض ، وأهملوا

---

(١) ٣ : ٩٥ و ٩٦ ضحى الإسلام (٢) ٣ : ٦٠ المرجع
(٣) ١ : ١٠٣ المرجع (٤) ٣ : ١٢٨ المرجع

النظر فى اللغة وما إليها ، فوضع لهم كتابه فى ذلك ، والقياس الذى يشغل جزءا كبيرا من منطق أرسطو أصبح ذا دخل كبير فى كثير من العلوم فالقياس فى الفلسفة وفى اللغة وفى النحو وفى الفقه ، وكان للفلسفة اليونانية أثر كبير فى تعاليم المتكلمين ، وللأفلاطونية الحديثة بعض الأثر فى التصوف ، ويقول أرسطو : إن الزمان والمكان كالوعاء للأشياء ، وهذا أصل تسمية النحويين للمفعول فيه ظرفا أى وعاء(١) .

والجاحظ قد تأثر بالثقافة اليونانية تأثرا كبيرا ، وظهرت آثارها فى كتبه، ففى كتابه الحيوان يتخذ كتاب « الحيوان » لأرسطو مصدرا من أهم مصادره ، ينقل عنه كثيرا ، ويستدل به كثيرا ، وينقده كذلك فى أحيان كثيرة ، فلم يسلم لأرسطو كل شىء بل ناقشه ونقده ، نقده فيما ذهب إليه من أن إناث العصافير أطول أعمارا وأن ذكورها لا تعيش إلا سنة(٢)، ونقده فيما ذكره من أن حية فى بلدة طبقون اليونانية شديدة اللدغ يعالج ألمها بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملك(٣) ، وفى أشياء كثيرة أخرى ستأتى فى حديثنا عن « منهج الجاحظ العلمى » .

وهكذا نرى الجاحظ خبيرا بالثقافه اليونانية ، مطلعا على دقائقها ، فهو عالم بالطبيعيات والإلهيات كما يدل على ذلك كتابه « الحيوان » وهو عالم بما قاله اليونانيون فى النفس والأخلاق(٤)، يعرف آراء أرسطو ، وينقل عن اقليمون وجالينوس ، ويذكر أن كتب المنطق وكتب اقليدس لا يفهمها العربى البليغ ، ويبدو(٥) أن ثقافته اليونانية اتسعت بمجالسته لكثير من المثقفين بها ،

---

(١) ٨٥ محاضرات جويدى
(٢) ٥ : ٦٧ الحيوان ، ٥ : ٧١ أيضا
(٣) ٤ : ٧٦ الحيوان
(٤) ٣ : ١٢٨ ضحى الإسلام
(٥) ١ : ٤٢٣ و ٤٢٤ المرجع

فقد كان يتحدث إلى سلمويه[١] وابن ماسويه وحنين وإلى شمئون الطبيب ، وكان سلمويه (٢٢٥ هـ) طبيب المعتصم ، وابن ماسويه مات أيام المتوكل ، ويقول الجاحظ : زعم لى سلمويه وابن ماسويه متطبب الخلفاء(٢) ، ويقول: كتاب اقليدس وكتاب جالينوس ومثله المجسطى مما تولاه الحجاج (٣) ، ويذكر الجاحظ كذلك نوادر ديسيموس اليونانى (٤) .

ومن مظاهر الروح الفلسفى عند الجاحظ : ذكره لقدامة حكيم المشرق(٥) ولأعين الطبيب البصرى(٦) ، ويقول : ورأيت ناسا من الأطباء وهم فلاسفة المتكلمين ، منهم : معمر ، ومحمد بن الجهم (البرمكى) ، وإبراهيم بن السندى(٧) ، ويذكر المكى وأنه كان طبيبا طيب الحجج ، طريف الحيل ، عجيب العلل(٨) ، ويذكر أبا حكيم الكيميائى ومناقشته لثمامة ليقنعه بالاكسير (٩) ، ويذكر حادثة لإعادة الحياة إلى غلام أبى كريمة (١٠) ، وقصة ابراهيم بن هانىء من أصحاب النظام الذى كان لا يقيم شعرا ويدعى أمام النظام أنه عالم بالحساب

---

(١) راجع ١٤١ القفطى ، ١ : ٣٨٠ الزركلى ، ١ : ٥٤ الحيوان ، ويقول الجاحظ : قال العتبى ذات يوم لابن الجهم : ألا تتعجب من فلان ، نظر فى كتاب الإقليدس مع جارية سلمويه فى يوم واحد وساعة واحدة ، فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مقالة واحدة ، على أنه حر مخير وتلك أمة مقصورة ، وهو أحرص على قراءة الكتاب من سلمويه على تعليم جارية (١ : ٥٤ الحيوان).

(٢) ١ : ٢٤٦ الحيوان ـ نشر الحلبى .

(٣) ١ : ٨٠ الحيوان ويقصد الحجاج بن يوسف بن مطر (٢١٤ هـ) المترجم ، لا الحجاج بمعنى الجدل كما فسره محقق الحيوان .

(٤) ١ : ٢٨٩ الحيوان و ٢ : ١٦٥ البيان .

(٥) ٥ : ٩٥ المرجع

(٦) ٢ : ٢٢٣ الحيوان

(٧) ٢ : ١٤٠ الحيوان

(٨) ٣ : ٣٢٥ الحيوان

(٩) ٣ : ٣٨٥ الحيوان

(١٠) ٣ : ٣٥٠ الحيوان

والكلام والهندسة واللحون وأنه يقول الشعر (١) ، ويذكر الجاحظ هرمس وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من اليونانيين فى رسالته « التربيع »(٢) ، ويذكر أن جبرائيل بن نوح الأنبارى ألف كتابا فى « الدلائل والاعتبار » ، وألف فى معناه أسقف طرسوس كتابه « المتدبر » ، ونقله من أخـــذه عنه من السريانية إلى العربية فأفسده بتأويل الألسنة وسوء العبارة ، وألف أسقف فورس كتبه باليونانية ونقل بعده إلى السريانية ثم إلى العربية (٣) ، ويصف صاحب المنطق ـ أرسطو ـ بأنه كان غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام (النقد) وتفضيله ومعانيه وبخصائصه (٤) ، ويذكر أقسام البيان(٥) ، كما عرفها أرسطو .

وقد ثار الجدل حول ما إذا كان الجاحظ قد تأثر بالبلاغة اليونانية وهو يضع أسس البلاغة العربية فى كتابه البيان والتبيين ، فباحث يذهب إلى أن الجاحظ تأثر بخطابة أرسطو إلى حد بعيد ، وأن من المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة فى الأسلوب استعماله القياس المضمر (٦) ـ المذهب الكلامى عند البديعيين ـ فهو ولا شك متأثر بخطابة أرسطو كثيراً (٧) ؛ ويذهب آخر إلى أن الجاحظ لم يتأثر بخطابة أرسطو وليس له صدى عنده لأن الجاحظ

---

(١) ٣ : ١١٠ الحيوان

(٢) ٢١٠ و ٢٢٨ و ٢٣١ رسائل الجاحظ

(٣) ٢ : ٢٤٨ أمراء البيان

(٤) ٣ : ٢٧ البيان والتبيين

(٥) ١ : ٧١ البيان ، ١ : ٣٣ و ٤٤ الحيوان

(٦) الرسالة عدد ١٩٦ ـ حمودة فى محاضرة له فى أسبوع الجاحظ ، ويقول: إنه إذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابة (٣ : ١٥ البيان) فليس ذلك إلا فى مقام الرد على الشعوبيين ، وقد يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان .

(٧) الرسالة عدد ١٩٦ ص ٦٢١

لم ير هذا الكتاب (١) ، وذلك ما يؤيده طه حسين (٢) ، وإن كان يذهب إلى أن أرسطو مشرع للعقل العربى فى البلاغة ، كما شرع للعقل اليونانى كذلك (٣) .

والجاحظ فى البيان والتبيين يذكر تعاريف البلاغة عند الأمم ومنها اليونان والرومان (٤) ، ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم فى الخطابة ذكر (٥) ، وأقسام الدلالة عند الجاحظ (٦) هى من تفكير أرسطو ، ويرى أن رسائل اليونان وخطبهم وعللهم وحكمهم وكتبهم فى المنطق لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة (٧) مع أن كتب اليونان فى المنطق جعلتها الحكماء (٧) معيارا للتفكير .

ويذكر الجاحظ فى كتابه « البيان » صناعة الكلام ويعنى بها حينا علم الكلام (٨) ، وحينا آخر البيان (٩) ، وكذلك يذكر صناعة الخطابة ، وأصحاب الخطابة والبلاغة (١٠) .

على أن الجاحظ فيما ذكره من بعض أصول البلاغة العربية يشترك مع أرسطو فى بعض الخصائص ، فدعوته إلى ترك الوحشى والسوقى (١١) قريبة

---

(١) ص ٦٢٢ المرجع السابق (٢) ٣ مقدمة نقد النثر

(٣) راجع مقدمة نقد النثر وراجع فى ذلك : البلاغة العربية فى دور نشأتها لسيد نوفل ، وخطابة أرسطو لإبراهيم سلامة ، وكتابه الآخر فى البلاغة وأثر أرسطو فيها وعنوانه « بلاغة أرسطو بين العرب واليونان » .

(٤) ١ : ٧٥ البيان (٥) ٣ : ١٥ البيان

(٦) ١ : ٦٩ البيان ، ٩ نقد النثر ، ٤٠ الرسالة العذراء

(٧) ٣ : ٧ البيان والتبيين (٨) ١ : ٦٩ البيان .

(٩) ١ : ١٠٨ البيان ٣ ج ٤ زهر الآداب (١٠) ١ : ١٨٣ البيان

(١١) ١ : ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ البيان

من دعوة أرسطو(١) إلى هجر الألفاظ الخسيسة التي لا يستعملها إلا العامة ، وينبغي أن لا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد في المتانة مبلغ الأمر الذي يدل عليه ، فلا تبلغ درجة العامية ولا تحوج إلى الكلفة المشنوءة؛ ودعوة الجاحظ إلى حسن الدلالة ووضوح العبارة (٢) هي دعوة أرسطو إلى حسن الدلالة ووضوح العبارة وإلى استكراه الإغراب ، وأنه يجب ألا تمعن في الإغرابات ، بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون اسقاط الجمهور (١)، واللحن وخروجه عند حد البلاغة موجود عند الجاحظ(٣) وأرسطو(١) ، واستعمال المبسوط في مواضعه والمقصور (٤) — المحذوف الموجز — في مواضعه . والإيجاز يوم الإيجاز والاطناب يوم الاطناب(٥)، مما ذكره أرسطو .

وذلك التشابه ليس دليل تأثر من الجاحظ بأرسطو ، إنما سببه أنها أفكار عامة تشترك فيها جميع الأمم ، أو أن سببه نقل الجاحظ عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو وعلى الأخص : الخطابة ، والشعر ، وكذلك نرى الاستعارة موجودة عند الجاحظ وأرسطو لأحد هذين السببين؛ ويؤيد ذلك أن الجاحظ يجهل كثيرا من النظريات التي شرحها أرسطو في كتابيه ، كأنواع البيان ودراسة الاستعارة دراسة تفصيلية ، والرباطات (حروف العطف) ، وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد ، والجناس ، ونظرية الوصل بتفصيلها (٦)

---

(١) الشفاء لابن سينا ـ الخطابة ـ مخطوط ـ مكتبة الأزهر

(٢) ١ : ٦٨ و ١١٠ و ١٧٦ البيان

(٣) ١ : ١٢١ البيان

(٤) ١ : ٥١ البيان ، وكذلك ص ١٤١ و ١٨٠ وغيرها

(٥) ١٢٠ رسائل الجاحظ

(٦) نقد نصيب الشاعر الأموي الكميت في قوله « تكامل فيها الأنس والشنب » لأنه باعد في القول (١ : ١٣٤ الأغاني ، ١ : ٣٣٥ الكامل للمبرد) .

إذ لا يشير الجاحظ فى « البيان » إلى ذلك . مما يدعونا إلى ترجيح أن الجاحظ لم يطلع على كتاب الخطابة ، وإن كان أفاد من النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق اليونانية ، ونقل عمن اطلعوا على خطابة أرسطو .

ومهما كان فإن الجاحظ قد اتصل بثقافة اليونان المترجمة وعن طريق المتكلمين والمجيدين لليونانية وثقافاتها من غيرهم من عناصر عربية أو غير عربية (١) ، كما كان متوسعا فى الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب (٢) .

* *

وبعد فإن ثقافة الجاحظ العربية الأصيلة والمقتبسة ، تجلت فى كتبه دليل عبقرية واضحة ، وألمعية فكرية عميقة ، كما كانت مظهرا لثقافة الجاحظ الموسوعية التى أثرت فى الثقافة العربية على طول العصور ، وقربت الفلسفة والعلوم إلى كل ذهن وعقل إذ صاغها الجاحظ صياغة أدبية عالية مزج فيها كلام أرسطو بأقوال الأدباء ، وكلام الفلاسفة بأشعار الجاهليين ، وجعل اللغة العربية لغة الحياة التى تنطق بكل علم ، وتعبر عن كل فكرة وتحتفى بكل فن كما كان الجاحظ تتسع ثقافته للكثير من ضروب المعرفة (٣) حتى عد أوسع أهل زمانه ثقافة (٤) .

---

(١) ١ : ٤٠١ ضحى الإسلام
(٢) ١ : ٣٨٧ المرجع
(٣) ٣ : ١٢٨ المرجع
(٤) ٣ : ١٣١ المرجع

الباب الرابع

الجاحظ السياسي

الفصل الأول

مواهب الجاحظ السياسية

كان الجاحظ سياسيا ، كما كان أديبا وناقدا وكاتبا وعالما ومؤلفا ؛ كان ينظر إلى الأمور نظر الرجل الخبير المجرب ، وبخلق السياسى النظيف ومواهبه العالية عاش طول حياته مناضلا مكافحا ، مدافعا عن فكرته ورأيه .

والسياسى لابد أن يجمع بين التجربة ، والخبرة والعقل الحصيف والذكاء النادر والشجاعة الفائقة ، والصراحة الواضحة ، والعقيدة الثابتة الصامدة ؛ وقد يحاول بعض السياسيين المران على الكذب ، لأن السياسة عندهم هى فن الكذب ، ولكن ذلك لم يكن من طبيعة السياسيين العرب ولا خلقا فيهم ؛ قد ينادى بعضهم بالتقية ، ولكن الجاحظ لم يكن مؤمنا بها ، ويقول ابن خلدون : النظر الفكرى ، والغوص على المعانى ، وانتزاعها من المحسوسات ، وتجريدها فى الذهن ، أمور كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم ، لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس .

وهكذا كان الجاحظ ، كان طودا راسخا فى الأحداث ، وكان ملاذا للناس كلما ألمت بهم ألاعيب السياسة وأحداثها ، عاش ينظر إلى علاقات الشعب بالدولة وعلاقات الدولة بالشعب نظر الحكيم الداهية ، يهتم بالأمور الكبرى ، ويقصر وكده عليها ، لا يحب أن يدخل فى تفاصيل السياسة ، العباسية ؛ ومن ثم نجا من مكر السياسة وخداعها ؛ لم يدخل فى أعماق السياسة ولا فى محيطها اللجى ، ولو أن أبا عثمان دخل فيها إلى أذقانه لكثر غلطه عند إرادة إفراغ السياسة فى قالب تفكيره ، ونوع استدلاله — من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض . .

كتب فى جميع جوانب السياسة ، كتب فى الفرق بين هاشم وعبدشمس، والرسائل الهاشميات ، والعباسية ، والعثمانية ، وألف فى وجوب الإمامة ، والدلالة على أنها فرض ، وفى مناقب الترك . . وهذه الكتب كلها تشهد بإسهامه فى العمل السياسى العلمى .

واتصل بالخلفاء والأمراء ووزرائهم وعمالهم ، فأحبوه وأكرموه واستعانوا به ، وحرصوا على أن يختص بهم الجاحظ ، وأن يخدم دولتهم ويعمل من أجلها ، والذين شغفوا بصحبته للانتفاع بعلمه وفضله، والاستمتاع بحديثه ، لابد أن يحاولوا حمله على معاونتهم فيما هم بسبيله من مشكلاتهم العامة والخاصة على السواء . .

وكان الجاحظ - كالمعتزلة - ينزل الصحابة والتابعين منزلة الناس، ويضعهم موضع النقد ، فهم يخطئون ويصيبون ، وكان كالمعتزلة يرى أنه لابد للمسلمين من إمام ينفذ أحكامهم ، ويقيم حدودهم ، ويحمى بيضتهم ، ويحرس حوزتهم، وهم بخلاف بعض الخوارج وعدد قليل من المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن الإمامة غير واجبة فى الشرع .

وكان الجاحظ وأكثر المعتزلة يذهبون إلى أن الإمامة اختيار من الأمة، ولهذا كان الخلفاء يحرصون على البيعة لأنفسهم ولولاة عهودهم تمثيلا لجانب الاختيار ، فإذا جمعوا إلى ذلك أنهم من قريش ، كان ذلك أوفر وأكمل وأعلى ، واعتبروا بيعة أبى بكر بيعة شرعية صحيحة ، ولم تكن عن نص بل عن اختيار ، وجعلوا أبا بكر أفضل من على ، كما جعلوا ترتيب الأربعة فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة ، وفضل بعض المعتزلة عليا ، وبعضهم كأبى الهذيل ذهبوا إلى التوقف(١) .

---

(١) ١ : ٣ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

وكان كذلك يأخذ على عثمان أموراً أحدثها بعد السنين الست الأولى من خلافته(١) ، ويتوقف فى الحرب بين على وخصومه ؛ أما فى الحرب بين على ومعاوية فهو مع على ، ويتبرأ من معاوية وعمرو بن العاص ومن كان فى شقهما ، وأجاز لعن معاوية ، وكان يكره الأموية(٢) ، إذ كان الأمويون يكرهون القول بحرية الإرادة ، ولم يحب الجاحظ من خلفاء بنى أمية إلا يزيد الناقص ، لأنه كان يذهب إلى قول المعتزلة ومذهبهم(٣) .

وجاءت الدولة العباسية ، فكان الجاحظ والمعتزلة لايرون الخروج عليها ، وكرهوا الثورة بالسيف ، وكان الرشيد يكره الاعتزال والمعتزلة ، فطلب العتابى الشاعر ، فكان يذهب مذهب المعتزلة ، فهرب إلى اليمن ؛ وأيد الجاحظ المأمون والمعتصم والواثق بكل مايملك من قوة ، لأنهم أيدوا الاعتزال وفرضوه فرضا ، وحملوا الناس عليه ، أما المتوكل فقد أمات ما أحياه سلفه من الاعتزال وإقامة سوق الجدال(٤) .

هذه هى آراء الجاحظ فى سياسة المسلمين ، وهى واضحة فى كتبه ورسائله كل الوضوح . . ويمتاز فى كل ما يكتب بالصدق والحق وحرارة العقيدة وتوهج العاطفة ؛ ومع تأييده للخلافة العباسية ، ومناهضته للأموية ، فقد سجل مفاخر الأمويين وذكر مآثر دولتهم فى رسالته « فضل هاشم على عبد شمس » .

وكان الجاحظ يرى أن الحاكم لايستطيع العمل إلا إذا كان الرأى العام

---

(١) ٢٩٢ رسائل الجاحظ ـ رسالته فى بنى أمية

(٢) ٢٩٤ المرجع نفسه

(٣) ٢ : ١٥٠ مروج الذهب

(٤) ١ : ٢٨١ زهر الآداب ـ نشر الحلبي

معه ، نلمس ذلك مما ذكره عن انتشار مذهب زرادشت ونقده لرأى من ذهب إلى أنه إنما انتشر لأن الملك كان معه(١) .

ولعل الجاحظ كان أكثر كتاب عصره ترديدا لكلمة الحرية فى أدبه ، يقول: « أقول شيئا ليس يخرجه منى إلا الشكر والحرية »(٢) ، ويقول: « ولولا أن زرادشت صادف دهرا فى غاية الفساد ، وأمة فى غاية البعد من الحرية ومن الغيرة والأنفة ، لما تم له هذا الأمر(٣) .

---

(١) ٥ : ٣٢٥ و ٣٢٦ الحيوان

(٢) ٥ : ٣٩٣ المرجع نفسه

(٣) ٥ : ٣٢٥ الحيوان - وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : مما يدل على حرية الرجل ، وكرم غريزته ، حنينه إلى أوطانه (٢ : ٦٨١ زهر الآداب - ط الحلبى) ، ويقول بعض الحكماء : عليك بحسن الشمائل فإنها تدل على الحرية (١ : ٣٨٤ زهر الآداب) : وفى هذه النصوص ربما يمتزج المدلول السياسى مع المدلول النفسى .

الفصل الثاني

في سبيل الدولة والخلافة

— ١ —

عاش الجاحظ طول حياته على صلة وثيقة بالخلافة العباسية ، بينه وبينها علاقات مودة وحب واحترام ، اشترك في الدفاع عن كيان الدولة ، وقصر وكده على الأمور الكبرى في سياسة العباسيين ؛ وكان لأبي عثمان يد عند السلطان ، فقد اتخذ بالطريقة التي سلكها في بعض تآليفه يداً عند الخلفاء ورجال الدولة ، فأصبحوا له قوة وسندا ، وبسطوا له جناح رحمة ، وصار في أمن من العامة ومن آراء أصحاب المذاهب والنحل المختلفة ؛ وكان الجاحظ يهون من شأن الغوغاء لأن آراءهم دائما لا تستند على أساس من منطق أو مصلحة عامة ، أو مثل عالية .

كتب الجاحظ كتبه في الإمامة ، وفي العباسية بتكليف من المأمون ، ورفعها إليه فقرأها وأثنى عليها وأذاعها في الناس .. ولما زادت الخصومة بين العنصرين الفارسي والتركي في جيش الخلافة ، كلفه الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، وكان من أصل تركي ، أن يكتب رسالة يلطف بها من حدة هذا التوتر ، فكتب رسالته المشهورة « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » حيث أشرك غير الأتراك معهم ، فأرضى الجميع ، وخدم دولته ، بأن هدأ الأفكار الثائرة ، إذ لكلام الجاحظ سحره وتأثيره الشديد في الناس .

ووقف الجاحظ نفسه بشعوره العربي المتدفق ، وبحبه للدولة وتأييده لها ، على حرب الشعوبية ، والتهوين من شأنهم ، ورفع قدر العرب عليهم

خدمة للدعوة العباسية ، وتأييدا لها ، حارب الشعوبية فى كتابه « البيان . . » وفى كتابه « الموالى والعرب » ، وفى رسالته « النابتة » وفى مواضع أخرى . . وحارب عصبية الموالى لكراهته للعصبية التى هلك بها عالم بعد عالم ، وبغضه للحمية التى لا تبقى دينا إلا أفسدته ، ولا دنيا إلا أهلكتها ؛ ومن ثم عنى الجاحظ برد مطاعن الشعوبية ، كرده على مطاعنهم فى اتخاذ العرب العصا(١) وغير ذلك .

ويقول الجاحظ : واعلم أنك لم تر قوما أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة » ، وكان الجاحظ يدرك بشعوره وأصله العربى أن الفرس عامتهم وخاصتهم من دعاة الشعوبية وكراهية العنصر العربى ، أما ابن قتيبة فلأنه ليس من عنصر عربى كان يزعم أن الشعوبية إنما توجد فى العامة من الفرس، أما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون مالهم وما عليهم ، ويرون الشرف نسبا ثابتا .

والجاحظ مضرب الأمثال فى مشاعره العربية ، وإيمانه بقومية العرب ، واعتزازه بهم ، وحبه لهم ، وجعله سائر الأمم دونهم فى المنزلة والجنس ، وذهابه إلى أن نساء العرب فى الجملة أعقل من رجال العجم ، فما ظنك بالمرأة منهم إذا كانت مقدمة فيهم : وفى اعتقاده الثابت أنه لم يكن لعبد المطلب فى قريش نظير ، كما أنه ليس للعرب فى الناس نظير (٢) ، ويقول إن سادات قريش فوق كسرى وآل كسرى (٣) .

هو يعظم من أمر بنى هاشم ، ويرى أنهم السنام والرأس والعقل

---

(١) ٣ : ١٢ ومابعدها ـ البيان والتبيين

(٢) ٢ : ٢٤٥ الحيوان

(٣) ٥ : ٣٢٨ الحيوان

والروح ، وأن شرفهم متصل كابرا عن كابر (١) .

وكان الجاحظ ينتهز كل فرصة ليخدم الدعوة الهاشمية ، وينوه برجالها ، ولم يترك مجالا إلا خاض فيه بمدح قريشا ، ويخص بنى هاشم بالثناء (٢) ، فالعرب كما يقول هم : « كالبدن وقريش روحها ، وهاشم سرها ولبابها ، وموضع غاية الدين والدنيا منها » ، ورسالته فى فضل هاشم على عبد شمس مشهورة .

وكان الجاحظ يترك نقد العباسيين فى سياستهم العامة فى معاملة الرعية ، استصلاحا لهم ، أو اضطرارا لمجاملتهم ، فهو يوجه نقده إلى الكثرة الغامرة من الأمة ، عسى أن يكون بصلاحها صلاح الدولة ، ومع ذلك فإنه لم يتجن على الحقائق ، فقد ذكر أن أصحابنا ـ أى العباسيين ـ هدموا بناء مدن شامات لبنى مروان (٣) ، ونوه بخطباء بنى أمية وبلاغاتهم فى رسالته « فضل هاشم على عبد شمس » (٤) . . لم يكن أبو عثمان يصانع رجال الخلافة العباسية ، وإن كان لا ينقدهم ، وهواه أبدا مع بنى هاشم (٥) ، يرى أن الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد منهم ، يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوهم .

وقد جعل الدعوة للعباسيين مذهبا سياسيا وفكريا ، فكتب رسالته المشهورة « العباسية » (٦) ، وهكذا كان لسانا من ألسنة الدعوة والدولة ، وجيشا لجبا فى مقدمة جيوشها المكافحة من أجل مجدها وعظمتها .

---

(١) ٧٤ رسائل الجاحظ

(٢) راجع فصلا للجاحظ فى ذكر قريش وهاشم (١ : ٥٨ زهر الآداب)

(٣) ١ : ٧٣ الحيوان

(٤) ٩٥ - ٩٧ رسائل الجاحظ ، وكذلك البيان والتبيين

(٥) يذكر فى كتاب « البيان والتبيين » بلاغات بنى العباس (٣ : ٣٦٦ - ٣٧٨)

(٦) راجع بعض فقرات منها فى ص ٣٠٠ - ٣٠٣ رسائل الجاحظ

— ٢ —

وفى رسالة الجاحظ « فضل هاشم على عبد شمس(١) » التى ألفها عام ٢٢٦ هـ (٢) فى خلافة المعتصم يستقصى الجاحظ فضل هاشم ، وينفى أن يكون لعبد شمس نصيب من هذه المآثر ، ويبلغ فى الحجاج والاحتجاج غاية ما يمكن أن يبلغه إنسان سواه ، وبنو هاشم فرعان : فرع على ، وفرع العباس(٣) ، وقد قامت الراوندوية فى خراسان شيعة للعباسيين ، وفى كتابه « إمامة ولد العباس » يحتج الجاحظ لهذا المذهب ، ولم يستقص فيه الحجاج للراوندية .

ويقول المسعودى : إنها لم تكن مذهبه ، وإنما فعل ذلك تظرفا(٤) ، وفى الحجاج مع عبد شمس يثبت الجاحظ مآثر الجاهلية لبنى هاشم ، وازدادوا مجداً وشرفا بعبد المطلب ثم برسول الله صلوات الله عليه ، وفيهم البلاغة والحلم والنسك والفقه والعلم والشجاعة ونبل الرأى والجود والسماح .

ويتناول الجاحظ فى رسالته « استحقاق الإمامة » الحجاج مع شيعة على بن أبى طالب ، فيفيض فى الجدل معها ، ويقسمهم إلى زيدية ورافضة (٥) ، ويذكر مذهب الزيدية فى الإمامة وهو يتفق مع رأى المعتزله فى أن الأمة يتولى الإمامة فيها أعظمها قدما فى الإسلام وزهدا وفقها وجهادا فى سبيل الله ؛ ولكنه لم يتناول « الإمامية » من فرق الشيعة إلا من الجانب السياسى فقط

---

(١) ٦٧ رسائل الجاحظ
(٢) ٧٧ رسائل الجاحظ
(٣) ٣ : ٢٨٠ و ٢٨١ ضحى الإسلام
(٤) ٢ : ١٥٧ مروج الذهب
(٥) ٢٤١ رسائل الجاحظ

لأن «الإمامية» يذهبون فى كثير من مسائل الدين إلى ما يذهب إليه المعتزلة، فذهبوا إلى أن صفات الله عين ذاته، وأن القرآن مخلوق، وإلى انكار الكلام النفسى، وانكار رؤية الله بالبصر، وفى القول بالحسن والقبح العقليين، وبقدرة العبد واختياره، وأنه تعالى لا يصدر عنه قبيح، وأن أفعاله معللة بالعلل والأغراض؛ ولا يخالفونهم إلا فى إمامة على وإمامة الأحد عشر إماما بعده(١).

وكان بعض المعتزلة يتشيع ومنهم هشام بن الحكم وشيطان الطاق(٢)؛ أما الزيدية فأقرب إلى أهل السنة(٣) .. وكان المأمون العباسى يخالف مذهب جمهور المعتزلة والعباسيين، فيذهب إلى تفضيل على على أبى بكر وعمر وإلى أحقيته للخلافة دونهما، وكان كثير العطف على العلويين وأراد نقل الخلافة إليهم ولكن لم يقدر لعمله هذا النجاح(٤)؛ وعلى الجملة فإن الجاحظ يناقش آراء الشيعة فى رسائله وكتبه ويرد عليها رداً بليغا.

أما الرافضة، وهم غلاة الشيعة، فقد كان سوط عذاب لهم، وكان قلمه البليغ معول هدم لدعوتهم، وقد بين فى كتابه «فضيلة المعتزله» أنهم يقتطعون آل أبى طالب عن العلم والعمل جميعا، ويوهمونهم أن المعاصى لا تضرهم، وأن الواحد منهم يشفع فيمن أراد أن يشفع لهم، وأن أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار لم يسلموا من عداوتهم وشتمهم، ولم يسلم من تولوه من آل على من تثبيطهم عن العلم، وتزهيدهم فى العمل الصالح فلم ينج منهم ولى ولا عدو(٥).

---

(١) ٣ : ٢٦٧ ضحى الإسلام

(٢) ٣ : ٢٦٨ المرجع

(٣) ٣ : ٢٧١ - ٢٧٧ ضحى الإسلام

(٤) ٣ : ٢٩٤ ضحى الإسلام

(٥) ٢ : ٣٥٩ أمراء البيان

ويقول الجاحظ إن الرافضة ليست منا بسبيل ، ولا نحن منها ولاهى(١) منا ، ولم يتزيد الجاحظ على الرافضة حرفا واحداً . .

وفى رسالة « العثمانية »(٢) يرد أبو عثمان على من زعم تفضيل على على أبى بكر ، ويقيم حجاجا بين مؤيديه وبين العثمانية الذين يذهبون إلى تقديم أبى بكر وتفضيله ، ويجهر بأن أفضل الأمة وأولاها بالإمامة أبو بكر ، ويدعم ذلك بأدلة كثيرة قوية ، وقد نقد الإسكافى (٢٤١هـ) وغيره آراء الجاحظ فى هذا الكتاب ، ونقد المسعودى كذلك الجاحظ فيه .

وقد ندد الجاحظ بالأمويين لما صنعوه ببنى هاشم من القتل والتشريد ، ويذكر ماضيهم فى الشرك ، وماصنعوه فى دولتهم من هدم للكعبة ، وسبى للمسلمات ، ولعن لعلى ، إلى خلاف ذلك ؛ وذلك فى رسالته « فضل هاشم على عبد شمس » ؛ وفى رسالته فى « بنى أمية » يذكر أن عام الجماعة (٤١ هـ) ماكان عام جماعة بل عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة والعام الذى تحولت فيه الإمامة ملكا كسرويا ، والخلافة منصبا قيصريا(٣)،ويعدد مساوىء بنى أمية، ويذكر استحقاقهم للعن ، ويتهكم بمن يقول إن سب ولاة السوء فتنة ، ويصف بنى أمية بأنهم كانوا فى طريق التمرد على الله ، والاستخفاف بالدين ، والتهاون بالمسلمين ، والابتذال لأهل الحق(٤) .

وكان الجاحظ يذكر أن الخوارج مع مروقهم من الدين ، وخروجهم عنه ، وجهلهم به،أحسن اقتصادا من الرافضة،ولهذا اتهم المسعودى الجاحظ

---

(١) ٢ : ٢٧٣ المرجع ـ ومن الرافضة المشبهة وعلى رأسهم مقاتل بن سليمان (١٥٠ هـ) ويشبهون صفات الله بصفات المخلوقين

(٢) ١ ـ ١٢ رسائل الجاحظ

(٣) ٢٩٤ رسائل الجاحظ

(٤) وفى رسالته « النابتة » إقذاع فى الحديث عن الأمويين ، ولذلك يرجح محمد كرد على أن تكون نسبتها إليه غير صحيحة (٢ : ٤٤٠ أمراء البيان)

بأن كتبه تدعو إلى النصب وأهل النصب ، يتدينون ببغض على ، فإنهم نصبوا له ، وعادوه ، ومنهم الخوارج ، والجاحظ يذكر فى كتابه « البيان » بلاغة الخوارج وبلغاءهم .

وهكذا انتصر الجاحظ لدعوة العباسية ، وجادل كل خصومها ، وناقشهم ، ووقف منهم موقف القاضى العادل ، فناقش الشيعة والرافضة والعثمانية والأموية والخوارج ، وأدلى بحججهم ، وعاد إليها ينقضها ، ويبين خطأها وخطأهم فيها ، وكتب فى القحطانية والعدنانية ودافع عن العدنانية ورد على القحطانية .. وعلى الجملة فقد كان من أكبر قوى الدولة ، ومن المناضلين عنها والمدافعين لخصومها وأعدائها .

— ٣ —

وموقفه من عصبيات الموالى والشعوبيين معروف ، فقد نقد النابتة ، الذين يزعمون أن المولى بولائه قد صار عربيا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : مولى القوم منهم ، ويقول الجاحظ : إنه لولا قول النبي صلى الله عليه وسلم إن إسماعيل كان عربيا ماكان عندنا إلا أعجميا ، لأن الأعجمى لا يصير عربيا ، كما أن العربى لا يصير أعجميا(١) .

وقد كتب أبو عثمان الجاحظ كتبا رد فيها الموالى إلى مكانهم فى الفضل والنقص ، وإلى قدر ما جعل الله لهم بالعرب من الشرف(٢) .

وبعد فإن صفحات الجاحظ السياسية صفحات مشرقة ، وفيها نزعة عربية أصيلة ، تليها نزعة عباسية ظاهرة ، وقف عندها أبو عثمان طول حياته لاينافق ولا يوارى ولا يدارى ، ولا يقول غير الحق الذى يعتقده ، وغير مافى نفسه من رأى ومذهب .. وهى كلها جديرة بأن تجعل الجاحظ فى مصاف الدعاة السياسيين الكبار ، وفى عداد زعماء العالم الإسلامى القديم .

---

(١) ٢٩٩ رسائل الجاحظ (٢) ٣٠٠ المرجع

البَابُ الخَامِسُ

الجـــاحظ المعتزلى

الفصل الأول

المعتزلة والاعتزال[1]

— ١ —

تطورت الحركات الفكرية فى الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم تطورا كبيرا ؛ فقد شهد العقل العربى نزعة محافظة كل المحافظة ، متبعة أشد الاتباع ، مقلدة أبعد حدود التقليد ، فى فهم الإسلام ونصوص القرآن الكريم المقدسة ، تعتمد على النص والرواية ، وترجع إلى النقل الوارد عن الرسول ، ولا تترك للعقل شيئا فى فهم النصوص .

وافترق المسلمون فى آخر خلافة على إلى شيعة وخوارج ومرجئة ، ولكل منهم رأيه فى الخلافة والسياسة ، ومجاله فى فهم النصوص التى تتعلق بهما وفى تأويلها .

ثم ظهر الحسن البصرى (١١٠ ﻫ) ، وغيلان الدمشقى ، والجعد بن درهم (١٢٧ﻫ) ، وجهم بن صفوان (١٢٨ ﻫ) ، فأثاروا حركة جديدة شهدتها البصرة ، وتتصل بفهم العقيدة وأصولها ، وثارت مسألة مرتكب الكبيرة ، واختلف الناس فى البصرة فيها ، وتعددت آراء الفرق المختلفة ؛ فالأزارقة من الخوارج يقولون : كل مرتكب لذنب صغير أو كبير مشرك بالله ، وأطفالهم مثلهم ،

---

(١) راجع : ٢١ - ٢٠٧ : ٣ ضحى الإسلام ، وللجاحظ كتاب « فضيلة المعتزلة » ، وللقاضى عبد الجبار كتاب « طبقات المعتزلة » ، ولأبى الحسين الخياط (٣٥٠ ﻫ) كتاب « الانتصار » الذى يرد فيه على ابن الراوندى فى كتابه « فضيحة المعتزلة » وراجع كتاب « المعتزلة » لزهدى حسن جاد الله .

ووافقتهم « الصفرية » من الخوارج أيضا إلا أنهم خالفوهم فى الأطفال (١) ؛ وذهب الحسن البصرى إلى أن مرتكب الكبيرة مؤمن عاص ، وذهب الجمهور إلى أنه مؤمن فاسق .

وخالف واصل بن عطاء (٨٠ — ١٣١ ﻫ) أستاذه الحسن البصرى ، وذهب إلى أنه فى منزلة بين المنزلتين ، أى بين الإيمان والكفر ، وانضم إليه عمرو بن عبيد (٨٠ — ١٤٤ ﻫ)(٢) ، واعتزلوا هما وأتباعهما مذهب أستاذهم ، فسموا معتزلة (٣) ، وأخذوا فى تقرير مذهبهم لأنصارهم ، وفى نشره وإرسال الدعاة له إلى كل مكان (٤) .

وأصول مذهب المعتزلة خمسة : العـــدل ـ التوحيد ـ القول بالوعد والوعيد ـ القول بالمنزلة بين المنزلتين ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ يقول أبو الحسين الخياط (٣٠٠ ﻫ) فى كتابه « الانتصار(٥) » : « وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة » . .

---

(١) وكان النظام يذهب إلى أنهم فى الجنة ٣ : ٣٩٤ الحيوان

(٢) ٣ : ١٣٠ - ١٣٢ وفيات الأعيـــان

(٣) تخالف المرجئة المعتزلة والخوارج ، إذ ذهبوا إلى أن مرتكب الكبيرة غير مخلد فى النار ، من حيث قالا بخلوده فيها .. وتسمى المعتزلة قدرية ، وأهل العدل والتوحيد أيضا .

(٤) اصفوان الأنصارى قصيدة فى واصل وأصحابه ودعوتهم وفى بثهم للدعاة لمذهبهم فى كل مكان (١ : ٢٥ و ٢٦ البيان ـ نشر الخانجى) ، وكان واصل قد بث الدعاة إلى كل جهة (٣ : ٩٢ ضحى الإسلام) ، وكانوا يسمون الواصلية ، وكان عددهم فى تاهرت نحو ثلاثين ألف بيت (معجم البلدان ـ مادة تاهرت) .

(٥) ص ١٢٦ الانتصار

— ٢ —

وكان الجاحظ وكثير من المعتزلة البصريين يفضلون أبا بكر على على ، ويجعلون ترتيب الخلفاء الراشدين الأربعة فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة(١)، وذهب البغداديون من المعتزلة إلى تفضيل على على أبى بكر ، وذهب غيرهم إلى التوقف فيهما ، وهو قول واصل وأبى الهذيل العلاف(٢) ، وكان المعتزلة يؤيدون وجهة نظر على فى الحرب بينه وبين معاوية ، ويتبرأون من معاوية وعمرو بن العاص ومن ذهب مذهبهما (٣) ، وكان أبو زيد البلخى (٣٢٢هـ) المعتزلى يرميهما بالإلحاد (٤) .

ولهذا هم المأمون بلعن معاوية على المنبر بتأثير ثمامة بن الأشرس (٥) ، وكذلك لم يرض المعتزلة عن أبى موسى الأشعرى لموقفه فى التحكيم وعدوه من أرباب الكبائر(٦) .

وموقف المعتزلة من الدولة الأموية الكراهية ، وإن لم يثوروا عليهم ثورة الخوارج (٧) ، ولم يكونوا يميلون إلى عمر بن عبد العزيز لأنه ناقشهم

---

(١) راجع رسالة العثمانية للجاحظ (١ - ١٢ رسائل الجاحظ)

(٢) ١ : ٣ ابن أبى الحديد (شرح نهج البلاغة) ، ٣ : ٧٧ ضحى الإسلام

(٣) ٩٧ و ٩٨ الانتصار

(٤) ٣ : ٨٠ ضحى الإسلام

(٥) تاريخ بغداد لطيفور

(٦) ٣ : ٣٨٨ ابن أبى الحديد ، وللجاحظ رسالة فى أمر الحكمين وتصويب رأى على ، وهى مهداة إلى أبى حسان ، ورسالة أخرى فى إثبات إمامة على ، وقد تكونان رسالة واحدة .

(٧) بسط الجاحظ رأيه فى بنى أمية فى رسالته عن بنى أمية (٢٩٢ - ٣٠٠ رسائل الجاحظ) .

وهم بقتل بعضهم ، بل إن الجاحظ كان يفسقه ويستهزىء به ويكفره (١)؛ ونقموا على الوليد بن يزيد بن عبد الملك لاستهتاره ، وكانوا من العاملين على قتله عام ١٢٦ ﻫ وإحلال يزيد بن الوليد محله الذى كان يذهب إلى رأى المعتزلة ومذهبهم (٢) ، وكانوا يفضلونه على عمر بنِ عبد العزيز (٣) ، وقد دعا الناس إلى القدر وحملهم عليه وقرب أصحاب غيلان الدمشقى (٤) ولذلك سموه الكامل (٥) .

والمعتزلة مع الحكم الجمهورى إذ الإمامة عندهم اختيار من الأمة سواء كان الإمام من قريش أم من غيرها ؛ ومن ثم كان عمرو بن عبيد لا يميل إلى العباسية وينقد المنصور نقدا شديدا(٦) ، وكان لا يرى اللجوء إلى السيف(٧).. ومات واصل (٨) ثم عمرو بن عبيد قبل أن تذيع فى الناس كتب الحكمة والمنطق والفلسفة المترجمة ، فلما ذاعت هذه العلوم فى أوائل الدولة العباسية ، أقبلوا عليها ، وأخذوا يؤيدون مذهبهم بها ، فكانوا أول من استعانوا بالفلسفة اليونانية فى تأييد نزعاتهم ، وأصبح المعتزلة من أشد المؤمنين بسلطان

---

(١) ٤ : ٤٦١ ابن أبى الحديد

(٢) ٢ : ١٥٠ مروج الذهب

(٣) ٢ : ١٥٢ المرجع

(٤) ٩٨ تاريخ الخلفاء

(٥) راجع رأى عمرو بن عبيد فيه ص ٩٦ و ٩٧ رسائل الجاحظ من رسالته فى فضل هاشم على عبد شمس .

(٦) ٢ : ٣٣٧ عيون الأخبار

(٧) ١٢ : ١٦٩ تاريخ بغداد

(٨) ١ : ١٤ - ١٧ ، ٢٢ - ٣٤ البيان ، ٦ : ٢١٤ لسان الميزان ، وسمى الغزال لكثرة جلوسه فى سوق الغزالين (١ : ٣٣ البيان) .

العقل وتحكيمه فى كل الأمور ، وعنوا بالأدب والشعر رواية وحفظا وكان بشر بن المعتمر أرواهم للشعر (١) .

— ٣ —

وبعد موت عمرو بن عبيد انقسم المعتزلة إلى مدارس :

مدرسة البصرة :

ومن أشهر أعلامها بعد موت واصل (١٣١ هـ) وعمرو بن عبيد (٢) (١٤٤ هـ) :

١ — أبو الهذيل العلاف (١٣٤ - ٢٢٦ هـ) (٣) ، يقول فيه صاحب كتاب « الانتصار » : نسيج وحده ، وواحد دهره فى البيان ، ومعرفة جيد الكلام (٤) ، ويقول المبرد : ما رأيت أفصح من أبى الهذيل والجاحظ (٥) ، اتصل بالفلسفة اليونانية وقرأها مترجمة حتى يقول النظام « خيل إلى أنه لم يكن متشاغلا قط إلا بها (٦) » ، وكان مقربا إلى المأمون ، وعده الجاحظ أبخل المعتزلة (٧) . ويقول فيه : كان أسلم الناس صدرا وأوسعهم خلقا وأسهلهم سهولة (٨) ، ويقول فيه بشر بن المعتمر يصوره بصورة المحب للظهور : « لأن يكون لا يعلم وهو عند الناس يعلم أحب إليه من أن يعلم وهو عند الناس لا يعلم » .

---

(١) ٦ : ٤٠٥ الحيوان

(٢) كان المنصور وهو شاب يختلف إلى مجالسه (١٢ : ١٦٩ تاريخ بغداد)

(٣) كتاب « أبو هذيل العلاف » لعلى الغرابى (المتوفى فى فبراير ١٩٦٤)، ٣ : ١٩٦ و ١٩٧ وفيات الأعيان .

(٤) ٦٧ الانتصار

(٥) ٣٦ المنية والأمل للمرتضى

(٦) ٢٦ المرجع

(٧) ١ : ١١٩ البخلاء

(٨) ٢ : ٦٣ المرجع



٢ — النظام (١٨٠ - ٢٢١ هـ)

كان أبو اسحاق ابراهيم بن سيار البصرى من أئمة المعتزلة بالبصرة ، تبحر فى الفلسفة واطلع على ماترجم منها ، ويقول فيه الجاحظ: إنه مارأى أحدا أعلم بالفقه والكلام منه ، ووصفه بقوة الحجة (١) ، وبجودة القيـــاس والاستنباط ، وقال: إنه لايتحرى الدقة فيما يقيس عليه (٢) ، ولا يؤمن بالطيرة (٣) ، يجل العقل ويحترمه ، لا ينكر المسخ على سبيل المعجزة (٤) ، وله مذهب فى الكمون(٥) شرحه الجاحظ وزاد عليه ، وكان يذهب إلى أن الله لا يوصف بالقدرة على الشر . وإلى أن إعجاز القرآن سببه الصرفة ، أى أن الله تعـــالى صرف العرب على الإتيان بمثله مع قدرتهم على ذلك (٦) .

ويقول الجاحظ فيه : الأوائل يقولون « فى كل ألف سنة رجل لانظير له » فإن كان ذلك صحيحا فالنظام من أولئك(٧) .

ويقول الجاحظ : أخبرنى النظام وكنا لانرتاب بحديثه إذا حكى عن

---

(١) ١ : ٧٧ البيان والتبيين

(٢) ٢ : ٢٢٩ و ٢٣٠ ، ٣ : ٨٣ الحيوان

(٣) ٣ : ٤٥١ الحيوان (٤) ٤ : ٧٣ الحيوان

(٥) ٥ : ١ - ٣١ الحيوان ، ويرد على ضرارة بن عمرو فى إنكاره القول بالكمون (٥ : ١٠ الحيوان) .

(٦) ٢٢٥ مقالات الإسلاميين ، ٢٧ الانتصار ، ٣٩ الملل والنحل طبعة أوربا .

(٧) ٢٩ المنية والأمل

سماع أو عيان(١) ، ويصفه بأنه كان أضيق الناس صدراً بحمل سر(٢) ، وكان أبو الهذيل يهرب من مناظرته(٣) .

وروى الجاحظ فى البخلاء قصة النظام مع جار له مروى بخيل ، وقصة أخرى للجاحظ والنظام ومعهما وليد القرشى وفيها يذكر الجاحظ أنه مضى هو والنظام إلى الصحراء يريد الحديث والمناظرة فى شىء من الكلام(٤) ، وينقده الجاحظ فيقول : كان رئيس من المتكلمين وأحد الجلة المتقدمين يقول فى النفس قولا بليغا لولا شنعته لأظهرت اسمه(٥) ، ويذكر جدله مع المنانية (٦) ، ورده على الديصانية(٧) ونقده لبعض الفلاسفة (٨) ، ورده على أرسطو(٩) ، وكان النظام ينفى ما ترويه العرب عن سماعهم لصوت الجن(١٠) وكان النظام يقول : لاتسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة (١١) ، وكان له صهر يدين بالنجوم ولا يقر بشىء من الحوادث إلا بما يجرى على الطباع(١٢) .

وكان النظام مطبوعا على البحث عن أصل كل شىء وعلته ، ولا يقتصر على الانقياد والمحاكاة ، ويعتبر الشك أساسا للبحث ، ويستخدم المنطق فى بحثه عن الحقائق ، ويحارب أوهام العامة وخرافاتهم ، وكان واسع الحرية فى التفكير .

ويقول فيه الجاحظ : لولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، ولولا أصحاب إبراهيم وابراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة ، فقد

---

(١) ٤ : ١٠٦ و ٣٢٠ الحيوان
(٢) ٥ : ٦٤ و ١٨٧ الحيوان
(٣) ٢ : ٨٢ الحيوان
(٤) ١ : ٧٤ البخلاء
(٥) ٥ : ١١١ الحيوان
(٦) ٤ : ٤٤١ الحيوان
(٧) ٤ : ٥ الحيوان
(٨) ٥ : ٤٧ الحيوان
(٩) ٥ : ٥٣ الحيوان
(١٠) ٦ : ٢٤٨ و ٢٤٩ الحيوان
(١١) ١ : ٣٤٣ الحيوان
(١٢) ١ : ١٤٨ الحيوان

أنهج لهم سبلا ، وفتق لهم أموراً(١) ، ويقول فيه الشهرستانى : إنه طالع كثيراً من كتب الفلاسفة ، وخلط كلامهم بكلام المعتزلة ، ويرميه ابن قتيبة بالافراط فى السكر(٢) ، ويذكر الجاحظ أنه هو والنظام وقطرب اجتمعوا على مائدة صديق لهم بخيل(٣) وهذه القصة لابد أنها حدثت قبل وفاة قطرب عام ٢٠٦ هـ ، وكان ذكاء النظام يضرب به المثل(٤) ، ويقولون إن الخليل شهـــد له بالعبقرية والذكاء(٥) ، مع أن الخليل توفى عام ١٧٥ قبل مولد النظام بخمس سنوات ، وكان النظام أديبا أريبا وصف عبد الوهاب الثقفى البصرى (١٩٤ هـ) فقال : هو أحلى من أمن بعد خوف وبرء بعد سقم ومن خصب بعد جدب وغنى بعد فقر ، وله شعر كثير(٦) ، مع بصر بجودة الكلام وحذق فى نقده ، وكان النظام يقيم أحكامه على التجربة (٧) . وقد تبحر فى الفلسفة ؛ واطلع على ما ترجم منها وانفرد بمذهب خاص من مذاهب المعتزلة سمى النظامية ، وعليه تتلمذ الجاحظ وبه تأثر . وكان له نظر بوجوه التصرف(٨) ؛ وللجاحظ كتاب فى الرد على أستاذه النظام ، ورد عليه أيضا مذهبه فى أن نظم القرآن ليس معجزاً(٩) .

مدرسة بغداد :

كان تأثرها بالفلسفة اليونانية أقوى من تأثر مدرسة البصرة بها لقوة حركة الترجمة فى بغداد (١٠) .. ومن أشهر أعلامها :

---

(١) ٤ : ٢٠٦ و ٦٩ الحيوان
(٢) ٢١ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة
(٣) ١ : ١٠١ البخلاء
(٤) ١٨ : ١٨٨ الأغانى
(٥) سرح العيون لابن نباتة
(٦) ٣ : ١٠٨ - ١١٠ ضحى الإسلام
(٧) ٢ : ٢٢٨ - ٢٣٠ الحيوان
(٨) ١ : ٥١٤ زهر الآداب - ط الحلبي
(٩) ١٤٨ رسائل الجاحظ
(١٠) ٣ : ١٦٠ ضحى الإسلام

١ — بشر بن المعتمر (٢١٠ هـ) وهو صاحب الصحيفة المشهورة(١) فى البلاغة ، التى يعده البعض من أجلها المؤسس الأول لعلم البلاغة العربية(٢)، ويقول الجاحظ فيه : لم أر أحدا أقوى على المخمس والمزدوج مما قوى عليه بشر وقد كان فى ذلك أقدر من أبان (٢٠٠ هـ) ، وله قصيدتان طويلتان فى الحيوان وعجائب صنع الله فى خلقه (٣) ، وأشهر تلاميذه : ابن أبى دؤاد وثمامة وأبو موسى المردار ، ولبشر قصيدة فى أربعين ألف بيت فى الرد على جميع المخالفين(٤)، وكان أروى المعتزلة للشعر (٥) .

٢ — ثمامة بن الأشرس (٢١٣هـ) ، وهو أحد شيوخ الجاحظ ويقول فيه « وما علمت أنه كان فى زمانه قروى ولا بلدى بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه (٦) » .

وكان ثمامة واحد دهره فى العلم والأدب كما يقول المرتضى ، حبسه الرشيد ثم عفا عنه ، وعلا شأنه أيام المأمون ، وكان مستشاره المؤتمن(٧)، قدم تلميذه يحيى بن أكثم إلى المأمون فاستوزره ، وكان ثمامة يريد حمل المأمون على رأى فى الاعتزال وهو لعن معاوية على المنبر فأبى عليه المأمون ذلك(٨) ، وهو صاحب مذهب فى المعتزلة يسمى « الثمامية » ، وهو الذى نشر الاعتزال بين الناس(٩) .

---

(١) ١ : ١٢٦ البيان   (٢) ٣ : ١٤١ و ١٤٣ ضحى الإسلام

(٣) ٦ : ٢٨٤ الحيوان وما بعدها   (٤) ٣ : ١٤٤ ضحى الإسلام

(٥) ٦ : ٤٠٥ الحيوان ـ وراجع فى ترجمته ١ : ٨١ لسان الميزان ، ٢ : ٣٣ مفاتيح العلوم ، ١٤٧ الزركلى .

(٦) ٢ : ٤٢٢ أمراء البيان نقلا عن البيان (١ : ٨٩)   (٧) ٢١٥ طيفور

(٨) ٨٠ و ١٥٢ : ٣ ضحى الإسلام   (٩) ٣ : ١٥٠ الحيوان

ويذكر الجاحظ حريق دار له (١) ، ويصفه بالكرم(٢) وبالجدل(٣) ، ويصف بلاغته (٤) وعنايته بأسلوبه(٥) ، وكان كثيراً مايسير فى حاجات الناس من المعتزلة والشيعة (٦) ، وبغض المعتزلة للشيعة معروف ، ويضرب الجاحظ المثل بكراهية المعتزلة للشيعة من كلام رواه على لسان الكندى(٧)، ويروى أبو عثمان عن ثمامة فى « الحيوان » و « البيان » كثيرا .

٣ — أحمد بن أبى دؤاد (٢٤٠ هـ) :

قربه يحي بن أكثم من المأمون فعلت مكانته عنده ، وأصبح مرموقا من الناس ومن الشعراء والأدباء ، واتصل به الجاحظ بعد أن نكب صديقه محمد عبد الملك بن الزيات عام ٢٣٣ هـ ، وقد كان مزورا عن ابن أبى دؤاد ، مقربا إلى ابن الزيات ؛ وأهداه الجاحظ كتابه « البيان » فأجازه عليه بخمسة آلاف دينار ، وللجاحظ شعر فيه ، وكان له نفوذه وتأثيره فى سياسة الخلافة فى عهد المأمون والمعتصم والواثق وهو الذى نصر بهم الاعتزال وحمل المأمون على القول بخلق القرآن عام ٢١٢ هـ (٨) ، وعلى امتحان العلماء به ، وظلت هذه المسألة مسألة الدولة والشعب من عام ٢١٢ هـ حتى عام ٢٣٤ هـ ؛ وكان ممن ذهب إلى القول بخلق القرآن : الجعد بن درهم (١٢٧ هـ) ، وجهم بن صفوان (١٢٨ هـ) ، ويزيد بن هارون (٢٠٦ هـ) ، وبشر المريسى (٢١٨ هـ) المتكلم(٩) ، ويحي بن معين (٢٣٣ هـ) .

---

(١) ٢ : ٣١٧ البيان ، ١ : ٦١ البخلاء

(٢) ٢ : ١٥٦ - ١٥٨ البخلاء

(٣) ٢ : ١٧١ البخلاء

(٤) ١ : ١١١ البيان

(٥) ٢ : ٧٣ البخلاء

(٦) ١٦٤ و ١٦٥ رسائل الجاحظ

(٧) ١ : ١٦٣ البخلاء

(٨) ١٤٩ رسائل الجاحظ

(٩) ١ : ٣٧٣ العبر للذهبى ، ٧ : ٦٧ تاريخ بغداد للخطيب

وممن امتحنوا بالقول بخلق القرآن أحمد بن حنبل (٢٤٠ هـ) ، وذلك عام ٢١٩ هـ على يدى المعتصم(١) ، وبسبب هذه المسألة كره الناس الاعتزال والمعتزلة . وكان ابن أبي دؤاد عالما بضروب العلم والأدب ، منصرفا إلى صناعة الكلام على مذهب الاعتزال .

— ٤ —

هذا هو الاعتزال ، وهؤلاء هم المعتزلة ، وأشهر أئمتهم إلى عصر المتوكل . .

ولما جاء المتوكل أبطل القول بخلق القرآن ، وقرب المحدثين إليه عام ٢٣٤ هـ ، وبذلك بدأ نجم المعتزلة فى الأفول ، ومع ذلك فقد حمل دعوته طبقة بعد طبقة ، وظل نفوذ المذهب الفكرى سائدا بين المسلمين ، وكان دفاع المعتزلة عن الإسلام شيئا يستحق التقدير .

وللمعتزلة الفضل فى وضع الأسس الأولى للبلاغة والكلام والجدل والمناظرة ، وكان المتكلمون من المعتزلة من أكثر الناس حفظا للشعر ، وكان بشر بن المعتمر أرواهم للشعر(٢) . .

وقد تركت دعوة المعتزلة حركة فكرية قوية فى الإسلام استمر صداها حتى اليوم . .

---

(١) ١ : ٣٧٦ العبر ، ١٤٩ - ١٥٢ رسائل الجاحظ
(٢) ٦ : ٤٠٥ الحيوان

الفصل الثانى

الجاحظ ومذهبه فى الاعتزال

— ١ —

كان الجاحظ إماما من أئمة المعتزلة ، وشيخا من كبار شيوخهم ، وعلما من أشهر أعلامهم . . ويعد من الطبقة السابعة فى المعتزلة (١) .

درس الاعتزال فى البصرة ، وكانت هى المدينة التى ظهر فيها المذهب ، وغلب عليها سلطان المعتزلة الفكرى ، وكان من شيوخه فى المذهب أبو اسحاق النظام (١٨٠ - ٢٢١ ه) ، فعنه أخذ ، ومنه تعلم ؛ ولا يعلم بمن سلف وخلف أفصح من الجاحظ(٢) ؛ وكذلك أخذ عن ثمامة ، وبشر بن المعتمر ، ولقى أحمد بن أبى دؤاد ؛ وعاصر حركة المعتزلة الفكرية فى البصرة وبغداد ، حتى أصبح حجة فى المذهب ، وقطبا من أكبر أقطابه .

وانفرد الجاحظ من بين المعتزلة بآراء خاصة به ، تابعه عليها لفيف من الناس ، وكان لها أنصارها ومريدوها وتلاميذها ، وسموا « الجاحظية » ؛ فكان شيخ مذهب منهم ، ورأس فرقة من بينهم ؛ وللجاحظ كتب كثيرة فى الاعتزال ، وضاعت كلها ؛ ومن بينها :

١ — فضيلة المعتزلة ، رد عليه ابن الراوندى بكتابه « فضيحة المعتزلة » ودافع عنه الخياط فى كتابه « الانتصار » .

---

(١) ٢ : ٣٢٢ أمراء البيان

(٢) ٤ : ١٩٦ مروج الذهب

٢ — الاعتزال وفضله على الفضيلة ، وقد يكون هو عين الأول .

٣ — فضيلة الكلام ، وللرازى (٣٢٠ هـ) كتاب فى الرد عليه عنوانه : مناقضة الجاحظ فى كتابه « فضيلة الكلام » .

٤ — خلق القرآن .

وذلك عدا كتب أخرى فى الاستطاعة ، وخلق الأفعال وغيرها ، وقد فقدت مؤلفات الجاحظ الاعتزالية وبقيت بعض كتبه الأدبية والموسوعية .

ومن كلام : ابن الراوندى ، والبغدادى (٤٢٩ هـ) صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » ، وابن حزم (٤٥٦ هـ) ، والشهرستانى (٤٤٩ - ٥٤٨ هـ) فى كتابه الملل والنحل ، نعرف أن الجاحظ كان يذهب إلى آراء كثيرة ، وكان صاحب مذهب اعتزالى واضح . .

— ٢ —

وخلاصة مذهب الجاحظ الاعتزالى هو مايلى :

أولا ـ الصدق والكذب :

جمهور علماء الكلام يرى أن الخبر ينقسم إلى صادق وكاذب ثم اختلفوا بعد ذلك فقال :

١ — أكثر الجمهور إن صدق الخبر مطابقة حكمه للواقع ، وكذبه عدمها ، وهذا هو المشهور والراجح بين الأكثرين .

٢ — وقال غيرهم إن صدق الخبر مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صوابا كان أو خطأ ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له ، وهذا هو مذهب النظام .

أما الجاحظ فقد أنكر انحصار الخبر فى الصدق والكذب ، وزعم أن الخبر ثلاثة أقسام : صادق - كاذب - غير صادق ولا كاذب ؛ لأن الحكم إما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه ، وإما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه .

فالأول - وهو المطابق مع الاعتقاد - هو الصادق ، فصدق الخبر عند الجاحظ هو مطابقة الخبر للواقع مع اعتقاد المخبر بالخبر أنه مطابق له .

والثانى - غير المطابق مع الاعتقاد - هو الكاذب ، فكذب الخبر هو عدم مطابقته للواقع مع اعتقاد المخبر أنه غير مطابق له .

والثالث - المطابق مع عدم الاعتقاد أصلا أو مع عدم اعتقاد المطابقة - وكذلك الرابع - غير المطابق مع عدم الاعتقاد أصلا أو مع اعتقاد المطابقة - ليس كل منهما بصادق ولا كاذب . .

فالصدق فى الخبر عند الجاحظ مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده ، والكذب عدم مطابقته مع اعتقاده .

وغيرهما ضربان : مطابقته مع عدم اعتقاده ، وعدم مطابقته مع عدم اعتقاده ؛ فكل من الصدق والكذب بتفسير الجاحظ أخص منه بتفسير غيره ، لأنه اعتبر فى الصدق مطابقة الواقع والاعتقاد جميعا ، وفى الكذب عدم مطابقتهما جميعا ، أما الجمهور فاقتصروا على الواقع ، والنظام اقتصر على الاعتقاد .

ومذهب الجاحظ جدير بالتأمل ، ويترتب عليه نتائج كثيرة ، لاداعى لتفصيل الكلام عليها هنا (١) .

---

(١) راجع مذهب الجاحظ فى ذلك فى جميع كتب البلاغة القديمة ، ومن بينها (١ : ٧٩ - ٨٢ الإيضاح للقزوينى - شرح مؤلف هذا الكتاب) .

ثانيا : مذهب المعرفة عند الجاحظ [١] :

جرى الجدل حول أمر المعرفة بين علماء الكلام وخاصة المعتزلة فى عصر الجاحظ وبعده ، واختلفوا حول ماإذا كانت المعارف ضرورية أو نظرية ، فذهب الجاحظ إلى أن المعارف كلها ضرورية ، إذ رأى أن المعرفة تستتبع العمل ، فالمعرفة لابد أن يتبعها العمل ، أو لابد لها من عمل كما يقول الجاحظ نفسه[٢] ، فالمعارف كلها ضرورية طباع ، وليس شىء منها من أفعال العباد ، وإنما وقعت منهم طباعا ، وليس لهم فيها اختيار على الحقيقة ، وإنما تنسب إليهم على أنها وجبت بإرادتهم ، فإنه ليس للعبد كسب سوى الإرادة [٣] .

وكان الفخر الرازى (٦٠٦ هـ) يذهب مذهب الجاحظ فى المعرفة ويرى أنها ضرورية ، من حيث رأى غير الجاحظ أن المعارف نظرية ؛ وكان ثمامة يقول إن « المعارف متولدة من النظرة »[٤] ، ونحا هذا المنحى إمام الحرمين الجوينى وكذلك الغزالى وغيرهما . .

وخلاصة رأى الجاحظ فى المعرفة أنها ليست من فعل الإنسان ، لأنها متولدة إما من اتجاه الحواس أو من اتجاه النظر [٥] ، ولذلك قال الجاحظ : إن الإنسان فى تحصيل معارفه ليس له إلا توجيه الإرادة ، وما يحدث بعد ذلك فاضطرار وطبيعة [٦] .

---

(١) راجع ١٣١ وما بعدها جـ ٣ ضحى الإسلام

(٢) ٢ : ٩٧ الحيوان

(٣) راجع ٢ه الملل والنحل للشهرستانى ـ ط أوربا ، ٣ : ١٣١ ضحى الإسلام

(٤) ٣ : ١٥٥ ضحى الإسلام

(٥) ٣ : ١٣٢ المرجع

(٦) ٣ : ١٣٣ المرجع

ويذكر الأشعرى أن الجاحظ كان يقول : إن ماللإنسان من الإرادة فهو للإنسان بطبعه ، وليس باختيار له ، وليس يقع منه فعل باختيار سوى الإرادة (١) .

وهكذا كان يرى الجاحظ أن معارف الإنسان معارف بطبعه ، فهو يلقم الثدى بطبعه ، ويألم ويطرب بطبعه ، وهو يقبل ماصح لديه من برهان ويرفض ماسواه ، وتوسع الجاحظ فى هذا الباب قد أدى به إلى تضييق دائرة الكافرين الذين يعاقبون على كفرهم ، فعنده أن من لم تبلغه الدعوة وكذلك من بلغته ولم يؤده النظر إلى الإيمان بها ، ليسا بآثمين ، إنما يأثم من قام لديه البرهان على صحة الدعوة ومع ذلك فقد أصر على العناد .

وفى ذلك يقول الغزالى : ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية إن كان معاندا على خلاف اعتقاده فهو آثم ، وإن نظر فعجز عن درك الحق ، فهو معذور غير آثم ، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور ، وإنما الآثم هو المعاند فقط ، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ؛ وقد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالى إذ سد عليهم طرق المعرفة (٢) .

ويرد الغزالى على ذلك بأن هذا الرأى ليس بمحال عقلا ، ولو ورد به الشرع لكان جائزاً ، ولكن الشرع أتى بعقاب قوم لم ينظروا ، وفى كتاب «فيصل التفرقة للغزالى» يذهب مؤلفه إلى مذهب قريب من مذهب الجاحظ .

وقد دفع المعتزلة إلى بحث مسألة المعرفة أمران ، هما : هل الإنسان يخلق أفعال نفسه أو يخلقها الله تعالى فيه ، ثم الأفعال المتولدة من فعل هل تنسب

---

(١) ٤٠٧ مقالات الإسلاميين الأشعرى

(٢) ٢ : ٣٥٩ المستصفى للغزالى

إلى الفاعل أو لا تنسب إليه . . على أنه ليس هناك تناقض بين قول الجاحظ بضرورية المعرفة وقول المعتزلة بأن الإنسان يخلق أفعال نفسه .

هذا وللجاحظ كتب فى المعرفة ، وله كتاب بعنوان « أفعال الطبائع » .

ثالثا : آراء أخرى للجاحظ :

وذهب الجاحظ إلى آراء أخرى كثيرة منها :

١ — أن الخلق كلهم من العقلاء عالمون بأن الله تعالى خالقهم ، وعارفون بأنهم محتاجون إلى النبى . وهم محجوجون بمعرفتهم ، ثم هم صنفان : عالم بالتوحيد ، وجاهل به ، فالجاهل معذور والعالم محجوج .

٢ — الكفار بين معاند وبين عارف قد استغرقه حبه لمذهبه ، فهو لا يشكر بما عنده من المعرفة بخالقه . وبصدق رسله . .

٣ — ليس بجائز أن يبلغ أحد ولا يعرف الله تعالى

٤ — إن من دان بالإسلام وجب عليه أن يعتقد أن الله تعالى ليس بجسم ، ولا صورة ، ولا يرى بالأبصار ، وأنه عدل لا يجور ، وأنه لا يريد المعاصى ، فإن أقر بذلك كله بعد الاعتقاد والتبيين فهو مسلم حقا ، وإن عرف ذلك كله ثم جحده وأنكره ، أو دان بالتشبيه والجبر ، فهو مشرك كافر حقا ، وإن لم ينظر فى شىء من ذلك ، واعتقد أن الله تعالى ربه وأن محمداً رسوله فهو مؤمن ، لا لوم عليه . ولا تكليف له بغير ذلك .

٥ — ليس للإرادة أصل ولكنها جنس من الأعراض ، إذا انتفى السهو عن الفاعل ، وكان عالما بما يفعله فهو المريد على التحقيق ، وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النفس إليه

٦ — جائز أن يوصف الله تعالى بأنه مريد ، بمعنى أنه لا يصح فى حقه

السهو فى أفعاله ، ولا الجهل بها ، ولا يجوز أن يغلب أو يقهر .

٧ — لا يدخل الله النار أحدا ، ولكن النار هى التى تجذب أهلها إليها بطبيعتها ، ثم تمسكهم فيها على الخلود ، وليس معنى الخلود أن يصلوا فيها عذابا أبدا ، وإنما هم يصيرون إلى طبيعتها .

٨ — إن القدر خيره وشره من العبد ؛ وكان اختلاف الناس فى القدر على أن طائفة تقول : كل شىء بقضاء وقدر ، وتقول طائفة أخرى : كل شىء بقضاء وقدر إلا المعاصى ، ويندد الجاحظ بمن ذهب إلى أن الإيمان والكفر مخلوقان فى الإنسان مثل العمى والبصر ، وأن الله يعذب الأبناء ليغيظ الآباء (١) .

٩ — الأجسام طبائع وأفعال مخصوصة بها ، فالجاحظ يثبت الطبائع الأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة (٢) .

١٠ — محال أن يعدم الله الأجسام بعد وجودها ، وإن أوجدها بعد عدمها ، ولا يمكن ألبتة إفناؤها إلا أن يرققها ، ويفرق أجزاءها فقط ، فالأعراض تتبدل ، والجواهر يستحيل عليها الفناء ، والقول ببقاء المادة وعدم تلاشيها مذهب علمى معروف ، وهو - وإن كان العصر الحاضر ينسبه لعلماء الغرب - مذهب قديم سبق إليه الجاحظ كما رأينا .

١١ — ومذهب الجاحظ مذهب الفلاسفة فى نفى الصفات . . . وفى إثبات القدر خيره وشره من العبد يذهب فيه مذهب المعتزلة (٣) .

---

(١) ٢٩٧ رسائل الجاحظ

(٢) ٥٢ الملل والنحل للشهرستانى

(٣) ٢ : ٣٢٢ أمراء البيان

— ٣ —

ويزعم ابن الراوندى فى كتابه «فضيحــــة المعتزلة» أن الجاحظ كان يقول : ومتى استحال أن يعدم الجسم بعد وجوده استحال أيضا وجوده بعد عدمه .

ورد عليه الخياط فى كتابه «الانتصار»، فقال : وهذا كذب عظيم على الجاحظ ، فهل وجد هذا القول فى كتاب من كتبه فإن كتبه مشهورة ، أو هل حكاه عنه أحد من أصحابه . فإذا كان الرجل ميتا فكتبه وأصحابه يخبران بخلاف ما قرف به ، وبعد فمن قرأ كتاب الجاحظ فى الرد على المشبهة ، وكتابه فى الأخبار وإثبات النبوة وكتابه فى نظم القرآن . علم أن له فى الإسلام غناء عظيما . . .

وروى المقريزى (٧٦٩ — ٨٤٠ ه) نقلا عن الشهرستانى نقلا عن ابن الراوندى أن الجاحظ كان يذهب إلى أن القرآن المــــنزل من قبيل الأجساد . . وهذا أيضا لم يثبت عن الجاحظ ولا جاء فى كتبه ولا نقله عنه تلاميذه ، ولم يذكره الخياط فيما ذكر من مطاعن ابن الراوندى (٢٩٨ ه) فى المعتزلة عامة وفى الجاحظ من بينهم(١) خاصة ، ولم يذكره كذلك الأشعرى فى كتابه «مقالات الإسلاميين» الذى ذكر فيه آراء المعتزلة ومذاهبهم ، ولم يذكره خصوم المعتزلة الآخرون من أمثـــال ابن قتيبة (٢٧٦ ه) والبغدادى (٤٢٩ ه) وابن حزم وسواهم .

---

(١) ١٥٤ - ١٥٦ الانتصار

— ٤ —

ويذهب الجاحظ إلى عدم إمكان رؤية الجن ، وتأول أحاديث ورد فيها رؤيتهم ، واستهزأ بمن يعتقدها على ظاهرها (١) ، وهو رأى النظام (٢) ، وأنكر انشقاق القمر وقال إنه لم يتواتر الخبر به (٣) ، وهو صدى لرأى النظام أيضا (٤) ، الذى ذهب إلى أنه سيقع يوم القيامة .

وقد نفى الجاحظ العصمة عن الأنبياء ، وخالف بذلك أكثر المعتزلة الذين يقولون « إن ذنوب الأنبياء خطأ من جهة التأول والاجتهاد أو السهو، ولا يجوز لهم أن يفعلوا قصدا ما علموا أنه ذنب (٥) .

---

(١) ١ : ١٤٥ الحيوان

(٢) ٦ : ٧٧ الحيوان ، وكذلك أنكر الجاحظ استراق الشياطين للسمع (٦ : ٤٩٦ الحيوان) .

(٣) ٢ : ٤١٥ أمراء البيان

(٤) ٣ : ٨٦ ضحى الإسلام

(٥) ١٤٥ المعتزلة لزهدي جار الله

الفصل الثالث

مكانة الجاحظ بين المعتزلة

— ١ —

تأثر الجاحظ بأستاذه النظام ، فكان نتاجاً له ، وصورة من صورة فى البلاغة والمنطق ، وفى منهج البحث ، وفى سعة الاطلاع ، وفى تحرير العقل ، وفى الإيمان بمبدأى الشك والتجربة قبل اليقين والاعتقاد ؛ وقد يكون الجاحظ لا يعادل بالنظام فى حدة الذهن ولا فى الجرأة ، ولكن ربما فاقه فى اطلاعه على الكتب المترجمة إلى العربية من الفارسية واليونانية ، بحكم تقدم الزمن ، وازدهار حركة الترجمة والتأليف ؛ ومع ذلك فقد كان لتحرره الفكرى يعارض النظام ، وألف كتابا فى الرد عليه . . ومات النظام شابا ، وعمر الجاحظ طويلا ، وعلا مجده ، وزاد نفوذه ؛ ورزقت كتبه الشهرة والذيوع ، بما أضفى عليها من فكره المتوهج الذكى ، وأسلوبه البليغ الفضفاض .

وعاش لسانا للمعتزلة ، مدافعا عنها ، مناصرا لها ، يوضح مشكلات مذاهبها الفكرية والروحية ، ويقف فى وجه من يتعرض للمذهب ورجاله ، ويدافع عن نظرية الحسن والقبح ، والتعديل والتجوير ، وخلق القرآن ، وألف كتابه « خلق القرآن » ، ونوه بالخلفاء العباسيين ، الذين حملوا فكرة

---

(١) راجع ص ١٤٩ و ٢٩٧ و ٢٩٨ رسائل الجاحظ ، من رسالته فى بنى أمية ، حيث يذكر الجاحظ توضيحا لفكرة « خلق القرآن » .

الاعتزال ، ودافعوا عنها ، ونشروها بنفوذهم وسلطانهم ، كالمأمون والمعتصم والواثق ، فيقول فى رسالته فى بنى أمية : « وقد كانت هذه الأمة لا تجاوز معاصيها الإثم والضلال ، حتى نجمت هذه النوابت ، وتابعتها هذه العوام ، فصار الغالب على هذا القرن الكفر وهو التشبيه والجبر ، وكانوا شركاء من كفر منهم بتوليهم وترك إكفارهم ؛ وأرجو أن يكون الله قد أغاث المحقين ورحمهم ، وقوى ضعفهم ، حتى صار ولاة أمورنا فى هذا الدهر الصعب أشد استبصارا فى التشبيه من عليتنا »(١) .

ويشرح الجاحظ تحدى الله بالقرآن ، ويرد على النظام فى نفى الاعجاز البيانى عنه(٢) ، ويتحدث عن خلق القرآن(٣) ، وعن امتحان أحمد بن حنبل وما حدث له فى هذا الامتحان أمام المعتصم من تعذيب ، وما دار معه من جدل (٤) .

وهكذا نجد الجاحظ قد ربى ونشأ فى الاعتزال ، وحضر مجالسه واستمع إلى المناقشات حوله ، واشترك فى جدال خصومه ، فعليه نشأ ، وعنه ناضل ، وله ألف ، وإن خالف أئمة المذهب فى مسائل تبعته فيها فرقة سميت « الجاحظية » .

— ٢ —

وكان (٥) الجاحظ لا يرى طريق النجاة للناس إلا إذا فهموا الإسلام

---

(١) ٢٩٩ رسائل الجاحظ

(٢) ١٤٣ - ١٤٥ المرجع ، إلا أن الجاحظ يذكر فى الحيوان صرف الله نفوس العرب عن معارضة القرآن وكأنه مذهب له (٤ : ٨٩ الحيوان)

(٣) ١٤٩ المرجع

(٤) ١٥٠ - ١٥٢ المرجع

(٥) ٢ : ٢٥٢ أمراء البيان

على حقيقته ، وكانوا مع المذهب الاعتزالى فى جملته وتفصيله ، وفى قوته وذياده عن الدين . وكان حربا عوانا على المخالفين والملحدين والكافرين ، وعلى الفرق الضالة من رافضة ومشبهة ومجسمة وغيرها ؛ فرد على المشبهة وعلى الجهمية ، وعلى الرافضة ؛ وكذلك رد على الزنادقة والمانوية والمرتدة ، وعلى الشعوبية (١) ، وغيرهم ، ورده على من ألحد فى كتاب الله ، ورده على بصيرة غنام المرتد ، معروفان ، وهكذا لم يقصر أبو عثمان فى واجب الدفاع عن الدين ، ونضال أعدائه ؛ ومن عجب أن ينكر خصوم المعتزلة والجاحظ من بينهم فضله (٢) ، ويرموه بالإلحاد والزندقة ؛ وقد ترفع الجاحظ عن مجادلتهم وحجاجهم .

إن ظهور الجاحظ فى عصر انثالت فيه الفرق والمذاهب والآراء على العالم الإسلامى ، كان فضلا من الله وخيراً كثيرا ، فقد دافع عن الإسلام ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وخاصم آراء الفرق الضالة ، وجادل أهل الكتاب بالحسنى ، من يهود ونصارى (٣) ، منوها بالنصارى ذاكرا أن فيهم أطباء ومنجمين وأهل صناعات ومتكلمين وفلاسفة حكماء وكتابا وتجارا ، ومزريا باليهود وكسلهم وحقارتهم وجهلهم .

جادل الجاحظ كما رأينا كل الفرق المنحرفة ، وأطال فى حجاج الزنادقة (٤) ؛

---

(١) راجع ٣ : ٦ البيان

(٢) يعرض الجاحظ فى صدر كتاب « الحيوان » لآراء خصومه ، ممن حشروه مع الناصبة والضرارية وغيرهما من الفرق الضالة (١ : ١١ الحيوان) .

(٣) وله كتاب « الرد على النصارى » وكتاب « حجج النصارى على المسلمين » وقد ألف الكتاب الأول استجابة لرغبة الوزير الفتح بن خاقان .

(٤) فى الحيوان (٤ : ٤٤٧) يذكر جماعات من الزنادقة ، ومنهم حماد عجرد (١٦١ هـ) ، ويونس بن هارون الذى كتب كتابا لملك الروم فى =

ونفى أن يكون عندهم إلمام بفلسفة أو حكمة غريبة أوصنعة أدب أو تعريف بصناعة (١) ، وجل ما فى كتبهم ذكر النور والظلمة ، كما أطال فى الجدل مع الدهريين ممن « ينفى الرب ، ويحيل الأمر والنهى ، وينكر جوانب الرسالة ، ويجعل الطينة قديمة ، ويجحد الثواب والعقاب ، ولا يعرف الحلال والحرام » ؛ وكذلك كان موقفه مع المانويين أتباع مانى ، الذين قالوا بمبدأين فى العالم ، مبدأ الخير ومبدأ الشر ، ومع المجوسيين(٢) ممن جعلوا أصل العالم النور والظلمة وقالوا إن النور أزلى والظلمة محدثة .

ورأى الجاحظ معاملة العابثين بالأديان بالصرامة والقسوة فقال : « من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل فى مواضع القتل ، وأحيا فى مواضع الأحياء ، وعاقب فى موضع العقوبة ، خالف الرب فى تدبيره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه » .

وهكذا شرع الجاحظ المعتزلى يراعه البليغ فى الرد على خصوم الدين ، وأصحاب الآراء الضارة ، وكل مذهب هدام . . بل لقد كان يرد على كل قول لايخالفه الصواب والحكمة ، ولو صدر من مسلم ، سمع من شيخ من شيوخ البصريين أن الله تعالى جعل نبيه أميا لا يكتب ، لينفرد بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ، وبقصره على معرفة مصالح الدين ، وليجعله نبيا ويتولى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى ، فإنما نقصه ليزيده ، ومنعه ليعطيه ؛

= مثالب العرب (٤ : ٤٤٨ حيوان أيضا) وممن قتل بتهمة الزندقة بشار وصالح ابن عبد القدوس (١٦٧ هـ) .

(١) ١ : ٥٦ « الحيوان » ، والزنادقة هم فرقة الديصانية نسبة إلى السريانى بارديصانص ، وكان يرى الجاحظ قتلهم ، فقد أجمعوا على أن قتل البعض إحياء للجميع كما يقول الجاحظ .

(٢) راجع ٥ : ٩٨ الحيوان

ولم يرض الجاحظ بهذا القول فقال : وقد أخطأ هذا الشيخ ، ولم يرد إلا الخير ، وقال بمبلغ علمه ، ومنتهى رأيه ؛ ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة وأداة قرض الشعر كانت فيه تامة وافرة ، مجتمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة ، وأشبه بمرتبة الرسالة ، لما كان ذلك مانعا من وجوب تصديقه(١) .

وهكذا كان الجاحظ قوة متدفقة قوية فى الدفاع عن الدين ، وفى دفع خصومه عن حياضه ، وفى رد الآراء الخاطئة ، وتصحيح الأفهام فى كل ما يتصل بالإسلام ، حتى لقد ندد بتقصير السلف فى جمع سيرة الرسول وعلاماته وبرهانه ودلائله وآياته وصنوف بدائعه وأنواع عجائبه فى مقامه وظعنه (٢) .

— ٣ —

وكان الجاحظ يميل إلى استخدام العقل والاعتماد عليه فى تفسير كتاب الله (٣) ، ويخاصم من يفسر كلام الله على ظاهر معناه ، فالعقل الصحيح عنده أساس من أسس التشريع ، ووضعه فى شكل غير الشكل الذى يوضع عادة وهو القياس المقيد فى عرف الفقهاء (٤) ، وكان ينقد المفسرين ، لأنهم يميلون إلى الغريب من الألفاظ والأخبار والروايات من غير تمحيص ، ولذلك دعا إلى تحكيم العقل فى الروايات فيما يعرض له من التفسير وكذلك الحديث ، ويقف لتفهم العلل ، ويرجع إلى المعقول وطبائع الأشياء ؛ وقد هاجم رجال الحديث ، ورماهم بالقصور ، ووصفهم بأنهم

(١) البيان الجزء الثالث ص ٢٢٤

(٢) ٢ : ٣٥٣ أمراء البيان ، ورسالة الجاحظ حجج النبوة من مجموعة رسائل الجاحظ .

(٣) ٢ : ١٤٨ ضحى الإسلام

(٤) ٣ : ١٣٩ المرجع

جماعون لا يعملون عقولهم فيما يروون(١) ، وكذلك كان النظام الذى هاجم المحدثين ، وحكم العقل فى الحديث (٢) ، ويقول : « العجب من ترك الفقهاء تمييز الآثار ، وترك المتكلمين القول فى تصحيح الأخبار ، والحجة حجتان : عيان ظاهر ، وخبر قاهر ، فإذا تكلمنا عن العيان وما يفرع منه ، فلا بد من التعارف فى أصله والتعارف فى فرعه ، فالعقل هو المستدل ، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله ، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل . . والعقل نوع واحد ، والدليل نوعان : شاهد عيان يدل على غائب ، ومجيء خبر يدل على صدق (٣) .

والمعتزلة يتشددون فى الحديث وروايته وتأويله ، ويردون كثيرا مما لم يثبت من طرق موثوق بصحتها، ويسمون المكثرين منه على علاته «الحشوية» ، ومن ثم لم يقبل الجاحظ أن يكون كحاطب ليل فما كان من الأحاديث مرضى الإسناد(٤) صحيح المخرج قبله ، وما كان مسخوط الإسناد فاسد المخرج نبذه ، وهذا أثر من آثار مذهب المعتزلة الذين لا يقبلون كل ما يروى ، وكان الزهرى من قبل وكذلك مالك بن أنس ينقدان الإكثار من الحديث ، وكان أحمد بن حنبل يشك فى روايات المفسرين ، ويرى أنها ـ كالملاحم والمغازى ـ ليس لها أصل .

وقد كانت البصرة تحفل بكثير من المحدثين فى عصر الجاحظ ، وفى مقدمتهم : حماد بن زيد بن زيد بن درهم الأزدى إمام أهل البصرة (١٧٩هـ) ، وعوانة بن الحكم (١٥٨ هـ) ، وابن أبى ذئب (٨٠ ـ ١٥٩ هـ) ، وشعبة

---

(١) ١ : ١٦٦ الحيوان

(٢) ٣ : ١٦٦ ضحى الإسلام

(٣) ١١٧ رسائل الجاحظ من رسالته « حجج النبوة »

(٤) وذلك ينفى ماورد عن أبى العيناء من أنه هو والجاحظ وضعا حديث فدك (٥ : ٣٤٤ لسان الميزان) .

شيخ البصرة (١٦٠ هـ) ، وحماد بن سلمة (١٦٧ هـ) ، ومعتمر بن سليمان (١٨٧ هـ) وسواهم من أعلام الحديث فى عصره ، فى البصرة وغير البصرة ؛ ممن أخذ الجاحظ عنهم ، وفى تاريخ بغداد أن الجاحظ حدث ابن أبى داود بأحاديث (١) .

ومذهب الجاحظ فى تكريم العقل هو مذهب المعتزلة ، الذين مجدوا العقل ، وبالغوا فى تمجيده ، ومن ثم كان فى تفسيره للقرآن يعتمد على المعقول أكثر مما يعتمد على المنقول ، وقد نقد القصاص والمحدثين ، والمفسرين والفقهاء والعلماء والإخباريين ، ونقد الرواية الأدبية والتاريخية ، ونقد الشعر والشعراء ، وأبدى آراءه فى البيان والبلاغة وفى الكثير من المشاكل والمسائل ، وحكم فى كل ذلك ذوقه العلمى ، وعقله المنطق ، واستشار فيه فكره ، ورجع إلى حكم عقله ؛ بل لقد نقد المتكلمين والفلاسفة ، فنقد « النظام » وألف كتابا فى الرد عليه ، وقال فيه مرة : لا رحم الله النظام ولا من قال بقوله ؛ ونقد الكندى الفيلسوف فى بعض آرائه ، ونقد الكثير من المذاهب والفرق والآراء ، ونقد أرسطو فى كتابه « الحيوان » ، حيث كان ينقل آراءه ؛ ويعلق على بعضها بقوله : « هذا غريب » ، أو بقوله « ولم أفهم هذا ، ولم كان ذلك (٢) » ؟ !

وهكذا نقد بعقله كل مالا يستساغ من رواية أو رأى أو حكم ، وتراه يتهكم بقول ابن حائط وأناس من جهال الصوفية « إن فى النحل أنبياء لقوله تعالى : وأوحى ربك إلى النحل » (٣) . . . ولقد نقل الجاحظ وإخوانه

---

(١) راجع الجزء الثانى عشر ترجمة الجاحظ ، ٢٤ أدب الجاحظ للسندوبى .

(٢) راجع ٣ : ١٦٢ ، ٤ : ١١ و ٧٦ الحيوان

(٣) ٥ : ٤٢٤ الحيوان

المعتزليون العلوم الإسلامية إلى مجموعة من القضايا العقلية ، والبراهين المنطقية .

وقال الجاحظ كذلك بحرية الإرادة ، وغـــلا فيها أمام قوم سلبوا الإنسان إرادته ، وجعلوه كالريشة فى مهب الريح .

ويهزأ الجاحظ بقول بعض المفسرين : إن السنور خلق من عطسة الأسد ، وإن الخنزير خلق من سلحة الفيل(١) ، وبتفسيرهم لرءوس الشياطين فى قوله تعالى : « طلعها كأنه رءوس الشياطين » ـ بأنها ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن ، ويرى أن المتكلمين لا يعرفون هذا التفسير وأن الله عز وجل ما عنى إلا شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم لأن مخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة (٢) .

وينكر الجاحظ الأوهام الشائعة من أن عند الجن والشياطين شيئا من علم الغيب (٣) ، إنكاره لإمكان رؤيتهم أو سماع صوتهم(٤) ، ويتهكم بخرافة الحوت الذى يحمل الأرض (٥) .

ومن نقد الجاحظ التاريخى تحقيقه لرواية فى السيرة ، رد فيها نسب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصواب ، حيث أثبت عدم صحة زواج كنانة بزوج أبيه النضر ، وكان شرع الجاهليين يجيز ذلك ، أى زواج الابن بزوج أبيه إذا كان الابن ليس منها .

---

(١) ٥ : ٣٤٧ الحيوان .

(٢) ٤ : ٤٠ و ٦ : ٢١١ الحيوان

(٣) ٤ : ٩٢ المرجع .

(٤) ٦ : ٤٨ المرجع .

(٥) ٧ : ١٠٩ و ١١٠ المرجع

وقد استهزأ الجاحظ بما روى من أن الحجر الأسود كان أبيض فسوده المشركون ، فقال : كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا (١) .

وكان ـ كبقية المعتزلة ـ ينقدون الصحابة والتابعين بحرية تامة (٢) .

وهكذا نجد الجاحظ يتبع آثار العقل وحكمه ، ويقف من القصاص في التفسير والرواية في الحديث موقف الناقد المنصف ، والمتثبت الحصيف .

إن الجاحظ في جملة الأمر كان أبلغ لسان في المعتزلة ، وشيخا من شيوخهم ، وإماما من أئمتهم ، وهو فيهم واسطة العقد ، وسوف يظل اسمه فيهم خالدا ، ومكانته بينهم رفيعة جليلة . .

— ٤ —

وثقافة الجاحظ الاعتزالية ظهر أثرها في كتبه وآرائه ، فهو من جانب يحكي آراء المعتزلة ومذاهبهم ، وهو من جانب آخر يذكر أعلامهم ، ويروى لهم ، وينقل عنهم ، ويعتد بأحكامهم على الأمور والأشياء .

وقد غلب على الجاحظ أمران : الكلام على طريقة المعتزلة ، والأدب ممزوجا بالفلسفة والفكاهة (٣) .

ومن أجل ذلك كان للجاحظ على الأدب والفلسفة فضل يعتد به . ففي الأدب أغزر معانيه ، وجعل له موضوعا بعد أن كان ليس ذا موضوع ، ورسائله ناصعة الأسلوب ، غزيرة المعاني ، لها موضوع ولها شكل ، واحدة في المعلمين ، وأخرى في التجار ، وثالثة في القيان ، ورابعة في الغناء ، وخامسة

---

(١) ٧٢ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .
(٢) ٣ : ٨٨ ضحى الإسلام .
(٣) ١ : ٤٢٢ عصر المأمون .

فى الفكاهة والسخرية اتخذهما موضوعا علميا لرسالته « التربيع والتدوير » التى تضمنت الكثير من المسائل العلمية والعقلية والفلسفية والأدبية ، مما كان يشغل أذهان الناس فى عصر الجاحظ ؛ وهكذا أغنى الأدب من حيث المعانى ، وقوة العقل ، وسعة الذهن ، وتوليد الأفكار العقلية ، والنظر إلى الكون والطبيعة ، وإجراء التجارب عليها وتبين دلائل القدرة فيها .

وقد غاص أبو عثمان فى المعانى غوصا ، ونقل الأدب من لفظ رشيق إلى معنى عميق ، ومن عبارات مجملة منمقة إلى موضوعات واسعة مسهبة ، وبعد أن كان الأدب ضحل الثقافة أصبح مظهرا لثقافة معقدة عميقة ؛ بل لقد وجه الذهن إلى وجهات لم تكن قبله ، كان النثر قبله خطباً ترصف فيها الجمل رصفا ، أو جملا حكمية ، أو أمثالا سائرة ، لكنه جعل الأدب كتبا ، كل كتاب يدور حول موضوع اجتماعى أو أدبى ، أو رسائل ، كل رسالة لها نواة تدور حولها ؛ وفى الفلسفة جهد الجاحظ فى صياغتها صياغة أدبية قريبة إلى الأذهان ، لا كما كان يفعل حنين وبختيشوع ، بل عمد إلى مزج كلام أرسطو بكلام البلغاء ، وأقوال الفلاسفة بأشعار الشعراء وأدب الأدباء .

كان من الأعلام القليلين الذين لهم أثر كبير فى الدين وفى الكلام وفى الأدب ؛ ورزق الحظوة فى أسلوبه ، فكان سهلا عذبا رصينا فكها ، يتتبع المعنى ويقلبه على مختلف وجوهه ، ولا يزال يولده ، حتى لا يترك فيه قولا لقائل ؛ فلما استعمل أسلوبه هذا فى الاعتزال وفى المسائل الدينية قربها إلى عقول الناس وأذهانهم ، من حيث كانت قبله مركزة غامضة ، لا يدركها إلا الخاصة ، فجلى بأسلوبه غامضها ، وأوسع ضيقها ، وقربها إلى كل ذهن ، فاتسعت دائرة المعارف ، ووصلت به إلى عقول لم تكن تسيغ أقوال الفلاسفة والمتكلمين ، وأقنع أفهام قوم لم يكن يقنعهم القول الموجز والتعبير المجمل .

وعلى الجملة فإن أبا عثمان كان مظهر المعتزلة ، المحيط بأدبهم ، الناشر لآرائهم ، المجلى لأفكارهم ، مع أنه زاد عليها من أفكاره ، وجلاها بروائع أساليبه .

ولقد احتل منزلة كبيرة بين أئمة المعتزلة ، وأورثه الاعتزال قوة فى الحجاج ، وسعة وتنوعا فى الثقافة ، وأكسب أدبه العمق والقوة ، وفلسفته الذيوع والانتشار .

إن الجاحظ فريد فى هذا الباب ، بل هو نسيج وحده . وكتبه تدل عليه ، وآراؤه ترشد إليه ، وما بالك بسيف هذا أثره ، وبحجر هذا شرره ؟

البَابُ السَّادِسُ

الجـــاحظ العـالم

الفصل الأول

المعلم الأول للعقل العربى

— ١ —

كان الجاحظ من الجانب العلمى رفيع المنزلة بين علماء عصره ، عظيم المكانة بين المفكرين العلميين فى زمنه ؛ وقد أعلى مكانته فى الفكر العلمى فى القرن الثالث الهجرى سعة ثقافته وتنوعها وإحاطته بثقافات الأمم المترجمة حتى كان أوسع أهل زمانه ثقافة (١) ، ولم تقف معارفه عند المنقول ، بل تعدتها إلى الأخذ من كل معقول . هذا مع تأثره بالمعتزلة عامة وبالنظام خاصة مع طول سنه وكثرة تجاربه ، ورحلاته فى البلاد ، وكثرة ملاقاته للعلماء ، ومحادثته للخبراء وذوى التجربة .. مع ازدهار الثقافة فى عصره ، وتشجيع الخلفاء وكبار رجال الخلافة له ، فكان عالما فوق العلماء ونظاراً محققا يدرس الأشياء ويقتلها بحثا ودراسة وتنقيباً .

كان منهاجه فى العلم واسعا ، وهو فى كل ماخاض عبابه إخصائى ماهر ومتعمق بارع ، يتناول كل مايقع عليه الحس ، وتنظره العين ، وتتشوف إليه النفس ؛ ولم يكن نظره فى كل ما كان يعانيه النظر المجرد ، بل نظر الفلسفة التى صححتها التجربة ، وأبرزها الامتحان ، وكشف عن قناعها البرهان ؛ لاتراه وهو يفكر فيجيد التفكير ، ويبحث فيكشف عن الحقائق ، إلا داعيا إلى استعمال العقل ، وتجويد الفكر ، لأنه مع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة وفى التفكير شحذ الأذهان ، وتنبيه لذوى الفعلة ، وتحليل لعقدة البلادة ، وسبب لاعتياد الروية ، كما يقول الجاحظ .

---

(١) ٣ : ١٣١ ضحى الإسلام

وكان الجاحظ كما يقول عن بعض أهل العلم :

ولعل الجاحظ كان يعنى بذلك نفسه «حدثنى بعض أهل العلم ، ممن طال ثراؤه فى أرض الجزيرة ، وكان صاحب أخبار وتجربة ، وكان كلفا بحب التبيين ، معترضا الأمور ، يحب أن يفضى إلى حقائقها وتثبيت أعيانها بعللها وتمييز أجناسها ، وتعرف مقادير قواها ، وتصرف أعمالها ، وتنقل حالاتها وكان يعرف للعلم قدره »(١) .

وكان يجرى على أسلوب الفلاسفة والمنطقيين والعلماء والمتكلمين فى قياسه يقول : وينظروا فى العلة التى اضطرتنا إلى هذا القول ، فإن كانت صحيحة فالصحيح لا يوجب إلا هذا الصحيح(٢) .

ولم يقتصر الجاحظ على ذكر البراهين النظرية ، بل استعان بالشعر والتاريخ ، وبما يعرف من أحداث ، وما جرب هو نفسه من تجارب ؛ ومزج ما تعلم بما قرأ بما سمع بما شاهد بما جرب ؛ كما مزج الشعر بعلم أرسطو بطب جالينوس ، ومزج أقوال البلغاء بآراء الطبيعيين والدهريين بالنصرانية واليهودية والمانويين والزرادشتيين ، وهذا كله مزاج عسير الهضم ، لولا ما خطر فيه من أسلوب سمح فضفاض ، ونفس مرحة(٣) .

وكان عقل الجاحظ قويا قل أن يقبل الأوهام ، بل يهزأ بمن يقبلها ، يعتمد على التجربة ويبنى على ضوئها أحكامه ، ويشك ويدعو إلى الشك حتى تثبت النظرية ، ويستغرب الإنسان اليوم من صحة منطقه ، وسبقه إلى نظرات فى منهج البحث لم تعرف إلا فى العصر الحديث ، كما أنه سبق إلى اتجاهات قيمة فى سيكولوجية الحيوان ، فهو يراقب نداء الديك بالليل ، ويبحث :

---

(١) ٤ : ٥١ الحيوان
(٢) ٤ : ٩٢ الحيوان
(٣) ١ : ٤١١ ضحى الإسلام

هل إذا كان فى قرية وحده يصيح أولا ، ليعلم هل تصيح الديكة بالتجارب أو بطبعها ، ويراقب الدجاج : هل تـكثر أفراخها إذا كثر عديدها أو تقل ويلاحظ الكلب ملاحظة دقيقة ليعلم مقدار ذكائه ، ووجوه تنبهه ، والفروق الدقيقة بين أصنافها ؛ إلى كثير من أشباه ذلك(١) .

— ٢ —

وأساس البحث العلمى هو سلطان العقل ، وقد استفاد الجاحظ من المعتزلة والنظام القول بسلطان العقل(٢) ، يقول(٣) : « أكثر الناس سماعا أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكرا ، وأكثرهم تفكرا أكثرهم علما ، وأكثرهم علما أرجحهم عملا ، كما أن أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب » .

واعتز الجاحظ بجودة العقل والمعرفة ؛ ومن ثم حذر من اغترار الإنسان بما ألف ، وبما يعرض لقلبه بادىء الرأى ورأى الناس يحتاجون إلى طبيعة ثم إلى معرفة ، ثم إلى إنصاف بأن لا يعطى نفسه فوق حقها ، وأن لا يضعها دون مكانها ، وأن يتحفظ من شيئين ، فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفظ منهما : أحدهما تهمة الإلف ، والآخر تهمة السابق إلى القلب . .

وبهذا ينادى الجاحظ إلى وجوب تحرر العالم من المألوف ومن المعرفة الأولى أثناء بحثه ومحاولته الوصول إلى الحقائق ؛ ويقول الجاحظ : إذا سمعت الرجل يقول « ماترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح(٤) وهو بهذا يفتح باب التجديد واسعا على مصراعيه أمام أى باحث وعالم ؛

---

(١) ١ : ٤٢٠ المرجع (٢) ٣ : ١٢٩ المرجع

(٣) ٢ : ٣٩٠ أمراء البيان

(٤) ٢ : ٩ البيان ، ويقول الجاحظ كذلك ، ومن أضر ذلك قولهم « لم يدع الأول للآخر شيئا ، فلو أن كل علماء كل عصر مذجرات هذه الكلمة فى أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا .

ويقول فى ترك الاعتماد على أحكام الحواس وحدها دون محاولة الإفادة من حكم العقل ، فيقول : « لعمرى إن العيون لتخطىء ، تذهب إلى ماتريك العين ، واذهب إلى مايريك العقل ، والأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة (١) ؛ ويقول فى ذلك أيضا : لعمرى إن العيون لتخطىء وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، إذ كان زماما على الأعضاء ، وعيارا على الحواس .

ودعا الجاحـــظ إلى التفكر ، وإلى الملاحظة قائلا : « لاتشفينى إلا الملاحظة » ، وكرر الدعوة إلى عدم الاغترار بما ألفته النفس وسمعته ، وألا تهوى الغرائب إلا بامتحانها والنظر فيها ، كما دعا إلى محبة التكشيف والتنقيب .

وحذر من ترك التمييز اغترارا بالظهور بمظهر التجديد ، تحذيره من تحريف المحترفين من العوام ، والمضللين ممن كان بسبيلهم من الخواص ، لأن فى الخواص دجالين أيضا ، من « لايدينون بالحقيقة ، ولايحمدون إلا ظاهر الحيلة » ورأى فى بعض الخواص أضر على سير العقل من العوام . ولطالما حزت بلاهة الخواص فى قلبه ، وهو لايبرح يهزأ بهم ، ويبين خفايا الضعيف والمنحول من رواياتهم ، وعلل التخريف فى الناس بحكم التقليد والعادة ، داعيا إلى ترك سبيل المقلدين ، وإلى النظر بالعقل والتثبت من الأخبار(٢) .

وعقل الجاحظ العلمى لم يكن يستسيغ الأساطير والخرافات ، فهزأ بالشائع من الخرافات فى عصره(٣) ، وبروايات العرب عن السعالى وأولاد

---

(١) ١ : ٢٠٧ الحيوان

(٢) ٢ : ٣٩٥ أمراء البيان

(٣) ١ : ٨٧ الحيوان

السعالى من البشر ، وبما روى من الشعر فى رؤية الجن وأحاديثهم ، وينقد العلماء من مثل أبى زيد الأنصارى فى أنه يروى هذه الأمور(١) ولا ينقدها ؛ ويقول إنه أمين ثقة ، ولكن ينقصه النقد لمثل هذه الأخبار(٢) ، والجاحظ يذهب فى ذلك مذهب أستاذه النظام الذى أنكر ماروى فى الشعر من أحاديث عن الجن وعن سماع أصواتهم ، وعلل له تعليلا سيكولوجيا فلسفيا دقيقا(٣) وهذا كله دعم لرأى المعتزلة الذين ذهبوا إلى عدم رؤية الجن ، وقرروا أن طبيعتهم لا تمكن الإنس من رؤيتهم(٤) .

وذلك أن المعتزلة ينكرون قدرة الناس على رؤية الجن بدليل قوله تعالى : (إنه يراكم هو وقبيلة من حيث لاترونهم)(٥) ، وقد تأول الجاحظ أحاديث ورد فيها رؤية الشياطين ، واستهزأ بمن اعتقدها على ظاهرها(٦) ، وقال : « ليس من الناس من رأى شيطانا قط على صورته » .

ومع اعتقاد الجاحظ بما يكشفه العقل من حقائق الكون ، لم يتجاوز إلى أكثر مما كتب له إدراكه ، قال(٧) : « ولو وقفت على جناح بعوضة وقفة معتبر ، وتأملته تأمل متفكر ، بعد أن تكون ثاقب النظر ، سليم الآلة ، غواصا على المعانى لايعتريك من الخواطر إلا على حسب عقلك »..« والإنسان وإن أضيف إلى الكمال ، وعرف بالبلاغة وناقش العلماء فإنه لا يكمل أن يحيط علمه بكل مافى جناح بعوضة أيام الدنيا ، ولو استمد بكل نظار عظيم ، واستعان بكل بحاث داع وكل نقاب فى البلاد ، ودراسة للكتب ... »(٨) ، ويقول الجاحظ : إن الخطأ كثير غامر ومستول غالب ، والصواب قليل خاص ومقموع مستخف .

(١) وذلك فى مقدمة كتابه « جمهرة أشعار العرب »

(٢) ١ : ٨٦ الحيوان

(٣) ٦ : ٧٧ الحيوان

(٤) ٣ : ١١٦ ضحى الاسلام

(٥) راجع ٣ : ٨٧ المرجع

(٦) ١ : ١٤٥ الحيوان

(٧) ١ : ٢٠٨ الحيوان

(٨) ٢ : ٣٩٢ أمراء البيان

الفصل الثانى

مذهب الجاحظ العلمى

— ١ —

يقوم المذهب العلمى الحديث على أسس مقررة هى :

١ — الإقبال على البحث بروح علمى نزيه محايد مستعد لقبول الحق واعتقاده .

٢ — الشك فى الموضوع حتى تثبت صحته .

٣ — التجربة التى تبدأ بالملاحظة ثم الاستقراء ، ثم الموازنة والترتيب ثم الاستنباط ، القائم على المقدمات للوصول إلى النتيجة .

وهذا هو المنهج العلمى الذى ادعى بيكون أنه من ابتكاره ، وفى الواقع أنه كان فيه تلميذاً لعلماء المسلمين ، وخاصة النظام ، والجاحظ فى هذا المجال ، ولنتبع آراءهما فى هذا الميدان . . . لنرى كيف اهتدى علماؤنا إلى أحدث المناهج العلمية التى تسير عليها الجامعات اليوم فى الغرب والشرق .

— ٢ —

الشك والحياد الفكرى بدء الحركة فى العمل العلمى وكان النظام يقول : « الشاك أقرب إليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك[١] »

---

(١) الحيوان ٦ : ٣٦ .

وعلى ضوء هذه الفكرة سار الجاحظ الذى قال : « اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج إليه ، ثم اعلم أن الشك فى طبقات عند جميعهم ، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات فى القوة والضعف » ولما قال أبو الجهم للمكى : أنا لا أكاد أشك ، قال المكى : وأنا لا أكاد أوقن ، ففخر عليه المكى بالشك فى مواضع الشك ، كما فخر عليه أبو الجهم باليقين فى مواضع اليقين (١) ، وقال النظام : نازعت من الملحدين الشاك والجاحد ، فوجدت الشاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود ، والشاك أقرب إليك من الجاحد ، والعوام أقل شكوكا من الخواص (٢) .

وقد شك الجاحظ فى كل خبر تناقض واستحال(٣) ، وفيما امتنع على الطبيعة وخرج من طاقة الخلقة(٤) ، وقرر أنه إذا خرج الخبر من هذين البابين ، وجرى عليه حكم الجواز ، فالتدبير فى ذلك التثبت ، وأن يكون الحق فى ذلك ضالتك ، والصدق هو بغيتك ، كائنا ما كان ، وقع منك بالموافقة أم وقع منك بالمكروه (٥) ، وكذلك شك فى كثير مما ليس يمتنع فى القدرة أو الطبيعة (٦) ، وقال : كل قول يكذبه العيان فهو أفحش

---

(١) ٦ : ٣٥ الحيوان .

(٢) ٦ : ٣٦ الحيوان .

(٣) ٣ : ٢٣٨ و ٢٣٩ الحيوان .

(٤) ٦ : ٣٤ المرجع ، وأوجب معرفة الفرق بين المحال والممتنع ومايستحيل كونه من الله ومايستحيل كونه من الخلق (٣ : ٢٧٤ الحيوان) .

(٥) ٣ : ٢٣٩ المرجع .

(٦) ٣ : ٣٦١ ، ٧ : ١٢٥ الحيوان .

خطأ (١) ، والجاحظ لا يميل إلى الظن والحدس ، بل يميل إلى أن يكون ظنه أقرب إلى الحقيقة بل هو الحقيقة (٢) .

وقد تابع العلماء المسلمون النظام والجاحظ فى هذه السبيل ، كابن رشد والغزالى وغيرهما ، فالغزالى مثلا فى كتاب « المنقذ من الضلال » يقرر أنه لم يقتنع بالدين التقليدى ، واتجه إلى العلم بحقائق الأمور ، وبناء دينه على يقين ، ولذلك بدأ بالشك فى كل ذلك ، حتى يقوم البرهان على صحته ، وقال : كل ما أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لاثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى ؛ ومذهب ديكارت معروف لا داعى لتفصيل الكلام فيه .

وإذا كان النظام يعتبر الشك أساسا للبحث ، ويعمد إلى التجربة واستخدام المنطق فى البحث عن الحقائق ، فإن الجاحظ كان يجعل الشك سبيلا إلى اليقين ، وهو يضيف إلى الشك النقد العلمى ، فهو مغرم بالتنبيه - كما ذكرنا سابقا - على الخرافات ، والنيل من أصحابها ، فقال ينقد الكندى أستاذه النظام (٢٢١ هـ) ، كما نال من أرسطو من قبل (٣٢٢ ق م) وأخذ عليه أنه لم يعتمد فى تحقيقه على العيان والسماع والامتحان ، أى التجربة ، وأنه إذا تكلم فى بعض الأحيان على حيوان لا يستوفى عجائبه (٣) .

---

(١) ٣ : ٣٦١ المرجع .

(٢) راجع ١٥٢ - ١٥٨ النقد المنهجى عند العرب لداود سلوم .

(٣) وقد سبق أن أشرنا - فى ثقافة الجاحظ وما أخذه عن اليونانية - إلى بعض ما نقد فيه الجاحظ أرسطو . ومنه نقده لأرسطو فيما زعمه من أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الأسنان لطول مكثه فى بطنها ، ويقول الجاحظ فى هذا إن قلبى ليس يقبله ولست أثبت بإنكاره ، ونقده كذلك فيما ذكره من أن ثورا وثب بعد أن خصى على بقرة فأحبلها (٥ : ٥٠٢ ، ٥٠٣ الحيوان) =

— ٣ —

وأما التجربة أو الامتحان ـ كما يعبر الجاحظ أحيانا ـ فقد استخدمها الجاحظ استخداما بارعا عجيبا ، وكذلك كان أستاذه النظام (١) ، فهو يسقى الخمر للحيوانات ليرصد نتائج ذلك ، ويجرى تجارب على ذكر النعام ليعرف كيف يبتلع الجمر والحجارة المحماة والحديد والزجاج والمسامير وغيرها .

وكان الجاحظ يستند أبدا على التجربة والملاحظة ، وأن يرى الأمور مع عللها وبرهاناتها ، يلاحظ ويحس ويتدبر ؛ لا يمتهن شيئا فى الكون ، وإن كان ضئيلا (٢) .

كان الجاحظ يريد الناس أبداً أن يجربوا (٣) بأنفسهم ، فهو يذكر آراء العلماء فى أن عرق الخال أنزع من عرق العم وأن نصيب الأمهات فى الأولاد أكثر ، فيقول : إن أكثر ما تلد الأمهات الإناث ، فإذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأحص سكان عشر دور من يمينك ، وعشر من شمالك ، وعشر من خلفك وعشر من أمامك ، فانظر أيهما أكثر : رجالهم أم نساؤهم .

وكان الجاحظ يعمد فى التجربة إلى طرق مختلفة ، ويجمع إلى معونة

= وينقده كذلك فيما ذهب إليه من عقوق العقاب وجفائها بأولادها قائلا : « فأما أشعار العرب فهى تدل على خلاف ذلك (٧ : ٣٧ الحيوان) وينقده أيضا فيما زعمه من تولد كلاب من ثعالب وكلاب (١ : ١٨٤ و ١٨٥ و ١٩٠ الحيوان) .

(١) راجع ٢ : ٨٣ و ٣ : ١٣٩ و ٤ : ١٠٦ و ٦ : ١١ الحيوان .

(٢) يقول الجاحظ : « أوصيك ألا تحقر شيئا أبدا لصغر جثته ، واعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة . . . » (٣ : ٢٩٩ الحيوان) .

(٣) ١٥١ و ١٥٢ النقد المنهجى عند الجاحظ لداود سلوم .

الحس معونة العقل ؛ فيعتمد الحواس والعقل فى درك الأمور . فالعنصر الأول من عناصر تحقيقه التجريبى هو المعاينة . يضم إليها التجربة والفرض والمقابلة والتصنيف .

وللجاحظ الملاحظات الدقيقة ، والتوجيهات اللطيفة : حتى فى أدق الأمور ، فهو يتساءل : لم يناغى الطفل المصباح ، وهل تلك المناغاة نافعة له (١) ، ويبحث فى الألوان : هل أصلها السواد أو البياض ؟ وتختلف الألوان بقدر المزاج أولا ، وفى العلاقة بين البياض والضياء (٢) ، ويبحث عن سبب اختلاف ألوان النيران وألوان السحب (٣) ، وعن لغة الحيوان (٤) ؛ وعن العين وتأثيرها (٥) ؛ ويذكر آثار معركة بين جرذ وسنور (٦) ، ويصف برنية زجاج وضع فيها عشرون عقربا وعشرون فأرا ، وما فعلت العقارب فيها بالفيران (٧) .

ويقول : إن الناس تزعم أن الأفاعى تكره ريح السذاب والشيح ، وجرب الجاحظ ذلك بنفسه وقال : أما أنا فإنى ألقيت على رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها فلم أجد على ما قالوا دليلا (٨) .

---

(١) ٥ : ٤١ الحيوان .
(٢) راجع ٢٣٢ رسائل الجاحظ ، ٥ : ٦٠ الحيوان .
(٣) ٥ : ٢١ الحيوان .
(٤) ٥ : ٨٩ الحيوان .
(٥) ٢ : ٤٧ الحيوان .
(٦) ٥ : ٧٧ الحيوان .
(٧) ٥ : ٢٤٨ الحيوان .
(٨) ٥ : ٣٦٥ و ٦ : ١٣٣ الحيوان ، وراجع ٣ : ١٠٨ بروكلمان .

ومن استقراءاته قوله : إنهم أحصوا أصناف نخل البصرة أيام المعتصم وإذا بها ثلاثمائة وستون ضربا :

ويقول إن السمندل (١) لاتحترق له ريشة إذا أدخل أتون النار ويعلل ذلك بأن فى طباعه وطباع ريشه مزاجا من طلاء النفاطين (٢) ويقول : وكنت رأيت عودا يؤتى به من ناحية كرمان لايحترق ، وكان عندنا نصرانى فى عنقه صليب منه ، وكان يقول لضعفاء الناس : هذا العود من الخشبة التى صلب عليها المسيح والنار لاتعمل فيه ، فكان يكذب بذلك حتى فطن له . وعرض بهذا العود (٣) ، ويذكر عن ثمامة والمأمون أن الطحلب إذا جفف فى الظل وأحرق فإنه لا يحترق (٤) .

والجاحظ ينظر إلى الحيوان فى تولده ونشأته وموطنه وخصائصه وتربية صغاره وزقها وإطعامها من لبن أو لعاب أو غير ذلك ؛ ويعرف تأثره بالحر والبرد والشمس والظل ، وحذره من الآدميين ، إلى غير ذلك . وكان يتوفر على تربية بعض الأشجار والنبات ؛ توفره على تربية بعض الدواجن والحيوانات الأخرى ليصدر آراءه عن خبرة ، وحبه للطير ووصفه له موضع العجب والغرابة (٥) .

وقد روى الجاحظ تجارب كثيرة لغيره من معاصريه كالنظام ومحمد بن الجهم الذى أجرى تجربة علـى الذباب لمعرفة ما إذا كان يأكل البعوض أم لا (٦) .

---

(١) طائر كالفراشة يطير حول المصباح
(٢) ٥ : ٣٠٩ و ٦ : ٤٣٤ الحيوان
(٣) ٥ : ٣١٠ الحيوان
(٤) ٥ : ٣١٠ و ٦ : ٤٣٤ الحيوان
(٥) مجلة دعوة الحق ـ فبراير ١٩٦٤ ـ د ، زكى المحاسنى ـ مقال
(٦) ٣ : ٣٢٠ و ٣٢١ الحيوان

وكان الجاحظ ينقد الآراء الشائعة بعقله العلمى ، فهو لا يؤمن بقول الناس إن فى حمص طلسما يمنع العقارب من أن تعيش فيها ، ويعلل ذلك باحتمال وجود حيوان مضاد للعقرب يمنعها من أن تعيش فى هذا البلد ، ويهزأ بوجود طلسم يمنع البعوضة إذا عضت أن تكون لها حرقة ، ويكذب ذلك بأثر التجربة (١) ، وهكذا كان يذهب إلى التجربة فى الإنسان والحيوان والنبات ، ويفضلها على كل نقل . . ويأخذ نتائج تجارب الناس والخبراء ؛ فهو يسأل الجزارين ويصحح منهم أخبارا كاذبة شاعت عند الناس(٢) ، ويسأل الحوائين(٣) ويتهكم بقول من زعم أن الضبع تكون عاما ذكراً وعاما أنثى(٤) .

ويقول أناس من أهل البصرة : إن خاقان بن الأهتم استوفى فى بطن أمه ثلاثة عشر شهرا فيرد عليهم الجاحظ بأن هذا ليس بالمستنكر وإن كنت لم أر قط قابلة تقر بشىء من هذا الباب(٥) ؛ وكان الجاحظ — على غزير علمه وتوسعه فى البحث — يسأل جميع الناس عما يهمه ، وما يريد أن يتفهمه ، فهو يسترشد بآراء الحراس وأرباب الصناعات ، وقد يأخذ بآراء البحريين إذا رووا له غرائب يقبلها عقله ، وأخذ كذلك من الكتب المترجمة ما وافق عليه عقله ، ورد منها مالم يقبله ، وكل ما وصفه من أنواع الحيوان فقد نظر إليه بعين ثاقبة ، ووصفه وصفا دقيقا ، حتى لكأنه رآه المرة بعد المرة ، بل أجرى تجاربه عليه ، ودقق فيه ، ونظر ما قاله فيه من قبله(٦) .

---

(١) ٥ : ١٢٠ الحيوان
(٢) ٦ : ١٤٩ الحيوان
(٣) ٥ : ٨٠ الحيوان
(٤) ٧ : ١٦٨ الحيوان
(٥) ٧ : ١٢٥ الحيوان
(٦) ٢ : ٤٠٩ أمراء البيان

ويذكر الجاحظ خرافة العامة بالبصرة من أن تسافد الغربان هو تطاعمها بالمناقير، وأن لقاحها إنما يكون من ذلك الوجه، ويقول : ولم أر العلماء يعرفون هذا(١) .

ويذكر رأى العامة من أن «الجمل إذا نحر ومات فالتمسوا خصيته وشقشقته لم يجدوها» ويتشكك فى ذلك ، ثم استوثق بنفسه من أن ذلك من الخرافات(٢) .

وذكر الجاحظ الكثير من الأوهام الشائعة ، وصححها ووجهها ورد الناس فيها إلى العقل وإلى الصواب .

ومن استقرائه العلمى مالاحظه فى البصرة من أن بيادر التمر لاترى على شىء منها ذبابة لا ليلا ولا نهارا ، ولافى البرد ولا فى الحر ، من حيث يكثر الذباب خارج البصرة ويقع على كل شىء(٣) .

وقد وصف الجاحظ الأهواز وهواءها وتأثيره فى الطباع والأجسام ، وكذلك وصف تأثير الهواء فى الإنسان والحيوان فى حرة بنى سليم فى عالية نجد ، وقال بتأثير البيئة فى الكائنات الحية ، قال عن الأهواز إن كل من نزلها من بنى هاشم قد قلبتهم فى طباعهم وشمائلهم ، ولا بد أن يكون لوجه الهاشمى وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب ، فقد كانت البلدة تنقل ذلك ، فتبدله ، ولقد تحيفه وتدخل الضنى عليه ، فما ظنك بصنيعها بسائر الأجناس ؟ ولم أر بها وجنة حمراء لصبى ولا صبية ، ولا دما ظاهرا ، ولا قريبا من ذلك ، وهى قتالة للغرباء ، وحماها ليست للغريب بأسرع منها إلى القريب(٤) .

---

(١) ٣ : ١٧٧ الحيوان

(٢) ٦ : ١٤٩ الحيوان ، ٣ : ١٠٨ بروكلمان

(٣) ٥ : ٢٠٤ الحيوان (٤) ٤ : ١٤٠ الحيوان

وقال فى حرة بنى سليم : إنهم ليتخذون المماليك للرعى والسفر والمهنة والخدمة من الروميين والصقالبة مع نسائهم فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتى تقلبهم الحرة إلى ألوان بنى سليم ، ولقد بلغ من أمر هذه الحرة أن ظباءها ونعامها وذئابها وثعالبها وحميرها وخيلها وإبلها كلها سود ، والسواد والبياض هما من قبل خلقة البلدة وماطبع الله عليه الماء والتربة ، ومن قبل قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرها ولينها ، وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة(١) .

وبهذا ذهب الجاحظ إلى تطور الأحياء حسب البيئة وتعاقب الأيام ، ويعلل ذلك تعليلا مقبولا ،كما يعلل عذوبة المطر والثلج وملوحة مياه البحر بعلل معقولة .

إنه كان يذهب فى العلم وفى الدين وفى كل شىء مذهب العقل وصدق الحس لا يحكم غيرهما ولا يحكم بسواهما ، فتراه يشرح الصاعقة ويعلل لها تعليلا عقليا(٢) ، وتراه يجرى بنفسه تجارب فى شتى فنون العلم وخاصة مباحث الطبيعة والأحياء ، ولا يقتصر على مصادره العلمية وحدها .

ومما اهتدى إليه الجاحظ بعقله العلمى الحاد أن النمل تأخذ من الحب الذى تدخره للشتاء جزء الإنبات والتناسل لئلا يفسد ويتعفن ، وقد أعجب الباحثون بذلك ومنهم برادن(٣) ، وكان « بلينوس » قد اهتدى إلى ذلك من قبل ، ولكن أبا عثمان انما اهتدى إليها بتجربته الخاصة ، لا بالنقل من غيره .

---

(١) ٤ : ٧٠ و ٧١ ، ٥ : ٣٧٠ الحيوان : ويقول الجاحظ : كل من أقام بقصبة « تبت » اعتراه سرور لايدرى ماسببه (٧ : ٢٣٠ الحيوان)

(٢) ٥ : ٨٧ الحيوان

(٣) راجع ٣ : ١٠٧ بروكلمان

وقد ظلت آراء الجاحظ فى التجربة منهاجا علميا للباحثين المسلمين بعد عصره ، فذهب ابن رشد إلى أن كل ماأدى إليه البرهان والعقل وخالفه ظاهر الشرع يقبل التأويل ، وقال الإمام الشافعى : «إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون منه » وذهب ابن حزم إلى حرمة التقليد ، وعنهم أخذ بيكون ، وإليهم رجع ، فمن الخطأ أن تنسب هذه الطريقة التجريبية إلى الغرب ، ولا تنسب إلى مصدرها الأصيل ، وهم العلماء المسلمون أولا ، وفى مقدمتهم أبو عثمان الجاحظ .

— ٤ —

ولقد كان الجاحظ يدعو إلى الجمع بين التخصص العلمى والثقافة العامة ، وكان على سعة صدره لايقبل التخليط من أحد ، ولا يغتفر الخطأ من عالم ، ومن رأيه أن الرجل لايكتب إلا فيما يتقنه ، فلا يتطاول إلى مالا يعلم ، ومن ثم نقد الجاحظ الخليل وابن المقفع لأنهما كتبا فى علم لايحسنانه، فكتب الخليل فى الإيقاع واللحون ، وكتب ابن المقفع فى الكلام .

والجاحظ فى ذلك صورة لآراء أستاذه النظام الذى كان يذهب إلى أن المتعلم يجب أن يكون ملما بالثقافة العامة إلى ثقافة أخرى متخصصة (١) ، وكان يعتد بموهبة العالم ويرى أن الإنسان بدونها لا يمكن أن يصير عالما(٢) فأخذ كل ذلك الجاحظ عن أستاذه ، ونادى بثقافة عامة (٣) بجانب الثقافة الخاصة (٤) .

والجاحظ لم يكتب ماكتب إلا بعد الدرس الطويل ، والخبرة الواسعة ،

---

(١) ١ : ٣٠ الحيوان
(٢) ٣ : ١١٨ ضحى الاسلام
(٣) ٢٦١ رسائل الجاحظ
(٤) ٣ : ١١٧ ضحى الاسلام

وبعد أن عانى من الأبحاث ماعانى ، ومارأيك فى رجل أحاط بأكثر ما كان فى أيدى عصره من ثقافات ومعارف ، وعرف ما كان فى زمنه فى الأرض من أعاجيب ، ولم يحتقر شيئا يدخل فى باب العلم والثقافة ، ولم يستنكف أن يأخذ من صغار الناس كما كان يأخذ من كبارهم ، وكشف كل غامض ، واستقرأ كل باب ، واستنبط العديد من مجاهيل العلم ؛ كل ذلك فى عصر كان الناس فيه يؤثرون السماع من الأسانيد الأخذ عن الرواة ، ويفضلون ذلك على مطالعة الأسفار ، وقراءة دواوين العلم ؛ لايحفلون بالتقييد والتسجيل كثيرا ، ويرون على الدوام الأخذ من الأفواه ، فوجه أفكار أمته وجهة أخرى ورغبها فى الكتاب ، ليكون للناظرين فيه كل ساعة مورداً يستقون من معينه ، فصح لقومه أن يشمروا فى اقتناء الكتب ، ويتباروا فى جمع كل وسائل المعرفة من كتاب وأستاذ ورحلة ومشافهة ومناظرة وجدل ورواية ، ويضمنوا تآليفهم خلاصة ماجمعوه ، وأحاطوا به من آراء ومذاهب .

وكرر فى الناس أن الكتاب يمنح صاحبه تعظيم الجماهير ، وصداقة الملوك ، والثراء العريض ، ومن ثم أولع أبو عثمان الجاحظ بالكتاب وبالتأليف ، ومن دلالة الحوادث أن مات وكتبه تنهال عليه وتدفنه بينها .

البَابُ السَّابِعُ

الجــاحظ الأديب

الفصل الأول

شخصية الأديب

– ١ –

ما الأدب ؟

سؤال غامض ، نستطيع أن نسأله ، ولا نستطيع أن نجيب عنه ، كما يقول « سانت أوغسطين » : « إنى أعرف إذا لم أسأل فإذا سئلت لم أعرف » .

وإذا قلنا إن الأدب يشمل الشعر والنثر الفنى والرسائل والخطب والأمثال السائرة والمقامات عند العرب القدماء ، وإنه قد اتسع مجال نشاطه الفنى ، فأصبح عند المعاصرين ، كما كان عند الغربيين ، شاملا للفن القصصى والمسرحى وللشعر بكل أنواعها ، وللمقالة والترجمة والنقد كذلك ؛ وان النثر الأدبى اتسع عندهم كما اتسع عند الغربيين ، فشمل الكثير من الكتابات الفلسفية والتاريخية والاجتماعية ، كما شمل النادرة والخاطرة .

كنا بمثابة من يحدد معالم الطريق وهو يريد أن يتعرف إلى طبيعة أجناس الأدب وألوانه المختلفة .

وكان القدماء من الأدباء يقولون أن الأدب هو الأخذ من كل فن بطرف (١) ، وهو هذه الثقافة الواسعة التى تعد ضرورية فى بناء الأدب وتكوين الأديب . وأدب الجاحظ أصدق مثل لهذه النظرية التى قررها النقاد القدماء ، ومن بينهم ابن خلدون (٨٠٨ هـ) فى مقدمته المشهورة ،

---

(١) ٤٨٨ المقدمة لابن خلدون .

ويقول الجاحظ من رسالته فى « صناعات القواد » التى كتبها للمعتصم(١) : « فحض يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل الأدب ، فإنك إن أفردتهم بشىء واحد ، ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه » .

ولقد كتب الجاحظ فى كل شىء ، وأخذ من كل فن بطرف ، كتب فى الحيوان والنبات ، فى الشعر والنثر والخطب والرسالة ، كتب فى الفكاهة والسخرية ، وفى القصة والنادرة ، وفى الجدل والحوار ، وفى المعلمين والفتيان ، وفى شتى الموضوعات ، من الفتيان إلى بنى هاشم ، ومن اللصوص إلى الذئاب ومن القيان إلى الكلام فى صفات الله تعالى ، ومن أمهات الأولاد إلى الولاة والقضاة ، ومن الحور والعور إلى الإمامة (٢) ؛ فأدبه موسوعى وكتبه دائرة معارف لزمنه ، وفيها فلسفة المتكلمين وطبقات الناس ، والكلام على طباع الحيوان ونمو النبات ، وفيها الكثير من البحوث عن الأخلاق والسياسة والتاريخ . وقد مزج أبو عثمان فيما كان يكتبه العلم بالأدب ، والرواية بالتجربة ، والشعر المحدث بالإسلامى والجاهلى . بفلسفة ارسطو وطب جالينوس ، بالقرآن والحديث وكلام البلغاء وحكم الحكماء ؛ بآراء الطبيعيين والدهريين ، والمانويين ، والزرادشتيين ، باليهودية والنصرانية ، بأحكام العقل والتجربة ـ الامتحان والمشاهدة ـ بكل الثقافات فى عصره ، أصيلة أو دخيلة ، فارسية أو هندية أو يونانية (٣) ، فمثل امتزاج الثقافات فى عصره خير تمثيل ، حتى لنراه فى « البيان » يعرض ادب العرب وأدب الفرس وحكم الهند وبلاغة اليونان ، ونصائح المسيحية ؛ وينقل عن فرس تعربوا من أمثال : الأسوارى ، وابن المقفع ، وسهل بن هارون ، وعن عرب أصلاء ، من أعراب ورواة للأدب وللأخبار ، وقصاص وزهاد ووعاظ ، ونقاد ولغويين ونحويين . وكذلك نجد كتابه « الحيوان » معرضا لكل الثقافات

---

(١) ٢٦١ رسائل الجاحظ .

(٢) راجع ١ : ٤١٠ ضحى الإسلام .

(٣) راجع ١ : ٤١١ ضحى الإسلام .

الدينية ، من دهرية وزرادشتية ، ومانوية ويهودية ومسيحية (١) .

وهكذا أحاط أدبه بكل لون من ألوان المعرفة ، وأخذ من كل فن من فنون الثقافة والأدب بطرف ، واتسع لكل نظرة وفلسفة ، وكأن الأدب عنده هو ما أحاط بتلك الثقافات كلها ، وشملت معارفه كل المعارف ، كما أن العالم عنده من يحسن من كلام الدين بقدر ما يحسن من الفلسفة ، والمصيب والمحقق منهم عنده هو الذى يجمع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال(٢) ، ويقول الصفدى : « من وقف على كتاب « الحيوان » وغالب تصانيفه ورأى فيها الاستطرادات التى استطردها ، علم ما يلزم الأديب وما يتعين عليه من مشاركة المعارف .

وقد وقف العلماء بعد الجاحظ ينادون بما نادى به من موسوعية الثقافة وشمول الأدب ، كما يمثلون أنواعا مختلفة من الامتزاج بين الثقافات(٣) ، ومن بينهم : ابن قتيبة (٢١٣ – ٢٧٦ هـ) ، وأبو حنيفة الدينورى (٢٢٠ – ٢٨٢ هـ) وابن أبى الدنيا (٢٠٨ – ٢٨١ هـ) .. وكان ابن قتيبة ينقد الجاحظ لاعتزاليته ، وكان الجاحظ معتزليا وابن قتيبة من أهل السنة (٣) ، واتبع منهج الجاحظ فى التأليف فى كتابه «عيون الأخبار».. أما أبو حنيفة الدينورى(٤) فكان يقرن بالجاحظ فى بلاغته ، واختلف الناس أيهما أبلغ ، فقال أبو سعيد السيرافى (٣٦٨ هـ) : أبو حنيفة أكثر حلاوة ، ومعانى أبى عثمان لائطة بالقلب ، سهلة فى السمع ، ولفظ أبى حنيفة أعذب وأعرب وأدخل فى أساليب العرب(٥) .

---

(١) راجع ١ : ٤٢٤ المرجع
(٢) راجع ٢ : ٤٨ الحيوان
(٣) ١ : ٤٢٥ ضحى الاسلام
(٤) راجع ٢ : ٢٣٠ بروكلمان
(٥) ١ : ١٢٤ معجم الأدباء (مرجليوث)

ويعده أبو حيان التوحيدى (٤١٣ هـ) أحد ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ، مابلغوا آخر مايستحقه كل منهم: الجاحظ والدينورى وأبو زيد البلخى (٣٢٢هـ)، ويصفه بأنه من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب ، له فى كل فن ساق وقدم ، ورداء وحكم . ويقول أحمد امين: إن ثقافته اليونانية والهندية كانت أوسع منها عند الجاحظ وابن قتيبة ، وإن علمه الرياضى يكمل نقصهما، يدل على ذلك تآليفه فى الفلك والحساب والجبر والمقابلة وغيرها(١)، وكان ابن أبى الدنيا كذلك غزير الثقافة متنوع التآليف(٢) .

وبأى تعريف عرفنا الأدب ، وسواء : أقلنا إنه فن الكلمة ، أم إنه كل الآثار اللغوية التى تثير فينا بفضل خصائص صياغتها انفعالات عاطفية أو إحساسات جمالية ، أو قلنا إنه الصياغة الفنية لتجربة بشرية شخصية أو تاريخية أو أسطورية أو اجتماعية أو خيالية ، أو قلنا إنه نقد الحياة ، وسواء أجعلناه أدب جمال أم أدب حياة ، وأدب عاطفة وانفعال أم ادب عقل وتفكير ، وسواء أجعلنا له رسالة خلقية أم جمالية ، وسواء أقلنا إنه أدب حياد أو أدب رأى والتزام .

فإن الجاحظ ، على كل لون من ألوان الأدب ، وكل مذهب من مذاهبه ، أديب بكل معنى هذه الكلمة، بل عملاق فى الأدب العربى والآداب الإنسانية على مر الأجيال، وروائعه الفكرية والأدبية تضعه فى صف أعظم الأدباء فى العالم ، وقد ترجمت بعض كتبه إلى اللغات الأجنبية ، وقرئت فى الغرب بلهفة وشوق كما يقرأ أعظم الكتاب فى الغرب والشرق على السواء ، وهنا نذكر رأيا لبروكلمان فيه ، يقول : إن غرض الجاحظ من الكتابة والتصنيف كان هو

---

(١) ١ : ٤٣٠ ضحى الاسلام

(٢) ٣ : ١٢٩ — ١٣٣ بروكلمان

التسلية والمسامرة أكثر من الإفادة والتعليم ، وكان يعرض كتبه فى أحسن صورة ، حتى لا يستثقل النـــاس قراءتها ، وقد صرح الجاحظ بذلك فى الحيوان (١) .

ويعنينا هنا ماذكره من أن غرض الجاحظ من الـكتابة كان هو التسلية والمسامرة أكثر من الإفادة والتعليم والتوجيه ، ونحن لانجد ظلما للجاحظ ، وغبنا له ، وسوء فهم لأدبه ، من أن يقال فيه ذلك ، فإن أبا عثمان لم يـكتب ما كتب إلا لإفادة عصره ، وتوجيه أهل زمنه ، وتثقيف أمته والأجيال التى تأتى بعدها ، ويقول كرد على : إنه كتب ماأراد وما أريد منه ، وكأنه المفتى الحجة يستفتى فى علوم الدنيا والآخرة فلا يلحق غباره أحد(٢) ، ويقول : ماألف الجاحظ إلا عن باعث وانه كان فى الأكثر يتقدم فيعرض ماحمله على التأليف(٣) .

وبحق كان الجاحظ المعلم الأول للعقل العربى فى عصره ، ولا يعقل أن يترك المعلم الأول رسالته من التثقيف والتوجيه إلى المسامرة والتسلية .

— ٢ —

ولقد تمثلت شخصية الأديب حق التمثيل فى الجاحظ ، فهى واضحة فى كل ماأجرى به قلمه ونضحت به قريحته ، فإذا تناولت له أى كتاب أو آية رسالة ، لاتلبث أن ترى هذه الشخصية القوية مطلة عليك من خلال السطور ومن بين حروف الكلمات ، فلا تزال معها فى سمر مطرب ، وحديث معجب ، حتى تضع الـكتاب من يدك ، يملك عليك نفسك ذلك الطابع الخاص ،

---

(١) راجع ٣ : ١٠٧ بروكلمان ، ٥ : ١ ، ٥ الحيوان

(٢) ٢ : ١٩ ، ٤ أمراء البيان

(٣) راجع ٤٢٣ — ٤٤٠ : ٢ المرجع نفسه

الذى استأثر بكل كلمة من كلماته ، وشاع فى كل جملة من جمله ، وعبارة من عباراته ، فتراه يبسط لك العبارة ، ويرفق من حواشيها ، حتى لتظن أنه قد أسف بها ، وأنه هبط عن مستوى البلغاء فى تحبيرها ، فإذا تأملتها فضل تأمل ثم حاولت احتذاءه فيها رأيته منك فى ذؤابة الثريا ، وفى مناط العيوق . وهذه ميزة قد اختص بها من بين جميع الكتاب ، حتى إنه صار بها رأس مذهب فى الأدب ، كما هو رأس مذهب فى العقائد ، فيقال فى الأساليب العربية إذا كانت قد بلغت أعلى طبقات البلاغة ، وأسمى منازل البيان ، وكانت واضحة المعانى ، سهلة الألفاظ ، نقية الكلمات : « عبارة جاحظية » .

ويقال فى الرسالة جمعت حر الكلام إلى التبسط فى المعانى ، وكانت كثيرة الافتنان ، آخذة فيها الموضوعات بعضها بذوائب بعض ، يتنقل فيها القارىء من فن إلى فن ، ومن لون إلى لون ، ومن معنى مولد إلى معنى مبتكر : « هذا أدب جاحظى » ... وله فى هذا المذهب أنصار وتلاميذ ، كانوا فى عصورهم أئمة البلاغة ، وما من كاتب منذ عهد الجاحظ إلى الآن إلا وللجاحظ فى عنقه منة ، كما يقول القاضى الفاضل : « ما منا معشر الكتاب إلا من دخل من كتب الجاحظ الحارة ، وشن عليها الغارة ، وخرج وعلى كتفه منها كارة »(١) » .

ومن هؤلاء : أبو زيد البلخى (٣٢٢ هـ) ، وكان الجاحظ يشبه به أباحنيفة الدينورى ، فى سعة العلوم والمعارف(٢) ، وابن العميد (٣٦٠ هـ) ، وكان يلقب الجاحظ الثانى ، وكان من المعجبين المولعين به ، المقدرين له ، الذاهبين مذهبه فى أسلوبه وكتابته ، ومن أشد الناس تعلقا به وبأدبه ،

---

(١) ص ٢٠٢ أدب الجاحظ للسندوبى

(٢) ٢ : ٢٣٠ بروكلمان

وكان يعنيه من معاصريه أن يلقبوه بلقبه، وكانت طريقة ابن العميد مزاجا بعض عناصره من كتابة الجاحظ، وبعضها من كتابة الديوانيين، وكان ابن العميد كثير الإشارة إلى الحوادث والإيراد للأعلام، والخوض فى حقائق العلوم؛ وهذه الطريقة هى طريقة أبى عثمان فتح بابها للكتاب برسائله، وخاصة رسالته المشهورة «التربيع والتدوير» التى تبعه فيها ابن العميد فى رسالته التى كتبها إلى أبى عبد الله الطبرى، وابن الخوارزمى فى رسالته الطويلة التى بعث بها إلى أبى الحسن البديهى الشاعر، وتناوله فيها بالسخرية والتهكم، كما تناول الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب الثقفى، وكذلك فعل المعرى فى رسالة الغفران، وابن زيدون فى الرسالة الهزلية.

ومن اتبعوا طريقة الجاحظ، وساروا فى طريقه، ولقبوا بلقبه أبو حيان التوحيدى (٤١٣ هـ)، وكان جاحظيا يسلك فى تآليفه مسلك أبى عثمان، ويحب أن ينتظم فى سلكه(١)، وقد نهج نهجه، وائتم به، وخلفه فى كثرة العلم وسعة الاطلاع، حتى لقبه معاصروه بالجاحظ الثانى، كما لقبوا ابن العميد.

ومنهم الحسن بن بشر الآمدى (٣٧١ هـ) صاحب «الموازنة» وكان يسلك طريقة الجاحظ، ويتعاطى مذهبه فيما يؤلف من الكتب كما يقول ابن النديم فى الفهرست. وكذلك كان المرزبانى (٣٨٤ هـ) إذ كان يوازن بالجاحظ، ويقول المتعصبون له: إنه كان أحسن تصنيفا من الجاحظ(٢)، وكذلك الحسن بن خلاد (٣٦٠ هـ) وكان ممن سلك طريقة الجاحظ، ومثلهم محمود بن عزيز الخوارزمى (٥٢١ هـ) أستاذ الزمخشرى، ولكثرة حفظه

---

(١) ١٥ ص ٢ معجم الأدباء
(٢) ٢ : ٢٤٣ بروكلمان

وفصاحة لفظه سمي الجاحظ الثاني . وفي العصر الحديث كان عبد العزيز البشرى يسلك طريقة الجاحظ ، ويتبع في تصغير العظيم وتعظيم الصغير مذهبه ، وقد شهر طه حسين بأنه جاحظ عصره .

ومن الكتاب الذين عاصروا الجاحظ نفسه من احتذوه في أساليبهم وأدبهم ، ومن بينهم ابراهيم بن العباس الصولى (٢٤٣ هـ) الذى احتذاه في أسلوبه ، مع أنه كان ممن انقاد له فن الشعر وفن النثر جميعا(١) وغيره .

— ٣ —

ولقد أسهم الجاحظ ، في بناء النثر الفنى وفي نهضة الأدب العربي إسهاما كبيرا ، ولقد جاء بعد عبدالحميد الكاتب (١٣٢ هـ) وابن المقفع الذين كانا من أشهر الكتاب الواضعين لأصول الكتابة والنثر في الأدب العربي وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الأموية ، وشهد ابن المقفع (١٤٣ هـ) جانبا من أول عصر العباسيين .

وخلفهما طائفة من الكتاب تأثروا بهما تأثرا واضحا بعيد المدى في تطور النثر والكتابة ، ومنهم : يعقوب بن داود وزير المهدى ، وأبو الربيع محمد بن الليث الذى كتب للمهدى والهادى والرشيد ، والقاسم بن صبيح ، وسهل بن هارون (٢١٥ هـ) وسعيد بن وهب وهو من كتاب البرامكة(٢) ، ويحيى بن برمك ثم ابناه : جعفر بن يحيى (١٤٢ - ١٨٧ هـ) والفضل بن يحيى (١٤٧ - ١٩٣ هـ)، والفضل بن سهل (٢٠٢ هـ) ، والحسن بن سهل (٢٣٦ هـ)

---

(١) راجع ٢ : ١٨٥ المنهل في تاريخ الأدب العربي - روكس العزيزى - طبع الأردن

(٢) توفى أيام المأمون (راجع ١ : ١٠٥ الحيوان)

الذى يشيد به الجاحظ(١) ، وأحمد بن يوسف (٢١٢ هـ) وعمرو بن مسعدة (٢١٤ هـ) ، والعتابى (٢٢٠ هـ) ، ومحمد بن زداد وزير المأمون ، وإبراهيم ابن العباس الصولى (٢٤٣ هـ) ، والفضل بن الربيع (٢٠٨ هـ) .

ويقسم النقاد الكتاب إلى عدة طبقات(٢) :

١ - طبقة ابن المقفع ، ومن كتابها : يحيى بن زياد الحارثى ، وعمارة ابن حمزة (٣) ، وأبى أيوب الموريانى ، وهؤلاء كتبوا للمنصور .

٢ - طبقة عبد الملك بن صالح وأبى عبد الله بن معاوية ويعقوب بن داود ويحيى بن برمك . ويوسف بن القاسم ممن كتبوا للمهدى والهادى والرشيد ، وكان الرشيد يصف عبد الملك بن صالح بالبداهة ، والارتجال ، وينكران يكون ممن يعدون كلامهم ، ويقول : هو طبع فيه ، وما رأى الناس أطبع منه فى الفصاحة (٤) .

٣ - طبقة جعفر بن يحيى وأخيه الفضل ، واسماعيل بن صبيح ، والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل وأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة وأحمد بن أبى خالد الأحول ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون .

٤ - طبقة ربيت فى عصر المأمون ، وجمعت بين الآداب والبلاغة

---

(١) ١ : ٨٤ البيان (السندوبى)

(٢) راجع : تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى لأنيس المقدسى

(٣) كان صاحب رسالة الخميس التى تقرأ لبنى العباس ، وراجع رسالة الخميس من المأمون إلى أهل خراسان (ورقة ١٠٧ — ١١١ : ١٢ اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور (٢٠٤ — ٢٨٠ هـ) ، والكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٨١ أو ١٨٦٠

(٤) ١ : ١٠٠ و ٢ : ١٧٣ ديوان المعانى للعسكرى

العربية والدخيلة ، وقرأت الكتب المترجمة ، وإليها انتهت البلاغة ، وفتحت أبواب البديع ، وبذ أعلامها فحول الشعراء فى عظمة الجاه والرياسة ، مثل : الجاحظ وابن الزيات ، والصولى ، وسعيد بن حميد ، والحسن بن وهب وسليمان بن وهب ، وسواهم ممن كتبوا للخلفاء بعد المأمون .

ويجعلهم لفيف من الباحثين طبقتين فقط :

١ — طبقة ابن المقفع وطريقته تنويع العبارة ، وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخى السهولة ، والعناية بالمعنى ، والزهد فى السجع ، ومن أقوال ابن المقفع : « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا فى نيل البلاغة فإن ذلك هو العى الأكبر ، ويعرف البلاغة بأنها هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها .

٢ — وطبقة الجاحظ وكانت طريقته تشبه طريقة ابن المقفع فى سهولة العبارة وجزالتها ، وتمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة ، وبزيادة الاطناب فى الألفاظ والجمل ، وبالاستطراد ومزج الجد بالهزل وتحليل المعنى واستقصائه وتحكيم العقل والمنطق والاعتراض بالجملة الدعائية .

وهؤلاء الكتاب جميعا هم صفوة من البلغاء والفصحاء وأرباب البيان ، ممن ملكوا أزمة البلاغة ، وبلغوا أعلى منازل الفصاحة والبراعة ، وامتازت كتابتهم بطول النفس ، وجمال الأداء ، وبراعة الأسلوب ، وشرف المعانى ، وحسن الابتداع فى الأخيلة ، مع الازدواج حينا ، والسجع حينا آخر .

وقد بلغ الاحتفال بالثقافات المترجمة ، وبخاصة اليونانية ، حدا كبيرا ، حتى لقد شكا النقاد ذلك ، يقول الجاحظ(١) :

---

(١) ٤٢و٤٣ رسائل الجاحظ (بهامش الكامل للمبرد)

« والناشىء من الكتاب إذا وطىء مقعد الرياسة يكون أول بدوه الطعن على القرآن فى تأليفه ، ولا يرتضى من الكتب إلا المنطق . . » الخ ومثل ذلك يقول ابن قتيبة أيضا (١) ، وهذا ينفى رأى ابن الأثير من أن الكتاب لم يتأثروا بثقافة اليونان (٢) .

وكان حامل لواء النثر الفنى على أية حال من الأحوال فى العصر العباسى هو الجاحظ إمام البيان ، الذى اقتدى به كتاب عصره ، من مثل : الحسن وسليمان بنى وهب ، وسعيد بن حميد ، والحسن بن مخلد ، وأحمد بن اسرائيل وابن المدبر ، وابن المعتز ، وسواهم .

وقد آثر الجاحظ الطبع والبعد عن التكلف والتعقيد والحوشية والسوقية ، كما آثر الوضوح وظهور الشخصية الفنية فيما يكتب ، واحتال على نشاط القارىء بالفكاهة ، ومزج الجد بالهزل وبالاستطراد ، وبراعة الأسلوب ، وسحره ، وبالرواية والنقد والتمحيص ، وبالإطناب والتغلغل العقلى والتفصيل ودقة الملاحظة ، وعمق المشاهدة ، والمزيد من الشرح والتحليل . . وشمول الفكرة ونفوذها وإحاطتها بشتى جوانب الحياة أظهر سمات أسلوب الجاحظ ، وهو مع ذلك متقد الحماسة للعربية وللعرب ، يفضل بلاغة قومه على كل بلاغة ، ويستشهد بكلمة العربى وبيت البدوى ، كما يستشهد برأى المفكر وحكمة الحكيم . وفى إنشاء الجاحظ كثير من الخطابة والجدل ، وكان من المعجبين بابن المقفع ، ونوه بذكره ، ولكنه لم يسلك مسلكه فى الأدب لأنه رأى أفق الأدب أوسع من أن يقصره على الحكم والنصائح ، وقد نقد البديع أسلوب الجاحظ بأنه « بعيد الاشارات ، قريب العبـــارات قليل

(١) ص ٢ أدب الكاتب لابن قتيبة
(٢) ص ٢٠ المثل السائر

الأستعارات ، ليس له لفظة مصنوعة ، (١) كما عابه الباقلانى (٢) بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه ، فالبديع وهو من أصحاب الصنعة يعيب أسلوب الجاحظ بعدم الاحتفاء بالصنعة ، والباقلانى يرى فى وضوح أسلوب أبى عثمان وكثرة مافيه من اقتباس عيبا يعاب به الجاحظ ، وهذا طبعا ليس عيبا ، بل هو تحكيم لثقافة الناقد وذوقه فى نقده .

وكان الجاحظ فى سحر بلاغته ، وسمو أسلوبه وشخصيته البارزة فى كل فقرة من فقراته ، وثقافته الواسعة ، فى شتى آثاره الأدبية نسيج وحده ، وفريد عصره كما يقولون ؛ ومظهر ذلك رسالته « التربيع والتدوير » .. وإذا كان ابن المقفع إمام المنشئين فى عصر الترجمة ، فإن الجاحظ إمامهم فى عصر التأليف وذاع فى النثر فى عصر الجاحظ ألوان كثيرة ، ومنها : أدب السخرية والفكاهة ، والرسائل الاخوانية ، والأدب الوصفى وأدب الطبيعة ، وأدب القصة . والرسالة الأدبية ، والرسائل فى الجدل والحوار ، وغيرها . ووضعت أصول النقد والموازنة والبيان على يدى الجاحظ وابن سلام وابن قتيبة ومن تلاهم . . وألفت فى هذا العصر كتب أدبية جامعة ، من أشهرها : البيان والتبيين والحيوان . ولا عجب إذا قلنا : إن النثر الفنى بلغ غاية نهضته وازدهاره وعنفوان قوته فى عصر الجاحظ وبفضله ، وعلى يديه .

---

(١) ٨٢ مقامات البديع ـ المقامة الجاحظية ـ ، ٢٠٩ : ٢ زهر الآداب .
(٢) ١٩٤ إعجاز القرآن .

الفصل الثانى

أديب العصر

— ١ —

كان الجاحظ أديب عصره ، وكان أدبه الغذاء الروحى والفكرى والفنى لكل طبقات الناس فى زمنه ؛ لم يترك مشكلة فى عصره إلا كتب فيها ، ولم يترك جانبا من جوانب الحياة إلا صوره ، كان الخلفاء يكتبون إليه ليكتب بقلمه البليغ رسائل فى السياسة تؤيد مبادىء الدولة ودعوتها الدينية والسياسية وتقوى حجتها على خصومها السياسيين ، فكتب إلى المأمون رسائله فى الإمامة ، وكتب له رسالته « العباسية » ، وكذلك كان موقفه مع الوزراء ، وكتب للفتح بن خاقان رسالته المشهورة : مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، وكانت رسالته فى « الرد على النصارى » جوابا عن أسئلة وجهت إليه فيها مشكلات دينية ، وكانت رسالته فى الشراب جوابا كذلك عن سؤال بعث به إليه بعض أصدقائه ، وكان كثيرا مايكتب الكتب فى كل موضع ولمختلف الأغراض ثم لايشير فيها إلى الباعث الذى حمله علـى تأليفها ، وكتبه وأدبه عرض للمشكلات العديدة التى نجمت فى عصره ، سواء منها الدينية أم العقلية والروحية أم الفكرية . ومثل الجاحظ فى آثاره تشعب الحركة الفكرية وانطلاق العلوم ، واتساع الآفاق ، والبحث العلمى المؤسس على العقل ، وقد أخذ من كل فن بطرف ، وخاض فى أبواب شتى من الاجتماع والأخلاق والتربية والتعليم والطبيعة والتاريخ الطبيعى ، وفلسفة اللغة والنقد والبلاغة ، والقصة ، والمقالة والرسالة ، وما إلى ذلك كله ، وصورها أروع تصوير وهو يتحدث عن طبقات أهل عصره ، فصور حيل التجار ، والمتسولين ،

وسخافات الشبان والمتخنثين وزندقة الزنادقة ، وسوى ذلك .

وكان الجاحظ أستاذ عصره ، وله مكانته ومنزلته وجرأته ، ونظره النقدى المقعد ، المبنى على التجربة والمعقول ؛ واتساع آفاق موضوعاته حتى يجد فيها كل إنسان أمنيته ، والتنوع الذى كان يبعد السأم ، وتصويره أخلاق العصر . وهذا اللون من الأدب كثير الذيوع ، إلى سخريته ، وتبسيطه المسائل العلمية والفلسفية فى أسلوب واضح ؛ وهكذا وجد الناس صلة ما بينهم وبين الجاحظ ؛ فآثروه وآثروا كتبه ، لأنها أكثر استنباطا ، وأبرز شخصية ، وأوسع مادة ، وأبرع فنا ، وأقرب إلى حياة الشعب (١) .

— ٢ —

ولقد كتب الجاحظ فى شتى ألوان الأدب ، كتب فى : البيان ، والنقد ، والمقالة ، والقصة ، وفى الحوار والجدل ، وفى السخرية والفكاهة :

١ — ففى أدب البيان والنقد ، وسيأتى الحديث عنهما بالتفصيل ، كتب الجاحظ أروع الفصول ، وابتكر أعظم الأصول ، وأسس للنقاد والبيانيين قواعد بنوا عليها ، حتى كمل البناء وعظم الصرح .

٢ — وفى أدب المقالة كان للجاحظ برسائله القصار ، وبفصوله الكثيرة ، فضل فى ابتكار هذا اللون من الأدب ، وتعد هذه الرسائل والفصول بالأمس البعيد كالصحف اليوم ، وما أشبه أدبه بصحيفة عصره الذائعة ، ينطق فيها بلسان الخلافة والشعب ، بلسان الحاكم والمحكوم ، بلسان العامل والفلاح والتاجر والصانع ، والموظف والوزير والأمير والخليفة ؛ يدل به الناس إلى الصالح العام ، ويكشف لهم خفايا الأمور ، ويعلمهم الفضائل ، ويلقنهم كل ما تستنير به عقولهم وجماعاتهم ، ويوجههم فى الحياة وجهة الخير والقوة

---

(١) راجع : ١٩٩ أدب الجاحظ للسندوبى ، ٤٢ الجاحظ للفاخورى .

والإرادة والإيمان والطموح والأمل ويهديهم فيها سواء السبيل .

وكان الجاحظ يكتب فى كل مشكلات العصر والساعة ، والناس يقبلون عليه ، ويصغون إليه ، ويلتهمون كتاباته التهاما ؛ وأصبح ذلك بعد قليل مادة للثقافة بين الناس فى كل مكان .

٣ — وفى القصة كتب الجاحظ ـ فى الحيوان ، وفى المحاسن والأضداد على فرض صحة نسبته إليه ، وفى البيان والتبيين ـ روائع من فن القصة ، لانجد لها شبيها فيما كتب العرب قبله من ألوان القصص ؛ كتب قصصا عربية ، وعرب قصصا هندية وفارسية ، وصاغ كل ذلك بأسلوبه الرائع ، وصور فيها شتى عناصر القصة ، من الحادثة ـ والسرد والبناء والشخصية والزمان والمكان والفكرة تصويرا جديدا ساحرا ؛ وكتب كذلك فى القصة على لسان الحيوان (١) ، وقصص البخلاء كثيرة ومشهورة (٢) ، ومنها قصص رسم أبو عثمان فيها بقلمه البليغ بخل أهل مرو وخرسان ، حتى لكأن البخل فيهم خلقة وطبيعة ، ومن روائع قصص « الحيوان » قصته التى صور فيها موضوعها أدق تصوير ، وهى عن قاض ألح عليه الذباب إلحاحا شديدا (٣) ؛ ومن قصص البخلاء قصة « قميص السكران » (٤) وقصة شيخ ربع الشاذروان ببغداد (٥) ، ومريم الصناع (٦) ، ومعاذة العنبرية (٧) ، وغيرها . . وفى

---

(١) راجع ١٢٢ - ١٢٥ المحاسن والأضداد .
(٢) راجع فن القصص فى البخلاء لمحمد مبارك .
(٣) ٣ : ٣٤٣ الحيوان ، ٢ : ٣٨٧ — ٣٩٠ أمراء البيان ، والجاحظ للفاخورى .
(٤) ١ : ٧٢ البخلاء ـ الجارم .
(٥) ١ : ٥٦ المرجع .
(٦) ١ : ٦٢ - ٦٤ المرجع .
(٧) ١ : ٦٨ المرجع

المحاسن والأضداد أروع القصص العربية والمنقولة من الفرس والهند . . ولو حاولنا سرد بعض القصص مثالا لذلك لأخذ منا ذلك وقتا ومتسعا كبيرا .

٤ — وفى الحيوان والمحاسن والأضداد كثير من القصص الشعرى البديع ، ومنها قصيدة قصصية شعرية لشهاب بن حرقة السعدى (١) ، وهو شاعر أموى من أنصار ابن الأشعث ؛ وفيهما أيضا قصص على لسان « الحيوان » (٢) ، وللجاحظ فصول قصصية فى شتى كتب الأدب ، ومنها كتاب « زهر الآداب » فقد ذكر قصة للفضل بن سهل مع رسل بعض الملوك (٣) .

٥ — وكتب الجاحظ فى الفلسفة والعلم بأسلوب الأدب ، واتخذ من موضوعات شتى العلوم والفلسفة مادة لأدبه ، وموضوعا لكتاباته ، وكان بذلك أول من أدب الفلسفة كما يقولون .

٦ — وفى أدب الجدل والحوار كتب أبو عثمان كذلك أروع الفصول ، والكثير من الرسائل والكتب ، التى ارتفعت بهذا الفن فى الأدب العربى إلى منزلة سامقة ، بعد أن كان بدائيا ، وحلق به فى أجواء عالية من الموهبة والبلاغة الأدبية والعبقرية الفنية .

٧ — وفى أدب السخرية والفكاهة لاتزال رسالته « التربيع والتدوير » محوراً لفن الفكاهة فى الأدب العربى ، ومجالا لدراسات كثيرة حول هذا الفن الجاحظى الرفيع ؛ وتبدو خصائص فن الجاحظ فى هذا الجانب فى عناصرها الأساسية من الاستدراج والتهكم والتنادر والتصوير (الكاريكاتيرى)

---

(١) ٥٥ المحاسن والأضداد

(٢) راجع ١٢٢ - ١٢٥ المرجع

(٣) ١ : ٢١٧ ، و ٢١٨ زهر الآداب - الحلبى

لشخصية الذى يهجوه أو يتهكم به ، وكانت الفكاهة تغلب على طبعه(١) ، وهذا الفن له صلة وثيقة بحياته ونفسه ، فقد عاش فى زمن جمع المتناقضات ، وحال فقدان الحرية بينه وبين التصريح ، وأدرك أن مرارة الحياة لاتحلو بعض الحلاوة بغير الدعابة ، والإحماض ، ووقف على أسرار نفس الإنسان لحاول أن يلطف من شرة الدنيا وشرورها وشقائها ، وقصد إلى تعليم الناس .

وقد تعلم الضحك أكثر مما تعلم العبوس ، وقل بين الناس من تذوق الحياة كما تذوقها الجاحظ ، فقد كان صارما فى جده ، كما كان قاسيا فى هزله ، فروح عن نفسه ، وعمن كان يحف به ويعاشره ، وعن قراء كتبه ، يقول الجاحظ فى تعليل استعمال الهزل(٢) : « إن الكلام قد يكون فى لفظ الجد ، ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد ، ولو استعمل الناس الدعابة فى كل حال ، والجد فى كل مقال ، لكان السفه صراحا خيرا لهم ، والباطل محضا أرد عليهم . ولكن لكل شىء قدر ، ولكل حال شكل فالضحك فى موضعه كالبكاء فى موضعه ، والتبسم فى موضعه كالقطوب فى موضعه فان ذممنا المزاح ففيه لعمرى مايذم ، وإن حمدناه ففيه مايحمد ، وفصل مابينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع .

وقد كانت دمامة الجاحظ أحد الأسباب التى طبعته على السخرية والتندر حتى ليطلبها وهو يعالج أخطر الموضوعات ، وكثيرا ماكان يدس التهكم فى خلال كتاباته دسا ، فيقضى على حجج مناوئيه ، بقدر مايقضى عليها ببراهينه المنطقية ، وتظهر نوادره فى « الحيوان » و « البخلاء » فى أتم صورها والجاحظ الذى قيل فيه :

---

(١) راجع ٥ : ٣٤١ الحيوان
(٢) ٢ : ٢١٣ رسائل الجاحظ

لو يمسخه الخنزير مسخا ثانيا ماكان إلا دون قبح الجاحظ

كان خفيف الروح والظل خفيفاً على قلوب الناس وعقولهم وأرواحهم وكان له من حياته وهى سلسلة متصلة الحلقات من الكد والخيبة والحرمان ومن طبيعته السريعة التأثر الميالة إلى الملاحظة والنقد ؛ كان له منهما طرائف ونوادر لاتبلى جدتها على مرور الأيام .

ويرى الجاحظ أن النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً ، وإنما الكرب الذى يخيم على القلوب ، النادرة الفاترة ، التى لاهى حارة ولا باردة ، وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط ، وإنما الشأن فى الحارة جداً أو الباردة جداً . وله فى البخلاء والحيوان ، وفى البيان والتبيين ، وفى رسالة « التربيع والتدوير » الكثير من الفكاهات والنكات اللاذعة .

قال أبو بكر محمد بن اسحاق ، قال لى إبراهيم بن محمود ، ونحن ببغداد : ألا تدخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ فقلت : مالى وله ؟ فقال : إنك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه ، فلو دخلت إليه وسمعت كلامه ، فدخلنا عليه ، فقدم لنا طبقا عليه رطب ، فتناولت منه ثلاث رطبات ثم أمسكت ، ومر فيه إبراهيم ، فأشرت إليه أن يمسك ، فرمقنى الجاحظ ، وقال لى : دعه يافتى ، فقد كان عندى بعض إخوانى ، فقدمت إليه الرطب ، فامتنع ، فحلفت عليه ، فأبى إلا أن يبر قسمى بثلثمائة رطبة .

وقال الجاحظ : جاءنى يوما بعض الثقلاء ، فقال : سمعت أن لك ألف جواب مسكت ، فعلمنى منها ، فقلت نعم ، فقال : إذا قال لى شخص « ياثقيل الروح » أى شىء أقول له ؟ فقلت : قل له : صدقت .

وصنف الجاحظ كتابا ، فأخذه بعض أدعياء الأدب ، فحذف منه أشياء

وجعله أشلاء ، فأحضره الجاحظ . قال له : ياهذا إن المصنف كالإنسان ، وإني قد صورت فى تصنيفى صورة ، كانت لها عينان فعورتهما ، أعمى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلمتهما ، صلم الله أذنك ، وكان لها يدان فقطعتهما ، قطع الله يديك ، حتى عدد أعضاء الإنسان .

ويروى أن الجاحظ ألف كتابا فى نوادر المعلمين وغفلتهم ، فعزم على تمزيقه ، إذ رجع عن رأيه فيه ، فلم يلبث الجاحظ أن دخل مدينة فلاقى معلماً فحدثه فاذا هو أكثر ما يكون علمــاً وأدباً وظرفاً ، فكان يختلف إليه ويزوره ، فجاءه يوما ، فوجد الكتاب مغلقا ، وأخبر أنه مات له ميت فذهب للعزاء ، وسأله عن قرابة الميت له ، فقال له المعلم إنها حبيبتى ؛ مر على صديق عاشق ، فعشقتها لعشقه إياها ، ثم علمت منه أنها ماتت ، فحزنت عليها وجلست فى الدار للعزاء . فقال له الجاحظ : ياهذا إنى كنت ألفت كتابا فى نوادركم ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تمزيقه ، والآن عزمى على إبقائه(١) .

وللجاحظ نكات لاذعة مع الجماز وأبى هفان المهزمى ، وغيرهما من الشعراء والأدباء والكتاب .

لقد عرف الجاحظ النادرة الأدبية ، وغلب على أسلوبه حب التندر والرغبة فى الضحك حتى فى أوقات الجد ، وكتاب البخلاء كله فكاهة وضحك ونادرة ، وكانت النادرة عنده تنبيها على خطأ ، أو فضحا لرذيلة(٢) ؛ وكان الجاحظ يعجب بأحاديث الأعراب وبحوار المتنازعين فى علم الكلام وهما لايحسنان منه شيئا وإنما يثيران من غريب الطيب مايضحك كل ثكلان(٣)

---

(١) راجع القصة كاملة فى ص ٤٦٦ ح ٢ أمراء البيان

(٢) راجع ١٢٨ - ١٤٢ النقد المنهجى عند الجاحظ - داود سلوم

(٣) ٣ : ٦ الحيوان

وكان يقصد أحيانا إلى الهزل لـكسب نشاط القارىء لـكتبه(١) .

— ٣ —

وعلى الجملة فقد نقل للجاحظ موضوع الأدب من معناه الضيق المحدود إلى أوسع معنى ؛ فجعله شاملا لـكل شيء ؛ جعله الحياة كلها فالحياة عنده هى مادته ، وهى موضوعه ؛ فـكان الأدب فى رأيه هو الحياة نفسها ؛ أو تعبيراً عنها ، مرة تصويراً لها ، ومرة نقداً وتوجيها ، وكذلك ذهب إلى أن الأدب لا بد من أن يعمق فهمنا للحياة ، بأن يطلعنا لا على عالم الرؤية الخارجى فحسب بل على العالم الداخلى للفكر والشعور ، كذلك فالعمل الأدبى عنده يرتاد بنا الحياة ، ويخلق بيننا وبينها علاقات من الفهم والمعرفة ، وهى الغاية التى تسعى لها الإنسانية فى نشاطها المستمر .

وكان الجاحظ يدرك أن العمل الأدبى مستمد من الحياة ، متأثر ومتصل بها ومؤثر وعامل فيها ؛ فالأدب عند أبى عثمان كائن حي ، متجدد الحيوية ، بمقدار ما يستمد من الحياة ، وما يوصله إلى نفوس الآخرين من خبرة جديدة ، ومن فهم عميق لهذه الحياة .

---

(١) ٥ : ٣ الحيوان

الفصل الثالث

الذوق الأدبي عند الجاحظ

— ١ —

كان أبو عثمان الأديب والناقد ، أبلغ الناس فى زمنه ، وأعلاهم منزلة فى الفصاحة والبيان ؛ ويدل أدبه على شموخ مكانته فى البلاغة الأدبية ، وعلى يقظة إحساسه الفنى ، وعلى شدة رهافة ذوقه الأدبى ؛ ولا عجب فقد خلق ناقدا كما يخلق الشاعر شاعرا ؛ وكانت ملكة النقد فيه شديدة .

ومن ثم سما ذوقه ، ودق شعوره ، وعمق إحساسه بالأساليب ، وصار متمكنا من اللغة ، يفرق بين لفظة ولفظة ، وبين أسلوب وأسلوب ، ويضع ذوقه موضع الفيصل فى كل مشكلات اللغة والأدب والنقد والبيان .

وإذا كان الذوق هو الحكم فى مسائل الأدب ، وهو القوة - التى يقدر بها الأثر الفنى ، وهو الاستعداد الفطرى والمكتسب الذى يساعد الأديب على تقدير الجمال والاستمتاع به ومحاكاته بقدر ما يستطيع ، فإن الجاحظ قد بلغ فى ذلك مالم يبلغه أحد غيره ، لطول روايته وقراءته ومدارسته لبلاغات العرب ، ولأثر البيئة والعصر فى نفسه ، بيئة البصرة ، وعصر نفوذ الخلفاء العباسيين ، الذى أثرت فيه اللغة ، وازدهر الأدب ، وعلت فيه منزلة البلاغة .

والأدباء يختلفون فى أمر الذوق : أفطرى هو أم مكتسب ، ويكادون يذهبون إلى أنه فى أصله . هبة طبيعية تولد مع الإنسان ، فيعبر عنها بصفاء الذهن ، وخصب القريحة ، وجمال الاستعداد . ويظهر أثر ذلك فى ميل

الناشىء الموهوب منذ الطفولة إلى كل جميل من الأدب والفن ومحاولة تقليده وبعد ذلك يأتى التهذيب والتعليم ، فليس من شك أن الدرس ينمى الذوق ويهذبه ويسمو به إلى درجة محمودة ، فالأديب ذو الفطرة الذواقة يفيد من قراءة الأدب ومعالجة الفنون ، فتراه بعد قليل مصقول الذوق ، ثاقب الذهن يضع يده على العبارة البليغة ، والخيال الجميل ، ويدرك صدق العاطفة . وينفر من كل مضطرب من الأدب كاذب ، ويكون لتربيته العقلية والعلمية دخل كبير فى كمال أحكامه الأدبية واتزانها . كما يكون أقدر على إنشاء الأساليب البارعة . وصوغ الأخيلة النادرة . وصدق التعبير عن أسمى العواطف وأقواها ، وإذا سألته عن سر البلاغة أو العى استطاع التعبير . وأصاب وجه الصواب (١) .

ويلخص الجاحظ ذلك كله فى الحيوان . فيقول : ويد الإنسان لا تكون إلا خرقاء ولا تصير صناعا مالم تكن المعرفة ثقافا لها ، واللسان لا يكون أبدا ذاهبا فى طريق البيان . متصرفا فى الألفاظ . إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به منقلة له ، واضعة له فى مواضع حقوقه ، وعلى أماكن حظوظه(٢) .

وسمع الجاحظ(٣) من ينشد أرجوزة أبى العتاهية . التى سماها « ذوات الأمثال » حتى بلغ قوله :

يا للشباب المرح التصابى
روائح الجنة فى الشباب

فقال للمنشد : قف . ثم قال : أنظروا إلى قوله « روائح الجنة فى الشباب »

---

(١) راجع ١٢١ أصول النقد الأدبى للشايب ـ ١٩٦٠ القاهرة .
(٢) ١ : ١١٦ و ١١٧ الحيوان .
(٣) ٢ : ٣٦٦ عصر المأمون .

فإن له معنى كمعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة ، إلا بعد التطويل ، وإدامة التفكير ، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه .

— ٢ —

وأسلوب الجاحظ أظهر صورة لجلال ذوقه الأدبى وعظمته ودقته ؛ هذا الأسلوب الذى توضع فيه الألفاظ مواضعها ، وتأخذ فيه الجمل حظها من الروعة والبلاغة ، وحسن النظم .

كان الجاحظ يرمى إلى الإفهام والوضوح والإبانة ، وينحو نحو استعمال الألفاظ التى تجلو الحقيقة وتقربها إلى الأذهان . ويقول : من حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا ، وتلك الحال له وفقا ، ويكون الاسم لا فاضلا ولا مفضولا ولا مقصرا ولا مشتركا ، ولا مضمنا ، ويكون تصفحه لمصادره فى وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مونقا ، ولهول تلك المقامات معاودا ؛ ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم . والحمل عليهم على أقدار منازلهم » .

ويقول : وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره . ومعناه فى ظاهر لفظه وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة ، على حسن نية صاحبه ، فإذا كان المعنى شريفا ، واللفظ بليغا ، وكان صاحبه صحيح الطبع ، بعيدا من الاستكراه ، منزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف ، صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة .

ويقول : ومتى شاكل — أبقاك الله — اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قمنا بحسن الموقع ، وحقيقا بانتفاع المستمع ، ولا تزال القلوب به معمورة والصدور مأهولة ، ومتى كان اللفظ كريما فى نفسه ،

متخيراً من جنسه ، وكان سليما من الفضول ، بريئا من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطره ، ومن أعاره من معرفته نصيبا ، وأفرغ عليه من محبته ذنوبا ، حبب إليه المعانى ، وأسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع من كد التكليف ، وأراح قارىء الكتاب من علاج التفهم .

ويقول كذلك : تفل الحز ، وتصيب المفصل ، وتقرب البعيد ، وتظهر الخفى ، وتميز الملتبس . وتخلص المشكل . وتعطى المعنى حقه من اللفظ . كما تعطى اللفظ حقه من المعنى . وتحب المعنى إذا كان حيا يلوح . وظاهرا يصيح . وتبغضه إذا كان مستهلكا بالتعقيد . ومستورا بالتقريب . وتزعم أن شر الألفاظ ما أغرق المعانى وأخفاها . وسرها وعماها . والألفاظ عندك ما رق وعذب . وخف وسهل . وكان موقوفا على معناه ، ومقصورا عليه دون ما سواه . لا فاضل ولا مقصر ، ولا مشترك ولا مستغلق . قد جمع خصال البلاغة . واستوفى خلال المعرفة ، فإذا كان الكلام على هذه الصفة لم يكن اللفظ بأسرع إلى السمع من المعنى إلى القلب ، وصار السامع كالقائل ، والمتعلم كالمعلم ، وخفت المؤونة واستغنى عن الفكرة ، وماتت الشبهة ، وظهرت الحجة (١) .

ولأجل ذلك كله كانت ألفاظ الجاحظ دقيقة واضحة الأداء : واقعية حسية ، بعيدة عن الخشونة والغرابة ، بعـــدها عن التعقيد والإغراب ، قريبة كل القرب من الافهام ، وكان الجاحظ يراعى مقتضى الحال فى كل مقال .

وكان ذوق الجاحظ يدور فى مجـالات العلم والحقائق والثقافة ؛ فليس

---

(١) ١٩٥ رسائل الجاحظ

هو بالرجل الفسيح الخيال ، وليس أدبه بأدب العاطفة التى تستبد به ، لأنه رجل الحياة وحقائقها ورجل الفكر والاعتزال والفلسفة والعقل والمنطق ينشد الحقيقة من أعماق قلبه ، ويسعى ليدركها ، ويجد طويلا ليعثر عليها ، فإذا أدركها حاول التعبير القوى الواضح عنها ، تعبيرا يحيط بها ، ويقربها إلى الذهن ، ويظهر جميع دقائقها ، قريبة إلى الأفهام ، ومن ثم نأى الجاحظ عن أساليب المجاز ، على قدر ما يستطيع ، فإن اضطر إلى تشبيه أو استعارة أو كناية . أتى بها إذ كانت أقرب طريق للوضوح والإبانة ، لا لأنها أداة زخرف فنى . أو وسيلة ترف بيانى .

وكان الجاحظ صاحب باع طويل فى صنعة الكلام ، وأسلوب الكتابة ينفذ إلى القلوب ، ويخترق الأفئدة ويناجى العواطف ، ويمتلك المشاعر ، ويصل بقلمه المصقول ، وبيانه القوى إلى خلجات النفوس ، وخفايا الضمائر وله من ذهنه المتوقد ، وعقله الكبير ، ماجعل لمنطقه من التأثير ، وماحجته من الرهبة ، وماساعده على الوصول إلى غايته .

ولا يشك أحد أن الجاحظ كان نادرة من نوادر الزمن ، ولأسلوبه مميزات جعلته صاحب طريقة عرف بها ، فهو حريص على الإطناب ، حرصه على المعنى وتحليله واستيعابه وتفصيله والتهوين من أمر العظيم حتى يصغر ، والتعظيم من أمر الصغير حتى يعظم ، وكان المرحوم عبد العزيز البشرى الكاتب المصرى المشهور يحتذيه فى هذا المضمار ؛ ومن أسباب الإطناب عند الجاحظ مذهبه فى الاستطراد نفيا للملل القارىء ، ومزجه الجد بالهزل والهزل بالجد ، استجلابا لنشاطه ، والجاحظ كذلك مهتم باللفظ والأسلوب والصورة والخيال والموسيقى والتوقيع الفنى لجمله ، غاية الاهتمام .

وكان يقول : ينبغى للكاتب أن يكون رقيق حواشى اللسان ؛

عذب ينابيع البيان ، إذا حاور سدد سهم الصواب إلى غرض المعنى (١) .

وذوق الجاحظ الأدبي دعاه إلى فلسفة أسـلوبية خاصة متميزة . . . أساسها : الكلمة وحسن اختيارها ، واللفظة ووضعها فى مواضعها ، فقد كان ذوقه شديد المعرفة بوقع الكلمة فى نفس القارىء ، دقيق التمييز بين حى الألفاظ وميتها ، وسهلها وصعبها ، وجميلها وقبيحها ، وملاك الأمر عنده هو التبيين والإفهام . .

دعا إلى سهولة اللفظ وعذوبته وسماحته وبلاغته ، ويسره ، وقال : قد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها . ويقول : إن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعانى ، وقد يحتاج إلى السخف فى بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل والفخم ، ويرى أن لكل قوم ألفاظا حظيت عندهم ، وكذلك كل بليغ فى الأرض ، وصاحب كلام منثور وكل شاعر وصاحب كلام موزون . فلا بد أن يكون قد لهج وألف ألفاظا بأعيانها . ليديرها فى كلامه ، وإن كان واسع المعنى . كثير اللفظ غزير المعانى .

ويقول : ورأيى فى هذا الضرب من هذا اللفظ ، ما دمت فى المعانى التى هى عبارتها والمادة فيها . أن ألفظ بالشىء العتيد الموجود ، وأدع التكلف لما عسى أن لا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة ، وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين مادمت خائضا فى صناعة الكلام . مع خاص أهل الكلام ، فإن ذلك أخف عندى وأخف لمؤونتهم على ؛ ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة ، أو أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام ، وهو فى صناعة الكلام داخـل ، ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل .

---

(١) ١٦ : ٨٧ معجم الأدباء

وتأليف الكلام أو نظمه هو مظهر البلاغة وصورتها ، وبه تتبين بلاغة الكلمة ، وكان الجاحظ يعنى بجودة السبك ، وبراعة الديباجة ، وعذوبة الأسلوب ، عناية فائقة ، ويرى أن المعانى مطروحة فى الطريق ، يعرفها العجمى والعربى ، والبدوى والحضرى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتخير الألفاظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير(١) .

وذكر الجاحظ أن المعانى مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية وإنما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها ، فبذلك تقرب من الفهم وتجليها للعقل ، وتجعل الخفى منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريبا . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان .

ولكل معنى - شريف أو وضيع ، هزل أو جد ، أو حرفة أو صناعة - ضرب من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه والذى لاينبغى أن يجاوزه أو يقصر دونه

وكان الجاحظ يعجب بمذهب المحدثين ، الذين لايقفون إلا على الألفاظ المتخيرة ، والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها ، وأصلحتها ، وفتحت للسان باب البلاغة ، وأشارت إلى حسان المعانى .

ويرى أن الذى تجود به الطبيعة ، وتعطيه النفس سهلا ، أحمد أمراً ، وأحسن موقعا ، فى القلوب ، وأنفع للمستمعين ، من كثير خرج بالكد والعلاج .

---

(١) ٣ : ١٣١ الحيوان

ومن أثر الذوق عند الجاحظ تفضيله لشعر المحدثين ، ونقده للمتعصبين للشعر البدوى ، فلقد حارب العصبية ضد المحدثين ، واستشهد فى كتبه بشعرهم وروى لهم ، واستجاد كلامهم ، والعصبية لاتدع صاحبها يصدر حكما عادلا ؛ قال أبو عثمان عن النواسى : كان أبو نواس عالما راوية ، مع جودة الطبع وجودة السبك ، والحذق بالصنعة ؛ وإن تأملت شعره فضلته ، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية ، أوترى أن أهل البدو أبدا أشعر ، وأن المولدين لايقاربونهم فى شىء ؛ فإن اعترض هذا الباب عليك ، فإنك لاتبصر الحق من الباطل ، مادمت مغلوبا(١) محكوما بالعصبية الظالمة .

وينقد كذلك العصبية ضد المولدين فى موضع آخر من الحيوان بمثل هذا الأسلوب(٢) . وهكذا نجد الجاحظ يدعو إلى تقدير الجيد ممن كان وفى أى زمن كان ؛ يقول : والقضية التى لاأحتشم فيها ، ولا أهاب الخصومة ، «أن عامة شعراء العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدين والنابتة ، وليس ذلك بواجب فى كل ماقالوه ، وقد رأيت أناساً منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ، ولم أر ذلك قط إلا فى راوية للشعر غير بصير بجوهر مايروى ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفى أى زمان كان(٣) .

وقد سار على نهج الجاحظ فى ذلك ابن قتيبة فى مقدمة كتابه «الشعر والشعراء» وابن المعتز(٤) وسواهما .. فدعوة ابن قتيبة «ولم يقصر الله الشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم»(٥) ، هى مشتقة من دعوة الجاحظ ، ونابعة من معينه .

---

(١) ٢ : ٢٧ الحيوان (٢) ٣ : ١٣٠ الحيوان

(٣) ٢ : ١٣٠ الحيوان

(٤) راجع رسائل ابن المعتز ، وابن المعتز وتراثه للمؤلف

(٥) ٧و٨ الشعر والشعراء ط القاهرة ١٩٣٢

— ٣ —

وهكذا يتجلى لنا الذوق الأدبي عند الجاحظ في أدبه ، الذى امتاز بالإبداع والسهولة واليسر ، يدخل من نفس القارىء مدخل صدق ، ويجمع بين الديباجة الحسنة ، والمعنى الدقيق ، واللفظ المونق ، والفكاهة البارعة، والسخرية النادرة ، والجد في موضعه والهزل في موضعه ، لا يتكلف ولا يتعسف ، يصور لك خلجات الروح ، وآهات النفس ، وأزمات العقل ويرسم لك الغامض من المعانى ، حتى لكأنها تكاد تلمسها لمساً ، ويصف لك المعلوم والمجهول ، ويحدثك عن المعقول والمنقول ..

ومن أروع الصور التي رسمها الجاحظ صورة خصى يصور حنينه إلى جمال المرأة وسحرها ، وهو أبو المبارك الصابي ، وكان الخلفاء والوزراء يبعثون إليه ، ويسمعون منه ، ويسمر عندهم ، للذى يجدون عنده من الفهم والإفهام ، وطرف الأخبار ، ونوادر الكتب ، وكان قد أربى على المائة ؛ وفي هذه الصورة الأدبية الرفيعة يصور الجاحظ أبا المبارك غزلا مولعا بالجمال يسمع نغمة المرأة . فيظن أن كبده قد ذابت ، ويظن مرة أخرى أنها قد انصدعت ، ويظن ثالثة أن عقله قد اختلس(١) .

الصدق والبهاء والروعة والسحر والإبداع والبساطة هى كلها عناصر أدب الجاحظ ، وخصائص فنه ، وبلاغته قطعة من نفسه ، وصورة لمذهبه وطريقته ، ولا تجد ذوقا أشد رهافة وإحساسا بالجمال من ذوق أبى عثمان ، الشديد الشعور بجمال اللفظ والعبـــارة والصورة ؛ فهو يتخير من الألفاظ أروعها ، ومن العبارات أجودها ، ومن الصور أوضحها وأدقها فى تصوير مايريد الإبانة عنه .

---

(١) ١ : ١٢٥ - ١٢٨ الحيوان ، ولعل الجاحظ كان يصور حرمانه هو من المرأة ومن الاستمتاع بجمالها فى هذه الصورة البارعة

وكلما حصف الذوق ، وقوى الشعور الفنى والإحساس الجمالى فى نفس صاحبه ، كان إدراكه للجمال أيسر وأعمق ، وأوضح من كل شىء ؛ وهكذا كان أبو عثمان - بما وهبه الله من أسباب التمييز الفنى والإدراك الذوقى لمواضع الجمال والبلاغة فى الأسلوب — يتميز بأسلوبه الخاص ، وعبارته التى هى له وحده وبشخصيته الفنية المستقلة ، التى لايشاركه فيها أحد سواه . ومن قوة ذوق الجاحظ الأدبى ، كانت تنبعث دائما عنه كل عناصر الصدق والجمال والعمق فى أدبه . .

للجاحظ أسلوبه وعباراته وألفاظه وصوره الخاصة به ؛ وله شخصيته الواضحة فى كتابته ونثره الفنى ، والخلود الأدبى دائما مدين لشخصية الأديب الفنية وملكيته لعبارته ، لأنهما مقياسه الصحيح وميزانه العادل .

ولن تجد أديبا كأبى عثمان يتمثل فى أدبه هذان العنصران كاملين واضحين تمام الوضوح . فشخصيته الفنية تظهر فى كل ما كتب وصور من أدب وحكمة وفى كل ما ألف وأنتج من تآليف ورسائل، إنه له أسلوبه الخاص به وعبارته التى هى له وحده ، وصوره التى لا يستطيع أحد أن يجاريه فيها فليس مقلدا لغيره ، ولا تابعا فى هذا لسواه ؛ فله رصيد ثمين من اللغة والبلاغة والبيان ، وهو يملك عبارته ملكية خاصة ، فهى له ، وليست لغيره ؛ وعندما نقرأ أسلوبا من أساليبه نعرف أنه له وحده ، ولو أنك ألقيت قطعة من أدبه بين عشرات من القطع الأدبية لأدباء آخرين ، لما صعب عليك أن تميز كلام الجاحظ من غيره ، مادمت تملك أسباب الذوق والخبرة بمذاهب الكلام وطرائق الأدباء .

وستجد من ظهور شخصيته ، ووضوح مذهبه ، وتميز عبارته ، ونصاعة بيانه ، مايرشدك إليه ، ويعرفك به ، فأسلوبه لاينازعه فيه منازع لأنه خاص به ؛ وهذا قلما نراه كثيراً لغيره من الأدباء(١) .

---

(١) راجع ٢ : ٣٤٠ أمراء البيان لمحمد كرد على

وأدبه دائما منبعث عن تجارب فنية عميقة ، تجارب تختلط بلحمه ودمه وفكره،وتمتزج بعقله وروحه ووجدانه امتزاجا شديداً . كان لا يصدر شيئا إلا عن عاطفة صادقة ، وحقائق صحيحة،وقد غلب الصدق عليه فى كل ما كتب وألف وحبر ، ونظم من بلاغات ، وسجل من حقائق ، ودون من آراء ، مما منح أدبه قوة التأثير ، فقد كان كلامه يخرج من قلبه فيصل إلى قلوب الناس وعقولهم ، وكان يردد دائما أن الكلمة إذا خرجت من القلب وصلت إلى القلب بيسر ، ودون استئذان . لأنه كان يبعث فى نفوس قرائه من العواطف مثل تلك التى أثارته وهزت وجدانه . والتأمل الذهنى العميق ، والبساطة التامة فى اللفظ والمعنى والأسلوب ، والإخلاص فى التعبير ، والصدق فى التصوير ، كلها هى أدواته فى الأداء والكتابة . . إلى لغة شاعرة ، كان الجاحظ يملك كل أسبابها ، فهو يستخدم الألفاظ استخداما عجيبا كأنها عجينة فى يديه يصنع منها مايشاء كما يشاء .

وغاية ما أقوله أن الجاحظ يعد من الأدباء القليلين الذين كان لهم أكبر الأثر فى الأدب ، وإنه رزق الحظوة فى أسلوبه ، فكان سهلا عذبا واسعا فكها بليغا مصيبا ، يتتبع المعنى ويقلبه على وجوهه المختلفة ولا يزال يولده حتى لا يترك فيه قولا لقائل ... وذلك دليل ذوق متمكن وشعور عميق ، وإحساس صادق بالجمال والفن والحياة .

وهكذا كان أبو عثمان صوت عصره ومصره ، وصورة بيئته وحياته وشخصيته وثقافته وثروته الأدبية والفكرية الواسعة ، والآلة المحكمة التى أحسنت نقل أصوات أهل جيله .. سجل المفاخر والمثالب ، وحمل إلى أبناء القرون اللاحقة أقانين من أدبه ، جملها بروح الحق والصدق ووشاها بسحر القول ، وبلاغة الكلام .

الفصل الرّابع

الكاتب الواقعى

ونتنقل أخيرا إلى أهم سمة للجاحظ وأدبه ، وهى واقعيته ، هذه الواقعية المتصلة بالحياة المشاركة للمجتمع مشاركة صحيحة فعالة ، مع قوة الملاحظة ، ومعرفة الجزئيات التى تؤدى إلى الكليات ، ومع الإيمان بالتجربة والاتكاء على آثار المشاهدة .

تناول أبو عثمان بيئته وعصره وحياته وثقافته وتجاربه ، تناول الأديب الكامل الموهبة المرهف الحس والذوق ؛ وصاغ من كل ذلك ، أوصاف الأشخاص ، والبيئات والزمان والمكان ، وصوره تصويرا مطابقا للواقع المشاهد مع البراعة فى رسم الحقائق ، وتناول الأحداث ، والتعبير عن واقع الحياة ؛ ومع العناية باللفظة والصيغة والصورة .

واقعيته إذا هى واقعية الأديب المتفـــائل المرح الطموح المتطلع إلى الحياة ، والذى يستمد أدبه من حياة كل الناس والطبقات والبيئات . فى الصحراء والمدينة ، فى العاصمة والقرية ، فى الريف والحضر . .

كان أبو عثمان ذا عقل كبير وقلب أكبر ، وعبقرية موهوبة ، تعطى الناس والشعب والحياة من نفسها أكثر مما تأخذ ؛ وكان عقله الذكى ، وخياله اللماح ويراعه البليغ ، أدوات تصوير واعية دقيقة تلتقط مايتساقط عليها من أشعة الوجود وألوان الطبيعة وصور الحياة .

كتب أبو عثمان عن التاجر والعامل والفلاح والصانع والموظف ، وكتب عن السود والبيض والحمر ، وعن الخصيان والغلمان والفتيان والنساء

والجوارى والقيان والمغنين والمعلمين والأدباء والشعراء (١) والقصاص (٢) والرواة والإخباريين ؛ وكتب عن المذاهب والنحل والآراء والفرق ، وعن الوزراء والخلفاء ، وعن الحيوان والنبات والجماد ؛ وفى كل موضوع وعرض لكل مسألة ، ولم يغادر شيئا إلا تحدث عنه وصوره تصويرا دقيقا . كل ذلك بقلب الإنسان الكبير ، وشعور الموجه الاجتماعى المخلص ، وبمسئولية الأديب الكاملة عن عصره ومجتمعه ، وبروح العطف على الفقراء ، والمساكين والضعفاء ، والرحمة لكل صغير حتى يكبر ، وضعيف حتى يقوى ، وفقير حتى يغنيه الله من فضله ، فهو يفيض منها على الناس دون أثرة أو خوف .. تحدث عن مختلف الحضارات والبيئات ، والأمم والشعوب والقبائل والمجتمعات ؛ وصور كل ماسمع وقرأ وجرب .

والجاحظ فى كل ما كتب لم يكن يكذب على الحقيقة وواقع الحياة (٢) وفى رأيه أن الأدب غاية (٢) وهى لاتفترق فيها عنده الناحية الجمالية عن الجانب الاجتماعى والواقعى .

والاستقراء والاستقصاء اللذان رباهما فى نفسه اعتزاليته وروحه العلمية وتجاربه ؛ إلى روح الفكاهة والمرح السارية فى أدبه والنزعة القصصية الواضحة .. هى بعض خصائص أدب الجاحظ (٢) .

والجاحظ أول كاتب عربى دافع عن المرأة ، مع أنه فى أول أمره كان

---

(١) ١٣٤ النقد المنهجى عند الجاحظ .

(٢) منهم أبو كعب القاص وكان يقص فى مسجد عتاب بالبصرة كل أربعاء (٣ : ٢٥ الحيوان) ، وأبو على الأسوارى البصرى ، وذكره الجاحظ فى البيان والتبيين .

(٣) ١٨٥ النقد المنهجى عند الجاحظ

ناقما عليها، ونذر ألا يتزوج، ولعل نقمته كانت نقمة حرمان (١) .. ويدل على قلب الجاحظ المملوء بالخير والرحمة والجمال قوله: «كل ماقبح فى العين فهو مؤلم، كل ماشنع فى النفس فهو مؤذ» (٢). ويذكر أخلاق الخصيان ثم يقول: «وكل خصاء فى الدنيا فإنما أصله الروم، وحسبك بصنيع الخاصى قسوة» (٣) ويصور عملية الخصاء ويقول: «وللخاصى عند ذلك ظلم لايفريه ظلم، وظلم يربى على كل ظلم» (٤).

ولا يجامل الجاحظ الدولة على حساب الحقائق فيقول: هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبنى مروان، ويعنى بذلك صنيع العباسيين فى إزالة آثار الأمويين وتدميرها.

والصور التى كتبها الجاحظ عن المجتمع فى عصره كثيرة منوعة، ويضيق المقام عن حصرها، وقد رسم أبو عثمان نفسه فى هذه الصورة، التى تحدث فيها عن اسحاق بن سليمان العباسى والى البصرة قال: دخلت عليه فى إمرته، فرأيت السماطين والرجال مثولا كأن على رؤوسهم الطير، ورأيت فرشته وبزته، ثم دخلت عليه وهو معزول، وإذا هو فى بيت كتبه، وحواليه الأسفاط والرقوق، والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر - يريد فى حجرة مكتبته - فمارأيته قط أفخم ولاأنبل ولاأهيب ولاأجزل. منه فى ذلك اليوم؛ لأنه جمع مع المهابة المحبة، ومع الفخامة الحلاوة، ومع السؤدد الحكمة (٥).

صور الجاحظ كل شىء تحدث عن الحياة، وطموح الإنسان فيها،

---

(١) ٢ : ١٨٤ المنهل فى تاريخ الأدب العربى - روكس العزيزى.
(٢) ١ : ١١٩ الحيوان.
(٣) ١ : ١٢٤ المرجع.
(٤) ١ : ١٢٩ المرجع.
(٥) ١ : ٦١ الحيوان.

ومجالدة الناس لها فى سبيل ترقيتها . كتب بعد الدرس الطويل والخبرة الواسعة ، وتجارب السن العالية ، ولم يكتب إلا عن معاناة ودرس وبحث ؛ عرف مافى الأرض من أعاجيب ، ومافى السماء والكون من غرائب ، ووكده مصروف إلى إرضاء من يواصل السير معه ويعاشره ويرافقه من قرائه ؛ لايحتقر شيئا يدخل فى باب الآداب ، ولايستنكف عن الأخذ من كل مصدر ، ويحاول كشف كل غامض ، وأن يستقرىء ويستنبط كلما أمكنه الاستقراء والاستنباط . . كتب بقلبه ونفسه وعقله ، وأغزر فى الأدب معانيه . وجعل له موضوعا (١) ؛ وفى الفلسفة والعلم والآراء كتب يقربها إلى الأذهان ، فصاغ الفلسفة صياغة أدبية واضحة ، وخرج بنتائج تغذى العقل وتلذ للقلب .

وهكذا كان أبو عثمان يسير مع الحياة فى كل خطواتها ، وكل اتجاهاتها ؛ فى جميع مجالاتها وميادين النشاط الإنسانى فيها ، لأنه أحب الحياة فتذوقها ، ثم عرفها وخبرها وجربها ففهمها ، ثم وقف منها موقف المصور حينا والناقد حينا ، والموجه حينا آخر . . فكان بذلك أبلغ الكتاب الواقعيين فى العصور القديمة .

---

(١) ٣ : ١٤٠ ضحى الإسلام .

الفصل الخامس

الجاحظ الشاعر

— ١ —

بلغ الشعر العربى فى عصر الجاحظ وعلى يدى المولدين غاية نهضته وازدهاره، فتعددت مدارس الشعر، ومدارس نقاده كما تعددت مذهب رواته وعلمائه، ونبغ أعلام الشعر العربى فى هذا العصر، واحتفت جميع البيئات بالشعر والشعراء؛ وقد ظهر التجديد الشعرى فى عصر الجاحظ فى مظاهر ثلاثة: رقة العبارة، والتفنن فى المعانى، والتوفر على صناعة الشعر وفنه.

وقد دعا النقاد كالجاحظ وسواه إلى العذوبة والبلاغة والسهولة والنصاعة، والرقة والوضوح؛ وأصبحت القصيدة العربية ذات وحدة موضوعية ظاهرة، وظهرت فيها آثار الثقافات والحضارة، ودقت المعانى وحصفت واستحكمت؛ وأصبح المحدثون أكثر ابتداعا للمعانى، وألطف مأخذ وأدق نظرا (١)؛ ونظم الشعراء فى عصر الجاحظ الشعر فى أغراض جديدة، استدعتها البيئة والحياة وآثار الحضارة والثقافة فى العصر العباسى. وكان للثقافات المترجمة آثارها العميقة فى أغراض الشعر ومعانيه. وترجم كتاب الشعر لأرسطو واطلع عليه بعض النقاد والأدباء فكان له صداه فى أفكارهم على أن الجاحظ لم يشاهد زمن ترجمة هذا الكتاب (٢)؛ ولكنه غالبا شاهد

(١) ١٣٦ المثل السائر

(٢) ١٣٣ النقد المنهجى عند الجاحظ

كتاب « الخطابة » لأرسطو مترجما (١) وقرأه واستفاد منه ، وإن كان ذلك لايزال موضع خلاف بين الباحثين كما أسلفنا .

وأثر الغناء والرقى الفنى فى أذواق الشعراء وشعرهم ، فما لوا به إلى الرقة والعذوبة والغنائية الحلوة الجميلة والتجديد فى أوزانه وقوافيه .

— ٢ —

وقد ظهر الجاحظ إبان هذه النهضة الشعرية الكبيرة ، ومع أنه بلغ القمة فى النثر الفنى والعلمى ؛ فإنه استوى له من الشعر والشاعرية ، مايصح أن نطلق عليه من أجله لقب الشاعر . ولكنه لم يتفوق فيه ، ولم تطر له فى مجاله شهرة ؛ وعنى بكتبه وبالكتابة أكثر مما عنى بالشعر والشاعرية ؛ وكان الجاحظ قد تعلق بالشعر ، وحاول التفوق فيه ؛ تفوقه فى النثر ؛ ولكنه كان مشغولا عنه ، غير متفرغ له ، فلم ينل من الشعر ماأمل ، ولم يبلغ فيه ما قدر (٢) ؛ وكان يقول : طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لايعرف إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لايحسن إلا إعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فرأيته لاينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأنساب والأيام ؛ ولم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب ، كالحسن بن وهب وابن الزيات (٣) . ويندر أن يكون للانسان موهبة عالية فى الشعر والنثر جميعا .

---

(١) اختصره الكندى الفيلسوف (٢٥٣ هـ) ، وغالبا اطلع الجاحظ على هذا المختصر ، وترجمه حنين بن اسحاق (٤٣ الخطابة لابراهيم سلامة) ، ثم ترجمه يحيى بن عدى ومتى فى القرن الرابع الهجرى من السريانية إلى العربية (٣٤٩ و ٣٥٠ الفهرست لابن النديم)

(٢) راجع المقامة الجاحظية من مقامات البديع الهمذانى وهى المقامة الرابعة عشرة من مقاماته

(٣) ٢ : ١٠٠ العمدة

روى للجاحظ شعر قليل ، فله قصائد مدح بها نجاح بن سلمة (٢٤٥ هـ) ، وابن أبي دؤاد ، وابن الزيات ، وابراهيم بن رباح ، وله شعر في غير المدح .

قال في ابن الزيات [١] (٢٣٣ هـ) :

بدا حين أثرى لإخوانه ففلل منهم شباة العدم
وأبصر كيف انتقال الزمان فبادر بالعرف قبل الندم

وهو شعر ضعيف لا قيمة له .

وقال في ابن سلمة (٢) :

سواء على الأيام صاحب حنكة وآخر كاب لا يريش ولا يبرى

وقال في ابن أبي دؤاد (٣) :

وعويص من الأمور بهيم غامض الشخص مظلم مستور
قد تسنمت ما توعر منه بلسان يزينه التحبير

ومنها (٤) :

فإذا ضمنا الحديث وبيت فكأني على الجميع أمير
رب خصم أرق من كل روح ولفرط الذكاء كاد يطير
فإذا رام غايتي فهو كاب وعلى البعد كوكب مبهور

وقال في ابن رباح (٥) :

وعهدى به والله يصلح أمره رحيب مجال الرأى منبلج الصدر

(١) ١ : ٤٩٧ زهر الآداب ـ ط الحلبي ، ١٦ : ٨١ معجم الأدباء
(٢) ١٦ : ١١٦ معجم الأدباء
(٣) ١٦ : ٨٠ و ٨١ ـ المرجع
(٤) ١٦ : ٨١ المرجع
(٥) ١٦ : ٩١ معجم الأدباء

وهجا الجاحظ الشاعر الجماز البصرى (١) ، فقال (٢) :

نسب الجمـــاز مقصـ ـــور إليه منتهاه
يتناجى من أبو الجمـ ـــاز فيه كاتباه
ليس يدرى من أبو الجمـ ـــاز إلا من يراه

فرد عليه الجماز يقول :

يافتى نفسه إلى الـ ـكفر بالله تائقة
لك فى الفضل والتزهـ ـد والنسك سابقة

وللجاحظ أبيات فى ابراهيم بن المدبر (٣) ، وأخرى فى فضل العلم والعلماء (٤) ، وفى الخضاب (٥) .

وروى له أبو الحسن البرمكى (٦) :

وكان لنا أصدقاء مضوا تفانوا جميعا وما خلدوا
تساقوا جميعا كؤوس المنون فمات الصديق ومات العدو

وروى للجاحظ فى مرضه :

لئن قدمت قبلى رجال فطالما مشيت على رسلى وكنت المقدما
ولكن هذا الدهر تأبى ظروفه فتبرم منقوضا وتنقض مبرما

---

(١) شاعر بصرى أديب ماجن ، دخل بغداد أيام الرشيد ، وفى أيام المتوكل الذى أعجب به ، وأمر له بعشرة آلاف درهم فمات فرحا بها ، وقد ذكر الجاحظ شعرا له فى « الحيوان » ص ١٧٥ ج ١ وهو فى جارية له ، والجماز ابن أخت سلم الخاسر ، وقد جاءت أخبار مفرقة له فى (ص ٤٦ و ٤٧ أدب الجاحظ للسندوبى)

(٢) ١٦ : ٨٢ معجم الأدباء وتنسب الأبيات لعبد الصمد بن المعذل .

(٣) ٣١٤ رسائل الجاحظ (٤) ١٦ : ٨٩ معجم الأدباء

(٥) ١٦ : ٨٩ المرجع السابق (٦) ٣ : ١٤٤ وفيات الأعيان

وهو شعره ضعيف كله ، وليس له قيمة فنية كبيرة ، ولا يحمل ثقافة الجاحظ ولا يعرب عن شخصيته فى قليل ولا فى كثير . إنما هو أثر من آثاره للتسجيل والذكرى فحسب .

— ٣ —

وللجاحظ آراء كثيرة فى الشعر ، سوف نذكر مايتصل منها بنقده فى موضع آخر . ونذكر هنا بعض الآراء الأخرى

كان الجاحظ يرى أن ترجمة الشعر تفسد بلاغته ، فمتى حول الشعر تقطع نظمه ، وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وصار كالكلام المنثور ؛ ولو حولت حكمة العرب ـ الشعر ـ لم يجدوا فى معانيها شيئا لم تذكره العجم (١) .

وللجاحظ آراء فى أولية الشعر العربى وفى انتحاله وتحقيق رواياته وفى غير ذلك (٢) .

وقد أشاد بأبى نواس كسابق ، وأشاد بخمرياته (٣) ؛ ويقول أبو عثمان : إن أجود الشعر مارأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، كأنه قد سبك سبكا واحدا ، وأفرغ إفراغا جيدا (٤) .. إلى غير ذلك من الآراء .

---

(١) ١ : ٧٤ و ٧٥ الحيوان
(٢) ٧ ـ ٥٨ النقد المنهجى عند الجاحظ
(٣) ٤ : ١٤١ و ١٤٢ . العقد الفريد ـ ط التجارية
(٤) ٦ المصون لأبى أحمد العسكرى ط الكويت ١٩٦٠ ، ١ : ٦٧ البيان للجاحظ

الباب الثامن

شيخ البلاغيين والنقاد

الفصل الأول

إمام البيان العربى

— ١ —

اهتدى العربى بذوقه وإحساسه الفنى . ووجدانه الأدبى ، إلى مايشبه الأصول التى يحتذيها فى كلامه ، وينسج على نمطها أدبه ، وتحدث منذ العصر الجاهلى عما استطاع أن يفصح عنه من أشباه هذه الأصول والقواعد ومناهج الأداء .

وفى القرن الأول بدأ اللحن الإعرابى فى الظهور بتأثير الموالى واختلاط العرب بالعجم فجهد العلماء فى وضع قواعد النحو العربى ، ثم جهدوا فى تدوين ألفاظ اللغة بعد ذلك . استشرت عدوى اللحن البيانى ، وأصبحت الألسنة لاتستطيع « البيان والتبيين » فأخذ العلماء العرب فى بحث مشكلات البيان العربى ، واتجهوا إلى الدراسات الأدبية والبيانية ، وإلى بحث عناصر بلاغة الكلام ، وتوجيه أذهان الأدباء والكتاب إلى المقبول من الأساليب وطرق الأداء ، وإلى التفكير فى المعنى ، ومراعاة شتى المقامات والأحوال ؛ وكانت عناصر هذه الثقافة البيانية تظهر عند طبقتين :

الأولى : طبقة رواة الأدب العربى من البصريين والكوفيين والبغداديين ، من أمثال : خلف والأصمعى ، وأبى عبيدة ، وأبى زيد ، ويحي بن نجيم . وعمرو بن كركرة ، وابن سلام ، وأستاذهم هو : أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية (١) وهو من أعلام البصرة وشيوخها

---

(١) ١ : ٢٠٦ البيان والتبيين ، ١١ : ١٦٠ معجم الأدباء

(٧٠ - ١٥٤ هـ)(١) ؛ ومن عامة رواة الأدب والبيان ، الذين لايقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة ، والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ؛ وعلى الطبع المتمكن ، والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ؛ وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها ، وفتحت للسان باب البلاغة ، كما يقول الجاحظ ، دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب ، والإخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل ، واللغويين الذين لايروون إلا كل شعر فيه غريب(٢) .

وبجوار هذه الطبقة الشعراء الذين طارت شهرتهم فى الآفاق من أمثال: ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدوس وأبى نواس وأبى العتاهية والسيد الحميرى وأبان اللاحق ومنصور النمرى وأشجع السلمى وسلم الخاسر وابن أبى عيينة ويحي بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن يسير والعتابى ومسلم وأبى تمام(٣) . وغيرهم من الخطباء ورجال الأدب والبيان من بيت بنى هاشم وبنى العباس ، ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية ، لاسيما المعتزلة وفرق المتكلمين ، الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٤) .

والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قط قوما أمثل طريقة فى البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعراً وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا(٥) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم(٦) ، وحكم مذهبهم فى نقد البيان(٧) .

---

(١) ١ : ٢٢٣ العبر للذهبى
(٢) ٣ : ٢٢٤ البيان
(٣) ١ : ٥٤ البيان
(٤) ١ : ١٠٦ البيان
(٥) ١ : ١٠٥ البيان
(٦) ٣ : ٣٢٥ البيان
(٧) ١ : ٢٤٠ البيان

وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط ، من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم ، ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية ، وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الأدب والكتابة والبيان ، ويدعون إلى آراء تمس الذوق ، وترضى العقل واتجاهات الحضارة ، كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم ، كما نرى فى محاضرة بشر ابن المعتمر المعتزلى (٢١٠ هـ) فى أصول البلاغة ، التى يقول فيها الجاحظ إن بشرا : مر بإبراهيم بن جبلة وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف بشر ، وقال : اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم بصحيفة من تحبيره وتنميقه ، وتحتوى على عناصر للبلاغة وأصول للبيان (١) ، ويعد أحمد أمين فى ضحى الإسلام بشر بن المعتمر المؤسس الأول لعلم البلاغة العربية (٢) . .

ومن هذه الطبقة : أبو العلاء سالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٣) ، وابن المقفع وسهل بن هارون والحسن والفضل ابنا سهل ، ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف وابن الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم . ولهذه الطبقة أثرها فى بحث عناصر البيان والبلاغة ، هى وجماعات المتكلمين والمعتزلة الذين أثاروا كثيراً من المشكلات البيانية عن قصد وعن غير قصد .

- ٢ -

وظهر الجاحظ والبلاغة العربية فى أوج ازدهارها : شعرا ونثراً ومحاضرة وحواراً وجدلا وتأليفا وسواها ، كما ظهر وعناصر البيان العربى

---

(١) ١ : ١٠٤ البيان

(٢) ٣ : ١٤١ و ١٤٢ ضحى الإسلام

(٣) ١ : ٥١ البيان

تكاد تخطو فى طفولتها العلمية نحو الشباب والقوة والوضوح والتمايز والاستقلال ، وهو راوية وكاتب وأديب ومتكلم ، فاستفاد من جميع هذه الجوانب فائدة كبرى أهلته لأن يتصدر حلقات البيانيين ، وأن يصبح إمام البلاغيين ، لأثره فى هذا الجانب ، ولمكانته الأدبية ، إذ كان يوصف وبحق ماوصف ، بشيخ الكتاب .

خدم الجاحظ البيان العربى بالكتابة فيه ، وجمع مختلف الآراء والمذاهب فى عناصره وأصوله وألوانه ، فى جميع كتبه ، وخاصة فى كتابه الخالد « البيان والتبيين » ، ومانجده من آراء ضئيلة فى هدى الجوانب فى مثل الكتاب لسيبويه وكتاب « مجاز القرآن » لأبى عبيدة فإنما هوقليل من كثير مما نجده فى كتب الجاحظ .

والآراء التى سجلها الجاحظ عن البيان والبلاغة فى كتابه « البيان » تمثل مختلف الأذواق والمدارس والثقافات ، وهى بذرة صغيرة ، استنبتها الجاحظ حتى أنبتت نباتا حسنا مثمراً .

والجمع والإحصاء أول خطوات البحث دائما ، ووسيلة إلى التجديد والابتكار ، ومنزلة العالم فى الجمع لا يمكن الغض منها ، وشخصية أبى عثمان فيما يجمعه واضحة وضوحها فيما يبتكره من آراء ومذاهب .

وحسبنا أن نقرأ فى « البيان » البلاغة كما صورها بشر بن المعتمر (١) ، أو كما رآها ابن المقفع (٢) ، أو كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة (٣) ، فهذه النصوص وغيرها قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين بسببها الجاحظ

---

(١) ١ : ١٠٤ البيان — السندوبى

(٢) ١ : ٩١ البيان

(٣) ١ : ٧٩ البيان

مؤسس البيان العربى ، لأن ماجمعه من نصوص يوضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربى ، ويعطينا صورة مجملة لنشأته (١) .

على أن للجاحظ آراء كثيرة فى البيان والبلاغة ، أبداها فى مناسبات مختلفة ، وأكثرها كانت نقداً لآراء فى البيان والبلاغة ، سمعها أو قرأها . ومن هذه الآراء الجاحظية عرضه لتنافر الحروف والكلمات مما دعا فيه إلى أن أجود الشعر مارأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج (٢) ، وتقريره لكلام بليغ فى أن بلاغة الكلام أن يسابق لفظه معناه ومعناه لفظه (٣) ، وتقريره لبلاغة الاستهلال مستدلا برأى لابن المقفع حولها (٤) ، ولرأى ابراهيم بن محمد فى البلاغة وأنه يكفى من حظها ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ولا الناطق من سوء فهم السامع (٥) ، واختلف (٦) فى الخطابة وهل تستجاد فيها الإشارة والحركة ، فذهب النظام إلى ذلك ، ورأى أبو شمر عكس هذا الرأى ، فيذكر الجاحظ ذلك ويميل إلى رأى النظام ، محللا رأى أبى شمر .. واختلف كذلك فيما إذا كان السمت والجمال من تمام آلة البليغ أم لا ؟ فذكر الجاحظ ذلك وذهب مذهب سهل بن هارون فى عدم عدهما من أدوات البلاغة (٧) .

وكثرة الكلام هل تعد عيا أو بلاغة ، يرى الجاحظ الأول ويرد على

---

(١) طه حسين ـ ص ٣ مقدمة نقد النثر
(٢) ١ : ٦٢ البيان
(٣) ١ : ٩١ البيان
(٤) ١ : ٩٢ البيان
(٥) ١ : ٧٥ المرجع
(٦) ١ : ٦٩ و ٧٧ و ٧٨ المرجع
(٧) ١ : ٧٦ المرجع

إياس الذى ذهب إلى الثانى (١) . وتكرير الحديث اختلف فيه أيضا ففضل الجاحظ الكلام حوله وأدلى برأيه فيه (٢) ، وكذلك اختلف فى الاقتباس من القرآن والشعر فى الخطبة ، فذكر الجاحظ ذلك وروى مذاهب البلغاء فيه (٣) ، ويحلل تعريف العتابى للبلاغة بأنها كل ما أفهمك الغرض (٤) ، وكذلك اختلف فى الصمت : أمحمود أم مذموم ، فذكر الجاحظ ذلك ورأى أن الصمت عى لا بلاغة (٥) ، وإجادة الأديب لفن من فنون الأدب دون فن يتحدث الجاحظ حولها ويناقش الآراء فيها ويذهب إلى أن اختلاف المواهب تدعو إلى ذلك (٦) . ويعجب الجاحظ ببلاغة الكتاب (٧) : وحديث الأعراب الفصحاء (٨) وبلاغة المتكلمين والنظارين (٩) ، ويتحدث عن البلاغة عند كثيرين من الأدباء راويا وصف ثمامة لبلاغة جعفر بن يحيي (١٠) ، وواصفا هو بلاغة ثمامة (١١) ، ويصف بلاغة بليغ يحذر من سحر الكلام وأثره (١٢) ، والجاحظ هو نفس هذا البليغ ، إذ كثيرا ما يتكلم أبو عثمان فيخرج آراءه فى معرض الرواية عن سواه .

---

(١) ١ : ٨٢ المرجع

(٢) ١ : ٨٤ و ٨٥ المرجع

(٣) ٢ : ١٩ المرجع

(٤) ١ : ١٢١ المرجع

(٥) ١ : ١٤٣ - ١٤٨ و ١٨٣ - ١٨٥ و ٢٠٥ البيان

(٦) ١ : ٥١ و ١٥٠ و ١٥١ ، ٢ : ٢٥٩ البيان

(٧) ١ ، ١٠٥ ، ٣ : ٢٢٥ المرجع

(٨) ١ : ١١٠ المرجع (٩) ١ : ١٠٦ المرجع

(١٠) ١ : ٨٥ المرجع

(١١) ١ : ٨٩ المرجع

(١٢) ١ : ١٧٦ و ١٧٧ المرجع

ويذم الجاحظ بلاغة المتقعرين (١) ، ومذاهب الشعوبية فى العرب وبيانهم (٢) ؛ ويناقش الرأى حول أداة الكتابة والشعر وهل كانت فى رسول الله معدومة ، ويدلى برأيه فى ذلك (٣) ، ويعلل لأمية الرسول وعدم قرضه للشعر (٤)، ولقوله صلى الله عليه وسلم: نحن معشر الأنبياء بكاء (٥) . إلى غير ذلك مما يمثل شخصية الجاحظ فى بعض ما ناقش فيه رجال البيان فى أوضح صورها ، وأكمل ذروتها ؛ وإذا كان مؤلف « نقد النثر » لم يعترف بأهمية كتاب « البيان والتبيين » فى مجال البحث البلاغى (٦) ، فإن أبا هلال العسكرى قد نوه به وإن وصف بحوثه فى البيان بأنها موجزة مفرقة (٧) ، ويرى ابن شهيد فى رسالته « التوابع والزوابع » أن الجاحظ لم يكشف فى كتاب « البيان » عن وجه تعليم البيان ضنا بالفائدة ، وشحا بثمرة العلم (٨) ، ولعله يرى أن الجاحظ لم يعلم الناس فى كتابه أساليب البلاغة ، ولم ينتح فيه ناحية تطبيقية ، وهذا رأى غير عادل ولا دقيق ؛ والجاحظ فى كتابه يعرف البيان بأنه ما كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته (٩) ، ويلخص البلاغة فى أنها « بيان وتبيين » .. وقد ذكر أبو عثمان مذاهب النقاد فيه ، وفصل الحديث حوله (١٠) وحول عناصره (١١) .

كما تحدث فى الكتاب عن الخطابة والنثر والشعر حديثا مطولا مفرقا ،

---

(١) ١ : ٢٤٠ البيان (٢) ١ : ١٥ و ١٦ المرجع
(٣) ٣ : ٢٣٠ و ٢٣١ المرجع (٤) ٢ : ٢٢٨ المرجع
(٥) ٣ : ٢٧٦ المرجع (٦) ص ١ نقد النثر
(٧) ص ٦ و ٧ الصناعتين ـ ط صبيح ـ القاهرة
(٨) ١٩٨ الذخيرة لابن بسام (٩) ١ : ٦٨ و ٨٥ البيان
(١٠) ١ : ٣٠ و ٣١ و ٢٣ و ٤٤ - ٤٦ و ٥٨ - ٦٤ و ٦٦ و ٦٧ و ١٠٦ - ١٠٨ و ١١٠ و ١٢١ و ١٤١ و ١٧٦ و ٣٣٩ ، ٢ : ١٥٤ و ١٥٥ البيان
(١١) مواضع متفرقة من « البيان »

ويكرر الجاحظ فى كتابه اصطلاحات بيانية مثل صناعة المنطق (١) ، وصناعة الكلام (٢) التى يقول فيها إنها جوهر ثمين وهى العيار على كل صناعة والزمام لكل عبارة ، وهى لكل تحصيل آلة ومثال (٣) .

ودعا الجاحظ فى « البيان » إلى مذهب أدبى جديد فى اللفظ والأسلوب والمعنى والنظم ومراعاة شتى المقامات والأحوال ، إلى غير ذلك ، مما هو أليق بمذاهب المحدثين ، وبالحضارة التى آلت إليها حياة العباسيين ؛ والجاحظ يدعو إلى عذوبة المحدثين ورقتهم وإلى البعد عن مذاهب البداوة التقليدية فى الأدب والبيان ، وذلك فى مواضع كثيرة متفرقة فى كتابه .

— ٣ —

على أن الجاحظ له شخصية الواضع لأصول البلاغة والبيان فى كتابه الكبير « البيان » .

فقد عرض لألوان كثيرة من البيان ، فذكر البديع (٤) والسجع (٥) والاستعارة (٦) ، والتقسيم (٧) والاستطراد (٨) والكناية (٩) والتشبيه (١٠)

---

(١) ١ : ٤٨ و ٦٧ و ٢٠٩ و ٢٤٢ البيان

(٢) ١ : ٦٩ و ٢٢٠

(٣) ٢ : ٨٥ زهر الآداب ط ١٥٩٣ الحلبى - القاهرة

(٤) ١ : ٥٤ و ٥٥ ، ٣ : ٢٤٢ البيان (السندوبى)

(٥) ١ : ١٩٤ و ١٩٥ ، ٣ : ١٦ البيان

(٦) ١ : ١١٥ و ١١٦ و ١٩٢ البيان

(٧) ١ : ١٧٠ ، ٢ : ٩١ و ٩٢ البيان

(٨) ١ : ١٣٨ ، ٣ : ١٠٥ (٩) ١ : ١٨٠ ، ٣ : ٣١

(١٠) ٢ : ٢٢٩ ، ٣ : ٢٤٣

كما عرض للإيجاز(١) وللقلب(٢) وغيرها من الأساليب ؛ ولم يعرض لهذا الألوان عرض البلاغيين ـ فيما بعد ـ لها ، بل عرض الأديب المتذوق الناقد .

وعرض الجاحظ كذلك للمجاز(٣) ، والأسلوب الحكيم(٤) ؛ والجاحظ أول من لقب «المذهب الكلامى» بهذا الإصطلاح (٥) ، ويقرر مذهب «المساواة» فى البلاغة فى كتابه «البيان» حين ينادى بأن الألفـــاظ على أقدار المعانى (٦) .

والمتكلمون المعتزليون وفى مقدمتهم الجاحظ كان لهم فضل كبير فى الكشف عن أصول علم البلاغة ، وإثارة بحوثها ، وبجهده بدأت تتكون البلاغة ، وتتضح معالمها ، ورأى الجاحظ الذى جهر به وهو أن «المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتخير اللفظ وسهولة المخرج ، وفى صحة الطبع وجودة السبك (٧) » رأى مشهور ، وهو ماذهب إليه كثيرون من البلاغيين ومن الأدباء كابن خلدون (٨) ، ويقول شيلر : «الشكل فى الفن هو كل شىء ، والمعنى ليس شيئا مذكوراً » (٩) .

وهكذا نرى الجاحظ صاحب مذهب فى البيان والبلاغة وصناعة الكلام وهو مذهب تأثر به كل البلاغيين فى جميع العصور . . وقد كان لأبى عثمان وزنه عند شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجانى (٤٧١ هـ) حتى لنجده ينوه به

---

(١) ١ : ٨١ ، ٢ : ١٩٨ (٢) ١ : ١٨٠ المرجع
(٣) ٥ : ٤٢٥ الحيوان (٤) ٢ : ٢٠١ و ٢٠٢ البيان
(٥) ٢ : ٧٦ العمدة لابن رشيق ، ١٠١ البديع لابن المعتز
(٦) ٦ : ٨ الحيوان
(٧) ٣ : ١٣١ الحيوان ، ٥٧ الصناعتين ، ودلائل الإعجاز للجرجانى ١٦٧، ١٦٨
(٨) ٥٧٧ المقدمة (٩) ١٠٥ مملكة الجمال اقراءة

وبلاغته فى مقدمات كتبه (١) ، ويستدل بآرائه فى الإعجاز (٢) ، وينقل عنه كثيراً من الآراء فى مختلف المشكلات والبحوث البيانية (٣) ، وكان عبد القاهر لايجل أحدا كما يجل الجاحظ ، ولا يحترم رأيا كما يحترم رأيه ؛ وكذلك كان الكثير من علماء البلاغة ، وضرب عبد القاهر الجرجانى المثل ببلاغة الجاحظ وخاصة فى مقدمات كتبه ، وكان الجاحظ من أفصح الناس وأبلغهم لسانا ، وقد ضرب المثل ببلاغته ، حتى قيل : من دلائل الإعجاز إيمان الجاحظ به ، وكان أبو عثمان يرى أن البلاغة موجودة فى كل أدب وأمة ، كانت لليونان وكان أرسطو عالما بكلامهم وتفضيله ومعانيه (٤) وكانت للفرس والهند والعرب بلاغة ، وبلاغة العربى إنما هى بديهة وارتجال ، وبلاغة الهند لا تنسب إلى امرىء ولكنه لاينفيها ، وبلاغة الفرس ناتجة عن نظر وتدبر ، وكان يرى أن الإنسان فصيح وإن عبر عن نفسه بالفارسية أو الهندية أو الرومية (٥) .

ومع أن الجاحظ من المتكلمين ويجلهم (٦) ، إلا أنه كان يرى أن اصطلاحات المتكلمين لايجوز للبليغ أن يستعملها ، كما لايجوز للمتكلمين استعمال ألفاظ الأعراب فى جدلهم فى علم الكلام ، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل (٧) ، وقول الجاحظ «ولكل مقام مقال» هو أساس البلاغة

---

(١) ١٤ أسرار البلاغة ، ٦٧ دلائل الإعجاز (٢) ١٦٣ دلائل الإعجاز

(٣) راجع ١٦٧ و ١٦٨ و ٢٥٣ و ٤٠ دلائل الإعجاز تحقيق المراغى

(٤) ٣ : ٢٧ البيان (الخانجى) (٥) ١ : ٣٢ الحيوان

(٦) تمنى الجاحظ لخير الطب والمرضى أن يكون الأطباء هم المتكلمين كما سبق ، وتحرج من نقد من تحرم بحرمة الكلام وشارك المتكلمين فى الصناعة (٦ : ٣٧ الحيوان)

(٧) ٣ : ٣٦٨ الحيوان ، ويرى الجاحظ أن البليغ قد يستعمل ألفاظ المتكلمين تظرفا (١ : ١٣١ البيان طبع الخانجى)

فى وضعها عند جميع البلاغين ، وهو معنى قولهم « البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته » .

— ٤ —

ومن أجل كل ماتقدم يعد الجاحظ فى رأيى هو الواضع الأول لعلم البيان العربى ، والمؤسس بحق لأصول البلاغة ، وقد جعله ابن خلدون من السابقين فى التأليف فيها (١) ، ورأى طه حسين أنه أول من اهتم بالبلاغة وأنه مؤسس البيان العربى حقا (٢) ، وجهوده فى هذا المضمار هى الأساس الأول الذى قامت عليه علوم البلاغة ، والأصل الذى احتذاه المبرد فى « الكامل » وابن المدبر فى « الرسالة العذراء » ، وابن المعتز فى « البديع » ، وثعلب فى « قواعد الشعر » ، وابن عبد ربه فى « العقد الفريد » وأبو هلال فى « الصناعتين » ، وسواهم .

والنصوص الأدبية الغزيرة التى أوردها الجاحظ فى « البيان » وغيره من مؤلفاته كانت هى المادة الأولى التى جمع منها علماء البلاغة شواهدهم فى المعانى والبيان والبديع . وكتاب « البيان » بما حوى من روائع الشعر والنثر يعد أخطر أثر فى الأدب كما هو أخطر أثر فى علم البيان العربى ؛ وهكذا ورث أبو عثمان الأدب العربى درة متألقة بهذا الكتاب ، كما ورث اللغة العربية كتبا يجلها الأدباء إجلالا كإجلال العابد لكتابه (٣) .

والجاحظ ـ بكتابه « البيان » ، وبما جمع فيه من آراء فى البلاغة ، وبما أضاف إليها من جديد مبتكر من آرائه هو ـ لاشك أنه شيخ البلاغيين ، والمؤسس لعلم البلاغة العربية .

---

(١) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون

(٢) ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر

(٣) ٩٩ النقد المنهجي عند الجاحظ

الفصل الثانى

إمام النقاد

— ١ —

أبو عثمان الجاحظ علم من أعلام النقد فى الأدب العربى ، ولقد خلق ناقدا ، كما يخلق الشاعر شاعرا ، وخلف لنا ثروة نقدية طائلة ، يعز أن يكون لأحد مثلها . .

كان يولى الشعر والشعراء مزيد عنايته واهتمامه ، ولم يشغله الجانب العلمى عن الجانب الأدبى والنقدى ، لأنه كان أديبا وناقدا قبل أن يكون متكلما وعالما ورجل فكر ورأى .

وفى عصر الجاحظ انقسم النقاد إلى طبقة تتعصب الأدب القديم ، وأخرى مع المحدثين وأدبهم ، وثالثة تحكم الذوق الأدبى وحده ، وتحكم بالجودة لمن يستحقها جاهليا كان أم إسلاميا أم محدثا ؛ كالجاحظ وهو إمام هذه الطبقة ، والمبرد وابن قتيبة وابن المعتز (٢٩٦ هـ) ، وابن رشيق وأبى هلال فى الصناعتين ، والآمدى (٣٧١ هـ) فى « الموازنة » ، والقاضى الجرجانى (٣٩٢ هـ) فى « الوساطة » ، وابن رشيق فى « العمدة » ، وسواهم (١) .

— ٢ —

وقد صاحب النقد الأدبى الشعر وساير الشعراء منذ العصر الجاهلى : وفى القرن الأول الهجرى حددت أحكام النقد ، ونضجت آراؤه ، ودقت نظراته .

---

(١) ٧ - ٤٩ الحياة الأدبية فى العصر العباسى للمؤلف .

وفى القرن الثانى ـ الذى ولد الجاحظ فى منتصفه وعاش نصفه الثانى كله ـ بلغ النقد الأدبى مرحلة من مراحل تطوره ، واهتم الأدباء والرواة بنقد الشعراء والموازنة بينهم ؛ وأخذ العلماء فى وضع الجاهليين فى طبقات ، ولم يتركوا شاعرا مشهورا إلا رأوا رأيا فيه ، ولا فنا من فنون الشعر إلا نقدوه ونوهوا بما فيه من جيـــد وردىء ، وهم الذين جمعوا أقوال النقاد قبلهم فى الشعر والشعراء ، ووازنوا بين الإسلاميين والمتقدمين ، ونقدوا رواية الشعر وبنيته ومعانيه (١) .

وفى القرن الثالث الهجرى أخذ النقد فى النمو والازدهار وظهرت فيه مؤلفات استقل بها استقلالا واضحا ، على أيدى علماء اللغة والأدب ، والنقاد والكتاب والشعراء (٢) والأدباء ممن خاضوا فى أصول الموازنات والبلاغة وموازين النقد ؛ فظهر كتاب « فحولة الشعر » الأصمعى « وطبقات الشعراء » لابن سلام ، وصناعة الشعر (٣) للكندى (٢٥٣ هـ) ، ثم ظهرت كتب الجاحظ « البيان » و « الحيوان » وهى حافلة بالآراء النقدية ، وظهر بعده « قواعد الشعر » لثعلب ، وسواه .

— ٣ —

وللجاحظ مجاله الكبير فى النقد ، وفى كتبه ثروة كبيرة لما اشتملت عليه من أحكام وآراء نقدية عديدة ؛ ففى كتابه المشهور « البيان » يحلل فى دقة وتفصيل مذهب الطبع والصنعة فى الشعر (٤) ، ويشـــير إلى سرقات

---

(١) ٩٥ و ٥٦ المرجع السابق .

(٢) من بينهم بشار (٩٦ المرجع السابق) ، وأبو تمام (١ : ١٥١ زهر الآداب ، ٢ : ٢٠٩ العمدة لابن رشيق) .

(٣) ٣٥٩ الفهرست .

(٤) ١ : ٥٤ و ٥٥ و ١٢٠ ، ٢ : ٢١ — ٢٦ البيان (السندوبى) .

شعرية (١) وموازنات أدبية (٢) كثيرة ، ويحكم على الشعراء أحكاما نقدية ، أصيلة فى شتى فصول الكتاب ، وينقد أبا العتاهية (٣) والكميت (٤) وسواهما (٥) .

ويعرض الجاحظ لمناهج الرواه (٦) وهم من الطبقات التى عملت فى ميدان النقد . . وعصبية النقاد على المحدثين فى عصر الجاحظ وقبل عصره كانت ذائعة ، وأبو عثمان يعرض لها ويتحدث عنها ، فيقول : « والقضية التى لا أحتشم فيها ولا أهاب الخصومة أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والنابتة ، وليس ذلك بواجب لهم فى كل ماقالوه ، وقد رأيت أناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين ، ولم أر ذلك قط إلا فى راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفى أى زمان كان (٧) » وقد تابع الجاحظ فى ذلك ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » ، والمبرد فى « الكامل (٨) » ، وكذلك ابن المعتز فى كتبه

---

(١) ١ : ٨٩ و ١١٦ و ١٧٩ و ٢٥٥ المرجع ، وراجع ٣ : ٣١١ الحيوان .

(٢) ٢ : ٢٤٣ المرجع .

(٣) ٣ : ٥٢ زهر الآداب (التجارية ـ القاهرة) .

(٤) ٢ : ١٧٢ و ١٧٣ المرجع ، و ٢ : ١٤٥ العمدة ، ٥ : ١٧٠ الحيوان (ط ١٩٤٣ القاهرة) .

(٥) راجع ٩٨ و ٩٩ الحياة الأدبية فى العصر العباسى للمؤلف ، والنقد المنهجى عند الجاحظ لداود سلوم .

(٦) ٣ : ٢٢٤ البيان ، ٤ ، ٥ الكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره للصاحب بن عباد .

(٧) ٣ : ١٣٠ الحيوان .

(٨) ١ : ١٨ الكامل ، ٢ : ٢٦٠ أيضا .

ورسائله (١) . ويزرى الجاحظ بهذا التعصب ، ويعرض لتعصب أبى عمرو ابن العلاء (١٥٤ هـ) على الإسلاميين فضلا عن المحدثين (٢) .

والجاحظ معجب ببشار وأبى نواس ، ويقول : لانعلم مولدا بعد بشار أشعر من أبى نواس (٣) ، وليس هناك مولد إلا وبشار أشعر منه (٤) ، وكان النقاد والأدباء والشعراء ينوهون ببشار وشاعريته (٥) ، وأبو نواس عنده أشعر الناس فى قوله « كأن ثيابه أطلعن من أزراره قمرا » (٦) ، ويفضل أبياته « ودار ندامى » على كل الشعر (٧) .

ويفرق بين المولد والأعرابى بأن المولد يقول بنشاطه وجمع باله الأبيات اللاحقة بأشعار أهل البدو ، فإذا ما أمعن انحلت قوته واضطرب كلامه (٨) .

ويذكر الجاحظ بيتين من ردىء الشعر للعمى ، ويقول : وصاحب هذا الشعر لو غبر مع امرىء القيس والنابغة وزهير ، ثم مع جرير والفرزدق والأخطل والراعى ، ثم مع بشار وابن هرمة ، ألف سنة لما قال بيتا واحدا مرضيا أبدا (٩) .

---

(١) راجع : رسائل ابن المعتز تحقيق المؤلف .

(٢) ١ : ٢٠٩ البيان ، ٩٥ الحياة الأدبية فى العصر العباسى للمؤلف .

(٣) ١ : ١٧٠ العمدة ، ٤ : ٤٤٧ و ٤٤٨ الحيوان .

(٤) ١ : ١٩١ العمدة ، ٤ : ٤٥٧ الحيوان .

(٥) ص ٩٦ الحياة الأدبية فى العصر العباسى للمؤلف .

(٦) ٣ : ١٨٥ زهر الآداب .

(٧) راجع أدب الجاحظ للسندوبى ، ٢ : ٧٦٠ زهر الآداب (الحلبى) .

(٨) ٣ : ١٣٢ الحيوان .

(٩) ٥ : ٣١٥ الحيوان .

وينوه أبو عثمان بعلى بن جبلة [١] (١٦٠ - ٢١٣ هـ) ، وهو القائل فى أبى دلف (٢٢٦ هـ) :

إنما الدنيا أبو دلف بين مغزاه ومحتضره

وتوازن هذه القصيدة بقصدة أبى نواس :

أيها المنتاب عن عفره لست من ليلى ولا سمره

وكان المبرد يرفع من شأن قصيدة أبى نواس هذه إلى منزلة عالية [٢] .

وكان الجاحظ فى نقده ينظر إلى اللفظة والجملة ، وإلى الغرض والمعنى [٣] ، وإلى الحال والمقام ، وإلى الطبع والصنعة ، وإلى مذهب الشاعر وطريقته فى الأداء ، وغير ذلك من مقومات النص وعناصره .

ولا شك أن الجاحظ قد أرسى النقد الأدبى على قواعد ثابتة ، ووضع له أحكاما عادلة ، وكان يحكم الذوق أولا وأخيرا فى كل شىء ..

وهو بذلك من أئمة النقد ، والسابقين إلى وضع أصوله ومناهجه ومختلف مذاهبه وطرقه .

---

(١) ١٠٦ الورقة لابن الجراح - دار المعارف ١٩٥٣ ، ٣ : ٣٥ وفيات الأعيان تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

(٢) ٣ : ٣٦ وفيات الأعيان

(٣) راجع ٥ : ١٧٦ الحيوان

الباب التاسع

الجاحظ فى عالم الخالدين

الفصل الأول

الخلود لفكر الجاحظ وأدبه

— ١ —

رزق الجاحظ شهرة ، وذيوع صيت ، وعظمة ذكر ، ومجدا كبيرا ؛ وسار اسمه فى عصره وبعد عصره مسير الشمس ، حتى لم يعد يخفى على أحد ، ولم يصل عالم أو أديب أو شاعر إلى مثل ما وصل إليه من شرف ورفعة ومودد ؛ ورزق القبول من القلوب ، وشاع أدبه ، وانتشرت مؤلفاته فى كل مكان وكل جيل .

ومنح الجاحظ شرف الخلود الأدبى ، فصار اسمه على كل لسان ، وأدبه فى كل فم . واحتل فكره وآثار عبقريته ، منزلة لا تسامى فى تاريخ الفكر العربى بل العقل الإنسانى .

أدب الجاحظ أثر من آثار العقل الناضج ، والموهبة الفذة ، وربيب الملكة النادرة ، وثمرة الروية والتفكير العميق .. فلقد كان أبو عثمان صاحب فكر مستنير ، وبصر نافذ ، ورأى حكيم ، وإنسانية كاملة . ونفذ بكتاباته وآرائه إلى القلوب والعقول ، وامتاز أدبه بالنفس الطويل ، والإبداع الجليل ، والحيوية المتدفقة ، والشباب الناضر ؛ كما امتاز بالصدق والواقعية المتفائلة المرحة ، والبلاغة المتدفقة ، والتجديد الحق الدائم .

وكذلك كان فكره سباقا مجددا مبدعا ، ينطق عن ثقافة واسعة ، وتجارب عميقة ، وخبرات حية طويلة ، ودرس عميق ممعن فى الاستقصاء والتحليل وجودة الاستنباط ، وحسن القياس ، وجلال الاستهداء إلى الحق . الحكمة ضالته ، والبحث المطلق هوايته ، والحقيقة غايته ؛ إذا تكلف الكتاب

الكتابة فى موضوعاتهم ، فإن أبا عثمان كان يذهب إلى موضوعه بطبع أصيل وحب متجدد ، ونفس طموح ؛ وكان الكتاب سميره وجليسه ، وعدته وعديده ، وأنيسه وصديقه .

وكان أبو عثمان يستملى موضوعه فيمليه ، لا يتكلف ولا يتعسف ، يصور لك خلجات الروح ، وأزمات العقل ، وآهات النفس ، ويعرض عليك المنقول والمعقول ، ويصف لك المعلوم والمجهول ويروى ثم ينقد ، ويعرض الآراء ثم يوازن ويحلل ، فى إفاضة ونفوذ إلى أعماق الأمور ؛ مع ثقوب ذهن ، وجدة فكر ؛ واكتمال موهبة ؛ يحيط الجلال والجمال بفكره وأدبه ، ويغشيهما الإبداع والحكمة والصدق ؛ يمزج الفلسفة بالأدب ، و « الكلام » بالشعر ، يكتب بعد الدرس الطويل ، والمعاناة البعيدة ، والخبرة الواسعة ، لاينطق إلا بما يعتقد ، ولا يقول إلا مايروى ؛ خاض بحوثه بعقله وقلبه ، وله الكثير من الآراء فى مختلف جوانب الحياة ، والعديد من الأفكار الناضجة والكلمات الصائبة ، فى شتى نواحى الأدب والثقافة والمعرفة ؛ ورددت الأجيال كلامه وكتاباته ، ونوه المفكرون والعلماء والأدباء بثمرات تجربته الحصيفة ، واحتفلت الأذواق والمواهب بآثار بيانه وبلاغته .

الخلود لفكر الجاحظ الحى الخلاق المتجدد ، المبدع ، الذى ساير الحياة ولا يزال يسايرها حتى اليوم ؛ والخلود لأدبه ، الذى تتلمذت عليه الأمصار والأقطار والقرون منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) حتى اليوم ، حيث لاتزال صفوة الشعوب المتحضرة اليوم تحبه وتعشقه وتردده فى متعة ولذة واستجادة وتعاطف روحى عجيب كمذهب من مذاهب الأدب ، وصورة رائعة من صور البيان المأثور .

وإذا كانت آداب كثيرة قد ماتت لأنها ليست موضع اهتمام الفكر الإنسانى اليوم ، وإذا كانت آداب أخرى تموت حين تترجم إلى لغة أخرى من اللغات .. فإن أدب الجاحظ يظل متصلا بأعماق النفس الإنسانية ، ولن

يبرح وثيق الصلة بها ، ولا تزيده الأيام إلا جلاء وصفاء ونقاء وبهاء ؛ وتعمل الأمم الأجنبية اليوم على استضافة أدب الجاحظ ، ونقله إلى لغاتها ، وترجمة آرائه إلى ألسنتها ، ليقرأ بكل لغة ، ويتخذ مادة للثقافة عند الناس جميعا .

فتح الجاحظ للناس أبوابا كثيرة فى أمور شتى . لم يكن من تقدمه من العلماء والكتاب والأدباء يحسبونها داخلة فى الأدب ، فهو من بين كتاب العربية أول من بحث فى طبائع الأشياء كالحيوان والنبات والمعادن ، وأقام منهجه العلمى على المشاهدة والتجربة والاختبار ، وعلى الاستقراء والشك ، ورحل فى سبيل تحقيقه العلمى إلى كثير من الأقاليم والأقطار ، وهو أول من كتب رسالة ملؤها السخرية ، والتهكم والجد الممزوج بالهزل . احتذاها الكتاب والأدباء ، فوضع أبو بكر الخوارزمى رسالته إلى أبى الحسن البديهى ، وأبو الحسين أحمد بن فارس كتب على ضوئها أصول فن المقامات ، وأبو الفضل بديع الزمان الهمذانى ثم الحريرى كتب فى هذا الفن الشامخ فى الأدب العربى وهو فن المقامة ، وكذلك احتذاه ابن زيدون فى الرسالة الهزلية ، وسواهم من الكتاب والأدباء ؛ وكان أبو عثمان كذلك أول من رأى فى مخالفات العامة وعاداتهم وأحاديثهم وأسمارهم ، فنا يستروح الخاصة به ، ويرى العلية فيه جماما من تعبهم وكدهم ؛ كما رأى فيما تصالحوا عليه من التعبير عن خوالج نفوسهم ما يصح تقييده والتفكه به ؛ وهو أول من استباح التندر بالأصدقاء والإخوان ، وهو أول من ألف كتابا فى فكرة من الفكر ، وفى رأى من الآراء ، ثم نقضه بكتاب آخر ، توسعا منه فى البلاغة وتفننا فى البراعة ، وكذلك كان أول من ألف فى الأمور المتناقضة ، وأقام سوق الجدل بين الأشياء والحالات المتعارضة ، وابتدع من المعانى مالا يظن أن يحتمل إلا المعنى الواحد ، كرسالته فى مفاخرة المسك والرماد ؛ وهو أول من ألف الكتب فى المعانى والأغراض الغريبة عن أفكار الكتاب ، « كالبخلاء » و « حيل اللصوص » ، وسواها (١) .

---

(١) راجع ص ١٩٩ و ٢٠٠ أدب الجاحظ للسندوبى

— ٢ —

إن الجاحظ ذروة الانطلاق والتحرر فى تاريخ الفكر العربى ، والثقافة العربية ، وقمة من قمم التجديد والنهضة والإبداع فى تاريخنا الأدبى الطويل .

كان صاحب عقلية خصبة مرنة متحررة ؛ عقلية مجردة مبدعة حصيفة موهوبة ذكية ، تقرن الأمور بأسبابها ونتائجها ومصادرها ومواردها .

تحرر عقله من الخرافات والأساطير والأوهام والتقليد ، وتحرر فكره من الجمود والاحتذاء والتتبع ، وتحررت نفسه وروحه من كل مايضعف الشخصية ، ويزرى بمكانة العالم والأديب والمفكر .. ومع كثرة خصومه فى الدين والسياسة والأدب ، لم ينقل لنا أحد منهم عيبا فيه ، ولا مثلبة يتنقص بها .

كان صورة لعصره العظيم ، صورة لحركة الثقافة المتدفقة المتوثبة فى القرن الثالث الهجرى ؛ صورة للعقل العربى الوثاب ، المنطلق إلى أبعد غاياته ، وأعظم أهدافه ومراميه .

وهذا التحرر والانطلاق جعل كتبه وأفكاره موضع الاهتمام من كل أديب فى كل العصور والبيئات ؛ وعندما نقرأ الجاحظ اليوم نشعر كأننا نقرأ لأعظم علماء عصرنا تحررا وانطلاقا ، ولأقوى مفكرينا شخصية وإبداعا ، ولأرفع أدبائنا منزلة وأسماهم إنتاجا .

الجاحظ أديب الأمس واليوم ، والماضى والحاضر ، وسوف يظل مقروءا على مر الحياة ، وتوالى الأحقاب . لم يكن أدبه أدب الأمس فحسب ، ولم يكن فكره فكر الماضى المنقطع البعيد ، كلا . . إنه معنا اليوم كما كان مع أسلافنا فى الأمس ، وسوف يصحب أحفادنا على اختلاف البيئات والأجيال .

الفصل الثانى

ذكرى خالدة

— ١ —

أضاء أبو عثمان الجاحظ العقل العربى وشرفه ، ورفع من منزلته فى نظر الشرقيين والغربيين ، ووهب الفكر الإسلامى أعظم درره ، وأسمى آيات إبداعه ، وأجل خالدات مواهبه .

فإذا ذكرنا الجاحظ اليوم فإنما نذكره لنحيى فيه أعظم قوى الإبداع والخلق والتحرر والإنطلاق ، ولنشيد بشخصيته الجليلة التى أثرت الأدب والعقل والحياة ، وتركت دويا قويا يهز الأسماع والعقول على مر الزمن .

ولا تكاد تنطبق كلمة أديب بكل معانيها على كاتب عربى بقدر ماتنطبق على الجاحظ معلم أهل القلم فى عصره وبعد عصره (١) .

رحمك الله يا أبا عثمان ، لقد كنت درة مضيئة مشعة متألقة ، بهرت العيون والأبصار ، وأضاءت للناس الطريق ، ووضعت أصول التفكير الإنسانى ، ورفعت من منزلة الحياة ، وأعلت مكانة العقل ، ومجدت قوى الإنسان .

وسلام عليك فى الراحلين ، وسلام عليك فى الخالدين ، وسلام عليك مابقيت الحياة .

---

(١) ٣ نوادر الجاحظ لجميل جبر .

— ٢ —

وبعد سنوات قلائل ، وفى عام ١٩٦٧ م يكون قد مضى على ميلاد أبى عثمان الجاحظ اثنا عشر قرنا من الزمان ، وهى ذكرى عزيزة غالية من ذكريات مجدنا الخالد العريق .

وبعد سنوات قلائل أخر ، وفى شهر يناير من عام ١٩٦٨ م ، سوف يكون قد مضى على وفاة أبى عثمان الجاحظ أحدعشر قرنا من الزمان ، فقد مات فى المحرم من عام ٢٥٥ هـ — يناير ٨٦٨ م .

وهى ذكرى ولا كالذكرى ، لقد احتفل الانجليز بالذكرى المئوية الرابعة لميلاد شكسبير ، وهى ذكرى أين منها الذكرى المئوية الحادية عشرة لوفاة الجاحظ .

ولو كانت أية دولة من الدول الأوربية ، هى التى أنجبت الجاحظ ، لملأت الدنيا به ، ولخلدت ذكراه أروع تخليد ، ولطبعت آثاره وتراثه فى مجموعات علمية عديدة ، ولأخرجت عن حياته آلاف الترجمات والقصص والتمثيليات والإذاعيات والأفلام .

لقد بقى عن موعد الذكرى نحو ثلاث سنوات إلا قليلا ، وهى مدة تكفى اليوم للبدء فى رسم مناهج الاحتفال بهذه الذكرى الخالدة ، ووضع الخطط لإظهار الذكرى فى أروع صورها ، خاصة وفى العراق بطل ثائر ، وفى مصر زعيم ملهم .

وأتمنى أن تبدأ البصرة مدينة الجاحظ العربية البحرية العتيدة ، بتكوين لجنة لتعمل على الاحتفال بذكرى ابن البصرة العظيم ، احتفاء مشرفا للفكر الإسلامى العربى ، وللأمة العربية جمعاء ، تؤازرها فيه وزارات الثقافة والجامعات ، والمجامع العلمية ، ومجالس الفنون والآداب فى الشعوب العربية ،

وتدعو إليه أقطاب الفكر العالمى والأدب الإنسانى .

وفى رأيى أنه يجب أن يتم على موعد الذكرى عمل مايلى :

(١) إطلاق اسم الجاحظ على أكبر شارع فى كل مدينة بحرية فى العالم العربى .

(٢) إطلاق اسمه على شارع كبير فى كل عاصمة عربية .

(٣) إطلاق اسمه على مجمع علمى ، فى كل دولة عربية .

(٤) إصدار طابع بريد باسمه فى كل أمة عربية .

(٥) جمع جميع آثاره المطبوعة والمخطوطة فى متحف يقام باسمه فى مدينة البصرة .

(٦) إقامة تمثـــال له فى مدينة البصرة ، وإطلاق اسمه على أعظم مدرسة فيها .

(٧) طبع جميع آثار الجاحظ فى مجموعات علمية وشعبية ، فى كل ركن من أركان العالم العربى .

(٨) إنشاء جامعة بحرية فى البصرة يطلق عليها اسم الجاحظ .

(٩) تأليف لجنة فرعية من شتى علماء العالم العربى لكتابة تاريخ علمى مفصل لحياة الجاحظ وأثره فى الفكر العربى والإنسانى .

(١٠) إخراج فيلم عربى عن حياة الجاحظ باشراف الجامعة العربية ومعاونتها يعرض فى كل العالم العربى .

(١١) كتابة قصص وتمثيليات وإذاعيات عن حياة الجاحظ برعاية جامعة الدول العربية ، تطبع وتنشر وتذاع فى كل الشعوب العربية .

(١٢) إطلاق اسم الجاحظ على مدرج فى كل كلية آداب أو علوم فى الجامعات العربية .

(١٣) يدعى إلى الاحتفال بمهرجان الجاحظ فى البصرة جميع زعماء الشعوب العربية ووزراء التربية والثقافة والإرشاد ورؤساء مصالح السياحة فى جميع الدول العربية .

وأتمنى أن يلبى كل مفكر وأديب فى أمتنا العربية دعوة الشرف للبدء فى العمل الجماعى من أجل مهرجان الجاحظ فى البصرة فى يناير عام ١٩٦٨ بمناسبة مرور أحد عشر قرنا على وفاة ابن البصرة العظيم ، وعـــلم الأمة العربية الكبير ، ورائد الفكر العربى الخالد . . .

الفصل الثالث

صور صغيرة من أدب الجاحظ

— ١ —

قال أبو عثمان الجاحظ لرجل آذاه :

أنت والله أحوج إلى هوان من كريم إلى إكرام ، ومن علم إلى عمل ، ومن قدرة إلى عفو ، ومن نعمة إلى شكر (١) .

— ٢ —

من رسالته إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح فى قلبك إيثار الأناة . . . واعلم أيدك الله أن شين غضبك على ، كزين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك ، كحياة ذكرك مع اتصال سببى بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ؛ والسلام .

— ٣ —

من رسالته إلى أحمد بن أبى دؤاد يستعطفه :

ليس عندى - أعزك الله - سبب ، ولا أقدر على شفيع ، إلا ماطبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذى لا يكون إلا من نتاج حسن الظن ، وإثبات الفضل بحال المأمول .

---

(١) ١٦ : ١١١ معجم الأدباء لياقوت .

— ٤ —

وكتب معاتبا إلى بعض أصدقائه :

زينك الله بالتقوى ، وكفاك ما أهمك من الآخرة والأولى ؛ من عاقب ـ أبقاك الله ـ على الصغيرة عقوبة الكبيرة ، وعلى الهفوة عقوبة الإصرار ، فقد تناهى فى الظلم ؛ لقد كنت أكره سرف الرضا مخافة أن يؤدى إلى سرف الهوى ؛ فما ظنك بسرف الغيظ ، وغلبة الغضب .

— ٥ —

كتب إلى ابن الزيات :

نحن ـ أعزك الله ـ نسحر بالبيان ، ونموه بالقول ، والناس ينظرون إلى الحال ، ويقضون بالعيان ، فأثر فى أمرنا أثرا ينطق إذا سكتنا ، فإن المدعى بغير بينة متعرض للتكذيب .

— ٦ —

وله فى العزاء :

ان الماضى قبلك الباقى لك ، والباقى بعدك المأجور فيك ، وفى الله العزاء عن كل هالك ، والخلف من كل مصاب .

— ٧ —

الحسد عقيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق وحرب البيان ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم من الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقح الشر بين الحلفاء ، يكمن فى الصدر كمون النار فى الحجر .

— ٨ —

أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ،

وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، فإذا كان المعنى شريفا ، واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف ، صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة .

— ٩ —

من كتاب للجاحظ إلى ابن الزيات :

لا والله ما عالج الناس داء قط أدوى من الغيظ ، ولا رأيت شيئا هو أنفذ من شماتة الأعداء ، ولا أعلم بابا أجمع لخصال المكروه من الذل ، ولكن المظلوم مادام يجد من يرجوه ، والمبتلى مادام يجد من يرثى له ، فهو على سبب درك وإن تطاولت به الأيام ، فكم من كربة فادحة ، وضيقة مصمتة ، قد فتحت أقفالها ، وفككت أغلالها ، ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك ، وفى حسن النية بينى وبينك ، لامشتت الهوى ، ولا مقسم الأمل ، على تقصير قد احتملته وتفريط قد اغتفرته (١) .

— ١٠ —

من رسالة التربيع والتدوير :

وهل تقع الأبصار إلا عليك ، وهل تصرف إلا شارة إلا اليك ، وأى أمرك ليس بغاية ، وأى شىء منك ليس فى النهاية ؛ وهل فيك شىء يفوق شيئا ، أو يفوقه شىء ، أو يقال : لو لم يكن كذا لكان ، أو لو كان كذا لكان أتم .

وأين الحسن الخالص ، والجمال الفائق ، والملح المحض ، والحلاوة التى لاتستحيل ، والتمام الذى لايحل ؛ إلا فيك أو عندك أو لك أو معك .

---

(١) ١٦ : ٧٧ معجم الأدباء لياقوت

الفصل الرابع

آراء للجاحظ فى الأدب والعلم والحياة

— ١ —

الجبن والبخل غريزة واحدة يجمعهما سوء الظن بالله ، والبخل يهدم معانى الشرف .

— ٢ —

لا ينبغى لمن قل علمه أن يدع تعليم من هو أقل منه علماً(١) .

— ٣ —

خطأ المنجمين كثير وصوابهم قليل ، بل هو أقل من القليل(٢) .

— ٤ —

أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يحب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم ، لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مجبرين فى الأمور المتفقة والمختلفة ، لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ، وفى هذا ذهاب العيش ، وبطلان المصلحة(٣) .

— ٥ —

ليس ينبغى للعاقل أن يسوم اللغات ماليس فى طاقتها ، ويسوم النفوس

---

(١) ٦ : ٣٢ الحيوان (٢) ١٣٦ رسائل الجاحظ

(٣) ١٢٦ المرجع

مأليس فى جبلتها ، ولذلك صار يحتاج صاحب «كتاب المنطق» إلى أن يفسره لمن طلب من قبله علم المنطق ، وإن كان المتكلم حسن البيان ، إلا أنى لا أشك على حال أن النفوس إذ كانت إلى الطرائف أحن ، وبالنوادر أشغف وإلى قصار الأحاديث أميل ، وبها أصب ، أنها خليقة لاستثقال الكثير ، وإن استحقت تلك المعانى الكثيرة ، وإن كان ذلك الطويل أنفع ، وذلك الكثير أرد(١) .

— ٦ —

لولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى ، كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى(٢) .

— ٧ —

لا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام ، متمكنا فى الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذى يجمعهما ، والمصيب الذى يجمع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقائقها من الأعمال(٣) .

— ٨ —

من الناس من يقول : إن العيش كله فى كثرة المال وصحة البدن وخمول الذكر ، وقال من يخالفه : لا يخلو صاحب البدن الصحيح والمال الكثير من أن يكون بالأمور عالما أو يكون بها جاهلا ، فإن كان بها عالما

---

(١) ٦ : ٨ الحيوان
(٢) ٢ : ١١٥ الحيوان
(٣) ٢ : ١٣٤ الحيوان

فعلمه بها لا يتركه حتى يكون له من القول والعمل على حسب علمه ، لأن المعرفة لا تكون كعدمها ، وفى القول والعمل ما أوجب النباهة ، وأدنى حالاته أن تخرجه من حد الخمول ، ومتى أخرجته من حد الخمول فقد صار معرضا لمن يقدر على سلبه ؛ وكما أن المعرفة لابد لها من عمل ؛ ولا بد للعمل من أن يكون قولا أو فعلا ، والقول لا يكون قولا إلا وهناك مقول له ، والفعل لا يكون فعلا إلا وهناك مفعول له ، وفى ذلك ما أخرج من الخمول ، وعرف به الفاعل(١) .

— ٩ —

إنى لست أخبر عن الموتى ، ولا أستشهد بالغيب ، ولا أستدل بالمختلف فيه ، ولا الغامض الذى تعظم المؤنة فى تعرفه (٢) .

— ١٠ —

ينبغى أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا ؛ على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا . فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده ، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وخوى نجم التقية ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العى والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم(٣) .

— ١١ —

لا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل .

---

(١) ٢ : ٩٧ الحيوان

(٢) ٣٠٩ رسائل الجاحظ

(٣) ١ : ٨٦ الحيوان ، ٢٥٥ رسائل الجاحظ

— ١٢ —

أعلم أن تثمير المال آلة للمكارم، وعون على الدين، وتأليف للإخوان وأن من فقد المال قلت الرغبة إليه، والرهبة منه، ومن لم يكن بموضع رغبة أو رهبة استهان الناس به؛ فاجهد جهدك كله فى أن تكون القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة فى دين أو دنيا.

— ١٣ —

يجب للرجل أن يكون سخيا لا يبلغ التبذير، شجاعا لا يبلغ الهوج، محترسا لا يبلغ الجبن، قوالا لا يبلغ الهذر، صموتا لا يبلغ العى، حليما لا يبلغ الذل، منتصرا لا يبلغ الظلم، وقورا لا يبلغ البلادة؛ نافذا لا يبلغ الطيش.

— ١٤ —

لم أشمم قط رائحة أحيا للنفس، ولا أعصم للروح، من ريح عروس، وستجد ريحا تعلم أنه ليس فوقها إلا ريح الجنة

— ١٥ —

لا يخلو صاحب الثروة الخامل الذكر من أن يكون ممن يرغب فى المركب الفاره، والثوب اللين، والجارية الحسنة، والدار الجيدة، والمطعم الطيب؛ أو يكون ممن لا يرغب فى شىء من ذلك، فإنه حينئذ حمار، وأفسد طبعا من الحمار، وأجهل من الحمار، وقد رضى أن يكون فى حاله أسوأ حالا من الوكيل.

— ١٦ —

جهد البلاء أن تظهر الخلة، وتطول المدة، وتعجز الحيلة، ثم لا تعدم

صديقا مؤنبا ، وابن عم شامتا ، وجارا حاسدا ، ووليا قد تحول عدوا ، وزوجة متخلفة ، وولد ينتهرك (١) .

— ١٧ —

إذا سمعت الرجل يقول : ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح (١) .

— ١٨ —

من ألف فقد استهدف ، فإن أحسن فقد استظرف ، وإن أساء فقد استقذف ، وعقل المنشىء مشغول ، وعقل المتصفح فارغ (٢) .

— ١٩ —

من حفظ ماله فقد حفظ الأكرمين : الدين والعرض .

— ٢٠ —

احذر من تأمن ، فإنك حذر ممن تخاف (٣) .

— ٢١ —

العشق اسم لما فضل من المحبة ، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود .

— ٢٢ —

تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوتة ، أو من فضة مجلوة (٤) .

---

(١) ١٦ : ٧٨ معجم الأدباء .

(٢) ١٦ : ١١١ المرجع .   (٣) ١٦ : ٨٤ المرجع .

(٤) ٢٦٩ رسائل الجاحظ ، وراجع وصفه للجمال فى ص ٢٧٤ رسائل الجاحظ

— ٢٣ —

الترجمان (١) لا يؤدى أبدا ماقال الحكيم على أخصى معانيه ، وحقائق مذاهبه، ودقيق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدى الأمانة فيها ، إلا أن يكون فى العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويل مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب .

— ٢٤ —

من أمثال العامة : أحمق من معلم كتاب ، وقال بعض الحكماء : لاتستشيروا معلما ولا راعى غنم (٢) ، وسمعنا قول بعضهم : الحمق فى الحاكة والمعلمين والغزالين (٣) .

---

(١) ٧٥ - ٧٩ : ١ الحيوان
(٢) ١ : ٢٤٨ البيان
(٣) ١ : ٢٤٩ البيان

البَابُ العاشِرُ

الجاحظ فى سجل التاريخ

الفصل الأول

وفاة الجاحظ

— ١ —

فى خلافة المعتز بالله (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) كان الجاحظ قد بات مكدودا محطما من أثر المرض والشيخوخة ، وكان ينتظر أجله صباح مساء ، وكان مع ذلك لازال يعيش فى عالم الفكر والكتب والقراءة . وفى شهر المحرم من عام ٢٥٥ هـ كان الجاحظ قد بات جسما لاقوة فيه ، وروحاً لايستطيع بها الدفاع عن نفسه من غوائل المرض والأحداث .

وفى أمسية من أمسيات شهر المحرم كان جالسا فى حجرة كتبه ومطالعاته العزيزة عليه ، الحفى بها : فانهالت عليه أكداس الكتب فقضت عليه (١) .

ومات أبو عثمان وسط الكتب التى أحبها طول حياته ، وكأنما كان يريد أن تصحبه فى رحلته إلى العالم الآخر ، وأن يدفن فى وسطها ، وكانت وفاة الجاحظ بالبصرة فى شهر المحرم ٢٥٥ هـ (٢) - يناير ٨٦٨ م .

وكان ذلك أكبر خسارة منى بها الفكر العربى فى قديمه وحديثه .

---

(١) ٢ : ١٢٢ مروج الذهب .

(٢) ذلك رواية للمسعودى ، والرواية الأخرى أن وفاته كانت عام ٢٥٦ هـ (٤ : ١٩٥ مروج الذهب) ، وهذه الرواية الثانية لايؤيدها الدليل . وهناك من يردد وفاته بين عام ٢٥٠ هـ وعام ٢٥٥ هـ (٢ : ١٢١ شذرات الذهب للعماد ، ١ : ٤٥٦ العبر فى خبر من غبر للذهبى ، وابن خلكان يجعل وفاته فى محرم ٢٥٥ هـ ؛ ٣ : ١٤٤ وفيات الأعيان) .

— ٢ —

ولما مات أبو عثمان وصل نعيه إلى قصر الخلافة فى بغداد وسر من رأى فأسف المعتز بالله عليه أشد الأسف ، وقال ليزيد بن محمد المهلبى : يايزيد ، ورد الخبر بموت الجاحظ .

فقال يزيد : لأمير المؤمنين البقاء ، ودوام النعماء .

فقال المعتز : لقد كنت أحب أن أشخصه إلى وأن يقيم عندى . فرد عليه يزيد : إنه كان قبل موته عطلا بالفالج .

ورثاه الشعراء ، وأبنه الأدباء ، واهتزت البصرة لوفاته ؛ وكان ممن رثاه أبو شراعة القيسى بقصيدة منها (١) :

فى العلم والعلماء إن يتفهموه مواعظ
وإذا نسيت وقد جمعـ ـت علا عليك الحافظ
ولقد رأيت الظرف دهـ ـرا ماحواه اللافظ
حتى أقام طريقه عمرو بن بحر الجاحظ
ثم انقضى أمد به وهو الرئيس الفائظ

— ٣ —

مات الجاحظ عن مائة وخمس من السنوات (٢) ، قضاها فى الكتابة والمطالعة والدراسة ، والإفادة والمحاضرة والمناظرة ، وكان العالم العربى يغرف من فكره الحر ، وأدبه الرائع ، وكتبه البليغة .

---

(١) كان أبو شراعة من شعراء البصرة المعاصرين للجاحظ ، وتوفى بها نحو عام ٢٦٥ هـ . وكان صاحب رسائل وخطب ، فصيحا بليغا ، اتصل بابراهيم بن المدبر وبغيره من الولاة وله معهم أخبار .

(٢) يذكر ابن العماد أنه عاش تسعين سنة ، وكذلك الذهبى (١ : ٤٥٦ العبر) وهو خطأ .

ولم يترك أبو عثمان زوجاً ولا ولدا ، فـلم يتزوج طيلة حياته ، بل « انصرف إلى اتخاذ الجوارى ، وقد كان عقيما فلم يعرف أنه ولد له ولد ، أو أعقب ذرية مدى حياته الطويلة »(١) ، وقال الجاحظ لميمون بن هرون الكاتب بعد أن ألف كتاب البيان وأهداه إلى ابن أبى دواد : « إنما أنا وجارية لى ، وجارية تخدمها ، وخادم ، وحمار (٢) » ، وقال الجاحظ عن نفسه : « انه اشترى له جارية تركية جميلة ، رجاء أن يرزق منها ولدا يكون بحسنها وذكائه ، فولدت له ولدا جاء بقبحه وجهلها (٣) » .

ولم يحدد لنا أبو عثمان مكان داره فى البصرة . وإن ذكر أماكن كثيرة فيها فى « البخلاء » و « الحيوان » ، من مثل مسجد عتاب (٤) ، والمسجد الجامع (٥) ، ومن مثل « الأساورة » (٦) وفى الحيوان مايدل على أنه كان يسكن فى شارع يسكن فيه ابن الزيات (٧) ، والظاهر أن ذلك كان ببغداد أثناء إقامة أبى عثمان فيها أيام المأمون .

وبعد فقد ودع أبو عثمان الحياة ، بعد أن ابتلاها خيرا ، وذاق أفاويقها غير كاره لها ، وودعها وودعته عن سن عالية ، فترك جوار الناس إلى جوار الله وذهب إلى مثواه الأخير ، يحيط به ذكر ذائع ، وتلاميذ ملء السمع والبصر ، يقومون مقام الابن ، ويعتزون به أبا روحيا كأعظم مايكون الأدباء ، وكأكرم مايكون الأبناء .

---

(١) ٢٠٤ أدب الجاحظ للسندوبى (٢) ٣٣ المرجع

(٣) ٢ : ٤٥٨ أمراء البيان (٤) ٣ : ٢٥ الحيوان

(٥) يذكر فى البخلاء فى مواضع كثيرة

(٦) يقول الجاحظ : مررت يوما وأنا أريد منزل المكى بالأساورة الخ ٥ : ٣٤١ الحيوان

(٧) ٢ : ١٢٩ و ١٣٠ الحيوان

الفصل الثانى

آراء المفكرين والأدباء فى الجاحظ

— ١ —

ليس هناك مفكر أو أديب عربى نال من الشهرة وذيوع الصيت ، ومن الخلود الأدبى ، على طول عصور التاريخ ، مانا له أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .. وليس هناك كذلك من الأدباء والمفكرين من شغل الناس والعصور ، وكتبت عنه آلاف الآراء والدراسات مثل أبى عثمان ، الذى تتلمذ عليه أعلام العربية فى عصره وفى كل عصر .

وسوف نستعرض آراء قيلت فى الجاحظ ، وكتبت عنه ، لنتبين إلى أى حد بلغ الجاحظ من المكانة بين الناس ، عدا ماسبق ذكره من آراء أعلام العالم العربى القديم فيه كالمأمون وسواه .

— ٢ —

نظم أبو اسحاق النظام المعتزلى شعراً يمدح فيه الجاحظ ، هو أشبه بشعر الفلاسفة والمتكلمين ، فقال :

حبي لعمرو جــوهر ثابت　　وحبــه لى عرض زائل
به جهاتى الست مشغولة　　وهو إلى غيرى بها مائل

وقال أبو هفان البصرى الأديب الشاعر الراوية ، وكان معاصرا للجاحظ : ثلاثة لم أر قط ولا سمعت أكثر محبة للكتب والعلوم منهم :

الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، واسماعيل بن إسحاق القاضى(١) .

وقيل لأبى هفان ، وقد طال ذكر الجاحظ له ، لم لاتهجو الجاحظ وقد ندد بك ؟ فقال : أمثلى يخدع عن عقله ، والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة(٢) .

وقيل لأبى العيناء : ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعرى وأى شىء كان الجاحظ لايحسن(٣) .

وقال ابو على الحسن بن داود : فخر البصرة بأربعة كتب : العين للخليل والكتاب لسيبويه ، والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ .

ويقول الخطيب البغدادى (٤٦٣ هـ) فى « تاريخ بغداد » : فاخر البصريون الكوفيين بأربعة كتب : البيان والحيوان للجاحظ ، والكتاب لسيبويه ، والعين للخليل .

ويقول المبرد (٢٨٥ هـ) : مارأيت أفصح من أبى الهذيل والجاحظ(٤)

وقال أبو القاسم الإسكافى(٥) : استظهارى على البلاغة بثلاثة : القرآن، وكلام الجاحظ ، وشعر البحترى .

وقال ابن دريد (٣٢١هـ): متنزهات القلوب هى كتب الجاحظ ، وأشعار المحدثين ونوادر أبى العيناء .

---

(١) ١٦ : ٧٥ معجم الأدباء

(٢) ١٦ : ٩٩ المرجع

(٣) ١٦٥ جمع الجواهر للحصرى

(٤) ٣٦ المنية والأمل للمرتضى

(٥) ٤ : ١٠٣ مروج الذهب

وقال فقيه أندلسي(١) نحوى: رضيت فى الجنة بكتب الجاحظ عن نعيمها(٢) وكانت منزلة أبى عثمان عند الأندلسيين لاتضارعها منزلة أديب آخر، وكانت آثاره من أسرع آثار المشرق وصولا إليهم، وقد ظلوا إلى أيام ابن خلدون يعتبرون كتابه «البيان» أصلا من أصول الأدب وركنا من أركانه، وكان أبو محمد الأندلسى يقول عن الجاحظ: إنه أكثر حلاوة ومعانيه لائطة بالنفس سهلة فى السمع، وأبو حنيفة الدينورى أكثر ندارة ولفظه أعذب وأعرب.

وكتب الجاحظ لإبراهيم بن المدبر رسالة(٣)، فأخذ يردد النظر فيها فقيل له: ماشأن هذه الرقعة؟ فقال: هذه رقعة الجاحظ وكلامه يعجبنى، وأنا أردده على نفسى لشدة إعجابى(٤).

وقال المرزبانى (٣٨٤ هـ) فى أبى عثمان: كان من أصحاب النظام، وكان واسع العلم بالكلام، كثير التبحر فيه، شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا، وله كتب كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين وفى حكاية مذهب المخالفين، وفى الآداب والأخلاق، وفى ضروب من الجد والهزل؛ وليس فى تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام، وجواهره كتب تشبهها(٥).

ولقب بالجاحظ أدباء كثيرون، كما أسلفنا من بينهم أبو زيد البلخى (٣٢٢هـ)، وابن العميد، وأبو حبان(٦) التوحيدى وأبو محمد الحسن بن

---

(١) هو أبو محمد الأندلسى، وهو من أصحاب السيرافى
(٢) ٧٦ التنبيه والاشراف للمسعودى
(٣) راجعها فى آخر «رسائل الجاحظ» نشر السندوبى
(٤) ١٦ : ٩٢ معجم الأدباء   (٥) ١٦ : ٧٦ المرجع
(٦) ١٥ : ١٢١ معجم الأدباء

خلاد القاضى ، والآمدى ، ومحمود بن عزيز الخوارزمى (٥٢١ هـ) والقاضى الفاضل ، وأطلق كذلك على بعض الأدباء المعاصرين كطه حسين والمازنى وغيره ، واختار كثير من الكتاب والصحفيين فى العالم العربى اسم الجاحظ لقبا لهم يوقعون به مقالاتهم .

وألف المرزبانى والتوحيدى كتابين عنوانهما (تقريظ الجاحظ) وهما مفقودان .

وروى أبو حيان عن السيرافى أن جماعة من الكتاب رووا عن ثابت ابن قرة أنه قال : ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة : عمر بن الخطاب فى سياسته ويقظته . وأبو الحسن البصرى فى تقواه وزهده وورعه وعلمه ، والثالث أبو عثمان الجاحظ[١] .

وكان أبو حيان يقول : لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان فى مدحهم وتقريظهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم : أبو عثمان الجاحظ ، وأبو حنيفة الدينورى ، وأبو زيد البلخى[٢] .

وكان ياقوت الحموى يقول : اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمى العالم ثلاثة : الجاحظ وعلى بن عبيدة الريحانى وكان من خاصة المأمون ، وأبو زيد البلخى ، فالجاحظ يزيد لفظه على معناه ، وابن عبيدة[٣] يزيد معناه على لفظه ، وأبو زيد يتوافق لفظه ومعناه ، وكان يقال لأبى زيد جاحظ خراسان .

---

(١) ٩٥ - ٩٩ : ١٦ المرجع .

(٢) كان أبو حيان جاحظيا يسلك فى تصانيفه مسلكه ويشتهى أن ينتظم فى سلكه (٥ : ١٥ معجم الأدباء) .

(٣) سئل ابن عبيدة : ماتشتهى ؟ فقال : عيون الرقباء وألسن الوشاة ، وأكباد الحساد .

وقال ابن سنان عنه فى كتابه «سر الفصاحة» : فكأنه فى كل علم يخوض فيه لايعرف سواه ولا يحسن غيره.. وذكر الذهبي (٧٤٨ هـ) تجويد الجاحظ فى كتاب «النبوات» وأثنى عليه مع أنه من خصومه فى المذهب ؛ وقال فيه كذلك إنه صاحب التصانيف الكثيرة والفنون ؛ كان بحراً من بحور العلم ، رأسا فى الكلام والاعتزال(١) .

وقال ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس : أما الفقه فعلى أبى حنيفة ، وأما الكلام فعلى أبى الهذيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى الجاحظ ، وكان من المعجبين به المقدرين له الذاهبين مذهبه ، وكان إذا أراد عقل رجل سأله عن بغداد والجاحظ(٢)، وكان يسلك طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجع(٣) ، وأزرى رجل بالجاحظ فى مجلس ابن العميد فسكت عنه ، ثم قال : لم أجد أبلغ من تركه ؛ ولو وافقته لنظر فى كتبه وصار بذلك إنسانا ، إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا(٤) .

وقال المسعودى (٣٤٦ هـ) فى الجاحظ ؛ مع خصومته له إذ كان المسعودى شيعيا والجاحظ معتزليا : ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا من الجاحظ ، وكان المدائنى كثير الكتب إلا أنه كان يؤدى ما سمع .

---

(١) ١ : ٤٥٦ العبر فى خبر من غبر للذهبي

(٢) راجع ص ٦٨ أدب الجاحظ للسندبى

(٣) ١٨٥ إعجاز القرآن للباقلانى ـ طبع دار المعارف

(٤) ٣ : ١٤٢ ، ١٦ : ١٠٣ معجم الأدباء لياقوت ، ٣ : ١٤٢ وفيات الأعيان

وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن كلمة بليغة إلى نادرة طريفة، ولا يعلم من سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه، وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جـــد إلى هزل، وسائر كتبه فى نهاية الكمال (١).

ولم يذكر ابن النديم الجاحظ فى الفهرست إلا عرضا، وعلل ذلك أحمد زكى باشا فى مقدمته لكتاب التاج (٢) بأن النسخة المطبوعة من الفهرست مبتورة.

ويروى أن أبا محمد الحسن النجيرمى قال (٣) : كنت بالأندلس فقيل لى إن ههنا تلميذا للجاحظ يعرف بسلام بن يزيد، فأتيته فرأيت شيخا همًّا، وحادثته فقال : كان طالب العلم يشرف عند ملوكنا بلقاء أبى عثمان (٤)، فوقع إلينا كتاب «التربيع والتدوير» له، فأشاروا إليه، ثم أردفه عندنا كتاب «البيان والتبيين» له، فبلغ الجاحظ عنان السماء بهذين الكتابين، فخرجت لا أعرج على شىء حتى قصدت بغداد، فسألت عنه فقيل لى : هو بسر من رأى، فأصعدت إليها فقيل لى : قد انحدر إلى البصرة، فانحدرت إليها، وسألت عن منزله، فأرشدت إليه، ودخلت فإذا هو جالس وحواليه عشرون شابا، فدهشت، فقلت أيكم أبو عثمان، فدهش الجاحظ لذلك، ووبخنى، فقلت له : ما أنصفتنى قد اشتملت على خصال أربع : جفاء البلدية،

---

(١) ٤ : ١٩٦ مروج الذهب (٢) ٤٣ و ٤٤ : التاج

(٣) ١٦ : ١٠٤ معجم الأدباء

(٤) هذا مع أن الجاحظ كان عباسيا ويخاصم الأموية، وملوك الأندلس كانو أمويين.

وبعد الشقة ، وغرة الحداثة ، ودهشة الداخل ، وأقمت عليه عشرين سنة آخذ عنه .

ويدل على شهرة كتب الجاحظ ومجده الأدبي ما رواه أبو حيان ، قال(١): من عجيب الحديث في كتب الجاحظ ما حدثني به علي بن عيسى الرماني النحوي المعتزلي (٢٧٩ - ٣٨٤ هـ) ، قال : سمعت شيخي أبا بكر يقول : ذكر الجاحظ أسماء كتبه في أول كتاب « الحيوان » وفيها كتاب « دلائل النبوة » وكتاب « الفرق بين النبي والمتنبي » وذكرهما الجاحظ كذلك في الجزء الرابع من الحيوان (٢) ، ولم أر غير « دلائل النبوة » ، فهمني ذلك ، فلما شخصت من مصر ودخلت مكة ، أقمت مناديا بعرفات ينادي : رحم الله من دلنا عـــلى كتاب « الفرق بين النبي والمتنبي للجاحظ » فلم أجد من يعرف هذا الكتاب .

وقال أبو بكر محمد بن اسحاق ، قال لي ابراهيم بن محمود ، ونحن ببغداد ، ألا تدخل على الجاحظ ، فقلت : مالي وله ؟ قال إنك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه ، فلو دخلت إليه وسمعت كلامه . . الخ (٣)

— ٢ —

وممن كتب عن الجاحظ : المسعودي (٣٤٦ هـ) في « مروج الذهب » والخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) في « تاريخ بغداد (٤) » ، والشهرستاني في « الملل والنحل (٥) » ، وذكره المرتضى في كتاب « المعتزلة (٦) » ، والبغدادي في

---

(١) ١٦ : ١٠١ معجم الأدباء
(٢) ٤ : ١٢٢ الحيوان
(٣) راجع ١٧١ أدب الجاحظ للسندوبي
(٤) ١٢ : ٢١٨ - ٢٢٠ ط القاهرة ١٩٣١
(٥) ٥٢ و ٥٣ الملل والنحل ط ليبسك ١٩٢٣ (٦) ص ٣٨

كتابه « الفرق بين الفرق » (١) ، وابن الأنبارى فى « نزهة الألباء » (٢) ، وأشار إليه ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » (٣) ، والسيوطى فى « بغية الوعاة » والدميرى فى « حياة (٤) الحيوان الكبرى » ، واليافعى (٥) ، وذكره ابن العماد الحنبلى فى كتابه « شذرات الذهب » ، وقال عنه : إنه كان بحرا من بحور العلوم ، رأسا فى الكلام والاعتزال ، وأحسن تآليفه وأوسعها فائدة ، كتاب الحيوان وكتاب البيان ، وقد صنف الكثير من الكتب فى مختلف أنواع الفنون (٦) .

ولا يخلو كتاب من كتب الأدب والتاريخ والنقد والشعر من ذكر الجاحظ وأدبه وبلاغاته وتآليفه ، وفى مقدمتها : الكامل للمبرد ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، الذى تبع الجاحظ فى منهجه فى التأليف فى هذا الكتاب ، وكذلك العقد الفريد لابن عبد ربه ، وقد حاكى فيه عيون الأخبار لابن قتيبة وأخذ كثيرا من مضمونه دون ذكر المصدر ، وكذلك الأغانى للاصفهانى ، وزهر الآداب للحصرى ، والعمدة لابن رشيق ، والمثل السائر لابن الأثير ، وسواها ..

---

(١) ١٦٠ - ١٦٣ الفرق بين الفرق

(٢) ٢٥٤ - ٢٥٩ نزهة الالباء

(٣) ٩ : ٢٠٣ - ٢١٧ مجلة المجمع العلمى العربى

(٤) ١ : ١٦٠ حياة الحيوان

(٥) ٢ : ١٦٢ - ١٦٦ مرآة الجنان

(٦) ٢ : ١٢١ و ١٢٢ شذرات الذهب

— ٣ —

وقد أُلفت عن الجاحظ كتب كثيرة منها :

١ ـ تقريظ الجاحظ لأبى حيان التوحيدى ، وهو مفقود .

٢ ـ أدب الجاحظ للسندوبى ـ وظهر عام ١٩٣١ فى القاهرة .

٣ ـ الجاحظ معلم العقل والأدب لشفيق جبرى طبع القاهرة ١٩٤٨

٤ ـ الجاحظ لخليل مردم ، وقد ظهر فى سلسلة أئمة الأدب بدمشق عام ١٩٣٠ .

٥ ـ الجاحظ لفؤاد البستانى وهو من سلسلة الروائع ـ الحلقة ١٨ ، ٢٠ وظهرت فى بيروت عام ١٩٢٨

٦ ـ النفس الإنسانية فى أدب الجاحظ لسامى الكيالى وهو من سلسلة اقرأ ـ القاهرة ١٩٦٣ .

٧ ـ فن القصص فى كتاب البخلاء ـ تأليف د. محمد المبارك ـ دمشق ١٩٤٠

٨ ـ النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه ـ تأليف بلبع .

٩ ـ الجاحظ لحنا الفاخورى ـ طبع دار المعارف بالقاهرة .

١٠ ـ نوادر الجاحظ بقلم جميل جبر ـ طبع بيروت .

١١ ـ النقد المنهجى عند الجاحظ ـ لدواد سلوم ـ بغداد ١٩٦٠

١٢ ـ الجاحظ لطه الحاجرى ـ القاهرة ١٩٦٤

— ٤ —

وتتحدث جميع كتب الأدب العربى عن الجاحظ فى إفاضة ومن بينها:

١ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان(١) .

---

(١) تحدث عن حياته وأدبه وتآليفه (٢: ١٩٣ — ١٩٦) ، وعن أسلوبه (٢ : ٢٠٥ و ٢٠٦)

٢ ـ الحياة الأدبية فى العصر العباسى للمؤلف(١) ـ القاهرة ١٩٥٤
٣ ـ من بلاغة العرب للمؤلف .
٤ ـ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان(٢) .
٥ ـ الأدب العربى وتاريخه الجزء الثانى تأليف محمود مصطفى .
٦ ـ تاريخ الأدب العربى للزيات .
٧ ـ المفصل ، والمجمل ، لطه حسين وغيره .
٨ ـ المنهل فى تاريخ الأدب العربى ـ ثلاثة أجزاء لروكس العزيزى ـ طبع الأردن ١٩٥٨ .
٩ ـ تاريخ الأدب العربى للفاخورى حريصا ١٩٥١ .

— ٥ —

ومن الكتب التى عرضت للجاحظ :

١ ـ الجزء الثانى من كتاب أمراء البيان لمحمد كرد على طبع فى القاهرة عام ١٩٣٧ .
٢ ـ عصر المأمون لمحمد فريد رفاعى(٣) ـ طبع فى القاهرة ١٩٢٧ .
٣ ـ ضحى الإسلام لأحمد أمين(٤) .
٤ ـ ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان للمؤلف .

---

(١) ٣٠٥ — ٣١٦ الحياة الأدبية فى العصر العباسى
(٢) ٣ : ١٠٦ — ١٢٨ تاريخ الأدب العربى ترجمة د . النجار
(٣) ١ : ٤٢٠ — ٤٢٩ ، ٣ : ٧٢ — ١٢٧
(٤) ١ : ٤٠٨ — ٤٢٤ ، ٣ : ١٣٧ — ١٤٠ طبع النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥٦ ، ١٩٦٢

٥ - تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى لأنيس المقـــدسى طبع بيروت (١)

٦ - من حديث الشعر والنثر لطه حسين طبع القاهرة ١٩٣٦ (٢)

٧ - الفن ومذاهبه فى النثر العربى لشوقى ضيف - القاهرة ١٩٤٦

٨ - تاريخ التمدن الإسلامى لزيدان - القاهرة ١٩٣١

٩ - دائرة المعارف الاسلامية

١٠ - الأعلام للزركلى

١١ - زهر الآداب للحصرى

١٢ - المعتزلة لزهدى حسن جار الله - القاهرة ١٩٤٧

- ٦ -

وتحدث الدكتور طه حسين عن الجاحظ وأثره فى البيان العربى فى مقدمة تحقيقه لكتاب « نقد النثر » المنسوب لقدامة بن جعفر .

وتحدثت عن آراءاته البلاغية فى الجزء الثانى من شرحى على « الإيضاح » فى البلاغة للقزوينى .

وكذلك عرض سيد نوفل له فى كتابه « البلاغة العربية فى دور نشأتها » وابراهيم سلامة فى كتابه « بلاغة أرسطو » .

- ٧ -

والصحف والمجلات العربية التى كتبت عن الجاحظ كثيرة ، ومن بينها :

---

(١) ص ١٧٦ - ٢٠١ تطور الأساليب

(٢) ٨٠ - ١٢٣ من حديث الشعر والنثر

الرسالة(١) والثقافة، ومجلة الأزهر ؛ ومجلة المجمع العلمى العربى(٢) ، ومجلة المشرق(٣) والأديب(٤) والآداب، وغيرها .

— ٨ —

مراجع عربية أخرى :

هذا وقد صدر عن الجاحظ كتب أخرى هى :

١ ـ الجاحظ تأليف طه الحاجرى نشر دار المعارف بمصر

٢ ـ الجاحظ تأليف أحمد الحوفى ـ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

٣ ـ النزعة الكلامية فى أسلوب الجاحظ للأب فيكتور شلحت ونشر دار المعارف بمصر

٤ ـ الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامرا تأليف شارل بيلا ، وترجمة إبراهيم الكيلانى ـ طبع دمشق

ومن المقالات التى نشرت أخيرا عن الجاحظ مقاله فى مجلة الفكر التونسية ؛ عدد مارس ١٩٦٥ وعنوانها الجاحظ من خلال أسلوبه .

وفى مجلة المكتبة العراقية عدد أيار ١٩٦٥ أن المستشرق الفرنسى شارل بيلا صاحب المؤلفات والتحقيقات المعروفة عن الجاحظ قد زار أخيراً العراق وبعث إلى مجلة المكتبة العراقية برسالة ذكر فيها أن وفاة الجاحظ فى محرم ٢٥٥ هـ الموافق لكانون الأول ٨٦٨ ـ ٢٠ كانون الثانى ٨٦٩ م .

---

(١) راجع عدد ١٤ و ١٩٣ ، دعابة الجاحظ لمحمد فهمى عبد اللطيف

(٢) ١٢ : ٤٠ - ٥١ تهكم الجاحظ لشفيق جبرى ، ١٢ : ٨٩ - ١٠٥ مذهب الجاحظ فى النقد ، ١٢ : ٢٩٢ - ٣١٥ فن الجاحظ

(٣) ٢٦ : ٥٣٢ - ٥٣٩ ، ٦٦٢ - ٦٧١ لفؤاد البستانى

(٤) ٥ عدد ١٢ ص ٨ مع الجاحظ فى حياته وأدبه

وقد حقق المستشرق الفرنسي شارل بيلا رسالة التربيع والتدوير التي نشرها المعهد الفرنسي في دمشق ، وطبع كثيراً من آثار الجاحظ ، مثل كتاب : القول في البغال ، ونشر في مجلة أرابيكا كتاب التبصرة بالتجارة ، ونشر في مجلة الشرق « لعبة أدبية منسوبة للجاحظ » ؛ ونشر في حوليات معهد الدراسات الشرقية ، وثيقة من الجاحظ لتاريخ الإسلام السياسي وتنشر له الآن دار المكشوف ببيروت فصولا للجاحظ لم تنشر من قبل ؛ ويقوم الآن بتحقيق كتاب الأمصار وعجائب البلدان الجاحظ .

وفي هذه الأيام صدر الجزء الأول من طبعة جديدة لرسائل الجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون .

أما كتاب « تقريظ الجاحظ » لأبي حيان التوحيدي فهو مفقود وقد ذكر ياقوت في معجم الأدباء أنه رآه بخط المؤلف ، وقد نقل منه نصوصا كثيرة في معجم الأباء(١) .

وفي كتاب « أبو حيان التوحيدي » للحوفي موازنة طويلة بين الجاحظ والتوحيدي ، والموازنة بين الجاحظ وغيره متعذرة كما يرى شارل بيلا .

وقد صدر عن الجاحظ كثير من البحوث والمؤلفات بمختلف اللغات الأوربية ؛ وأهم الدراسات عنه ما كتبه بروكلمان في كتابه المشهور (تاريخ الأدب العربي) عن مؤلفات الجاحظ ، وكتاب شارل بيلا عن الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرا ؛ وفي دائرة المعارف الإسلامية دراسة مستفيضة عن الجاحظ .

---

(١) ٣ : ٢٧ ، ٨ : ١٥٠ و ١٥١ ، ١٦ : ٩٠ - ٩١ و ٩٥ - ١٠٢ معجم الأدباء

الفصل الثالث

آراء خصوم الجاحظ فيه

لقى الجاحظ كذلك فى عصره وبعد عصره كثيراً من الحملات والخصومات والنقد ، وسوف نعرض بعض هذه الآراء فى إيجاز ، رغبة فى استكمال وجهات النظر ، التى أبديت عن الجاحظ .

الجاحظ وشعراء عصره :

١ – كان أبو كريمة البصرى الشاعر صديق الجاحظ ، ويؤثر أنه نظم هذه الأبيات عتابا لأبى عثمان ، وهى :

لم يظلم الله عمرا حين صيره … من كل شيء سوى آدابه عارى
إنى أعيذك والمعتاذ محترس … من شؤم عمرو بعز الخالق البارى

٢ ـ وقال فيه الجماز :

يافتى نفسه إلى الـ … ـكفر بالله تائقة
لك فى الفضل والتزهـ … ـد والنسك سابقة
ندع الكفر جانبا … يادعى الزنادقة (١)

٣ ـ وقال فيه الجماز أيضا :

قال عمرو مفاخراً … نحن قوم من العرب

(١) ١٦ : ٨٢ معجم الأدباء

. قلت في طاعة لر ... لك أبليت ذا النسب(١)

وتروى أبيات الجماز(٢) لعبد الصمد بن المعذل، ونسبها المرزبانى لأحمد ابن اسحاق الخاركى(٣).

٤ - وقال بعض خصوم الاعتزال يهجوه:

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا ... ماكان إلا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بنفسه ... وهو القذى فى كل طرف لاحظ

الجاحظ وابن قتيبة :

ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) من أهل السنة لذلك كان يكره الاعتزال والمعتزلة وقد عاصر الجاحظ وتأثر به، وأجازه الجاحظ برواية بعض كتبه (٤)؛ وقد نقد الجاحظ فى كتابه « تأويل مختلف الحديث » قال عنه: آخر المتكلمين، والمعاير على المتقدمين؛ وأحسنهم للحجة استشارة؛ وأشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الإقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتج لفضل السودان على البيضان مرة ومرة لفضل البيضان عن السودان؛ ونجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة، ومرة يفضل عليا ومرة يؤخره، ويقول: قال رسول الله ويتبعه قال الجماز وقال اسماعيل بن غزوان، ويذكر

---

(١) ١٦ : ٨٣ المرجع
(٢) ترجمته فى معجم الشعراء للمرزبانى، ٥٩ الورقة لابن الجراح (٢٩٦ هـ) تحقيق عزام وفراج، وراجع ترجمة ابن الجراح فى ٣ : ١٠٣ وفيات الأعيان
(٣) راجع ترجمته فى كتاب الورقة لابن الجراح
(٤) راجع ٣ : ١٩٩، ٢١٦، ٢٤٩ عيون الأخبار.

حجج النصارى على المسلمين فإذا صار للرد عليهم تجوز فى الحجة ، وكأنما أراد تنبيههم على مالا يعرفون ، ويقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الأحداث ، ويستهزىء من الحديث استهزاء لايخفى على أحد .

وهذا النقد نقد رجل محافظ ليس على جانب كبير من الحرية الفكرية التى كانت لدى الجاحظ ، وهو نقد رجل لايحب الاعتزال والمعتزلة لأنه من أهل السنة ، كما ذكر ابن تيمية (٧٢٨ هـ) .

وقد رد على ابن قتيبة أحمد أمين(١) ، ووازن بين الجاحظ ، وابن قتيبة ، فذكر أن شخصية الجاحظ فى كتبه أقوى ، أما ابن قتيبة فواسع الاطلاع فى غير شخصية قوية ، فهو يعرف كثيرا ويجمع كثيرا ويؤلف كثيرا وقد يكون فى ذلك قريبا من الجاحظ(١) ؛ والجاحظ يمس فى جميع ما يكتب الحياة الاجتماعية فى عصره ، ويتغلغل فيها ، أما ابن قتيبة فلم يكن يتناول حياة المجتمع فى كتبه بشىء(٢) ؛ وقد تأثر فى كتاب عيون الأخبار بالجاحظ .

الجاحظ وثعلب :

أبو العباس ثعلب (٢٠٠ - ٢٩١ هـ) من أئمة الكوفيين فى النحو واللغة والأدب والشعر ، وقد عاصر الجاحظ وتأثر به ، ولا يخفى أثر المعاصرة ؛ ثم المناقشة بين علماء الكوفة والبصرة فى تحامل ثعلب على الجاحظ ، إذ قال: أمسكوا عن ذكر الجاحظ فإنه غير ثقة (٣) وهو قول جائر ؛ وقد تأثر به أبو المنصور الأزهرى (٢٨٢ ، ٣٧٠ هـ) فقال عن الجاحظ : روى عن

---

(١) ١ : ٤٢٥ ضحى الإسلام ، وكذلك رد السندوبى على ابن قتيبة
(٢) ١ : ٤٢٦ المرجع
(٣) ٢ : ١٢٢ شذرات الذهب

المشقات ماليس من كلامهم ، وكان قد أوتى بسطة فى لسانه ، وبيانا فى خطابه ، ومجالا واسعا فى فنونه، غير أن أهل العلم والمعرفة ذموه ، وعن الصدق دفعوه، وقد رد عليه السندوبى بأنه حكم لادليل معه (١) .

الجاحظ والبديع :

بديع الزمان الهمذانى (٣٩٨ هـ) من أشهر أدباء القرن الرابع الهجرى وإمام « فن المقامات » فى الأدب العربى ، وقد تأثر بالجاحظ وبلاغته .

وكتب مقامة سماها « المقامة الجاحظية » وهى المقامة الرابعة عشرة من مقاماته(٢) وفيها وازن بين الجاحظ وابن المقفع قال عنه : « إنه فى أحد شقى البلاغة يقطف وفى الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره . فهل ترون للجاحظ شعرا رائعا .. وكلامه بعيد الإشارات ، قريب العبارات قليل الاستعارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة أو لفظة غير مصنوعة ؟ » .

ولا يضير الجاحظ أن يكون كما قال البديع فى أحد شقى البلاغة يقطف وفى الآخر يقف ، فماذا عليه لو كان غير شاعر ؟ فقد يجيد الرجل فى باب من أبواب الأدب دون باب آخر . ولا يغض ذلك من إحسانه فيما أحسن فيه ، وقد أراد البديع الفخر بنفسه على حساب الجاحظ ، وليته وقف عند هذا الحد ، فلم يرم الجاحظ بما رماه به غير ذلك ، وماذا على الجاحظ إذا نفر من استعمال الغريب ومن أساليب الصنعة والمصنعين ؟ وإنما أراد البديع أنه أعلى من الجاحظ بيانا ومكانا ، وهيهات ، وإذا كان كلام الجاحظ عميق المعنى فليس ذلك عيبا له ، كما أن البلاغة ليست فى كثرة الاستعارات ولا فى غرابة

---

(١) ٥٣ أدب الجاحظ للسندوبى

(٢) ٦٩ - ٧٤ مقامات البديع شرح محمد عبده ، ٤٩٨ و ٤٩٩ ج ١ زهر الآداب

العبارات ولا فى الإتيان بالأساليب المصنوعة .. إن كلام البديع ليس إلا من باب الظرف والتحايل على الحقائق والقراء فحسب .

الجاحظ والباقلانى :

أبو بكر الباقلانى (٤٠٣ هـ) صاحب كتاب إعجاز القرآن وغيره إمام من أئمة المتكلمين ورجال الدين فى القرن الرابع الهجرى .

وفى هذا الكتاب ينقد الجاحظ فيقول : قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذى لا يؤخذ فيه ، والباب الذى لا يذهب عنه ، وأنت تجد قوما يرون كلامه قريبا ، ومنهاجه معيبا ونطاق قوله ضيقا ، حتى يستعين بكلام غيره ؛ ويفزع إلى ما يوشح به كلامه ، من بيت سائر ومثل نادر ؛ وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة وأما كلامه أثناء ذلك فسطور قليلة ، وألفاظ يسيرة [١] ؛ على أن متأخرى الكتاب قد نازعوه طريقته ؛ فنهم من ساووه حين ساماه ؛ هذا ابن العميد قد سلك مسلكه ؛ وأخذ طريقه ؛ فلم يقصر عنه ولعله قد بان تقدمه عليه ، لأنه يأخذ فى الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه ، والجاحظ متى ذكر من كلامه سطرا أتبعه من كلام الناس أوراقا ، وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتابا [٢] .

وكلام الباقلانى جىء به فى مقام الموازنة بين كلام الله تعالى وكلام أئمة البلاغة فى أدب العرب ، فالباقلانى لا يريد أن ينقد بقدر ما يريد هذه الموازنة .. ومع ذلك فالاستطراد والاقتباس عند الجاحظ يريد الباقلانى أن يعيبه بهما ؛ ويريد كذلك أن يعيبه بسبق تلاميذه فى ميدان الأدب ، والنقد كله لا محصل له ، ولا معنى يحمله .

---

(١) ٣٧٧ إعجاز القرآن ط دار المعارف بالقاهرة

(٢) ٤ : ١٠٣ المسعودى مروج الذهب

الجاحظ والاسكافى :

أبو جعفر محمد بن عبد الله الاسكافى (٢٤١ هـ) المعتزلى(١) نقد آراء الجاحظ فى كتابه «العثمانية»، وسماه «نقض كتاب العثمانية للجاحظ»، وكان الاسكافى معتزليا شيعيا، لذلك نقم على الجاحظ تحامله فى كتابه على الإمام على فنقده نقدا لاذعا، ورد على كلامه ردا شديدا(٢)؛ وهو نقد فكرة بفكرة إلا أنه أثناء ذلك يخرج الاسكافى عن النقد العلمى إلى التحامل المذهبى، ومما قاله الاسكافى: «القول ممكن والدعوى سهلة، سيما على مثل الجاحظ فإنه ليس على لسانه من دينه وعقله رقيب، وهو من دعوى الباطل غير بعيد، فمعناه نزر، وقوله لغو، ومطلبه سجع، وكلامه لعب ولهو؛ يقول الشيء وخلافه، ويحسن القول وضده، ليس له من نفسه واعظ، ولا لدعواه حد قائم(٣)»، ويطول بنا المقام لو ناقشنا الاسكافى وكلامه مناقشة علمية موضوعية..

آراء أخرى عن الجاحظ :

ومع ذلك فقد نقد الجاحظ الكثيرون من الأدباء والعلماء فى الأدب والنقد والاعتزال وفى غيرها.

١ — نقده على بن يحى المنجم (٢٧٥ هـ) فى تفسيره – فى كتاب «البيان» – لقول مالك بن أسماء الفزارى :

منطق صائب وتلحن أحـ — يانا وخير الحديث ما كان لحنا

---

(١) ٤ : ١٠٣ المسعودى — مروج الذهب

(٢) كتاب الجاحظ «العثمانية»، ونقضه للاسكافى منشوران فى رسائل الجاحظ التى نشرها السندوبى عام ١٩٣٣

(٣) ص ٣٨ رسائل الجاحظ للسندوبى

بأن اللحن المقصود من الخروج عن الإعراب ، مع أنه يريد التورية ، وقد علق على هـذا أبو حيان التوحيدى مبررا ماذهب إليه الجاحظ بأن الكلام محتمل المعنيين .

٢ — ونقده المسعودى المؤرخ (٣٤٦ هـ) صاحب مروج الذهب فقال : زعم الجاحظ أن « نهر مكران » ـ نهر السند ـ من النيل ، واستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ؛ فلست أدرى كيف وقع له هذا الدليل وذكر ذلك فى كتابه « الأمصار » ، وهو كتاب فى نهاية الغثاثة ، لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا تعرف الممالك والأقطار ، وإنما هو حاطب ليل ، ينقل عن كتب الوراقين .

هكذا قال المسعودى ، وهو محق فى هذا النقد ، لكنه أظهر تحاملا كثيرا على الجاحظ ، فقوله « إن أبا عثمان لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار الخ » فيه بعض المغالاة ، فقد ذكرنا من قبل أنه كان له رحلات كثيرة ، وأنه كان إلى جانب ذلك يتحرى المشاهدة لا النقل من كتب الوراقين كما يقول الناقد القديم .

٣ — ورمى ابن الراوندى أبا عثمان ببغض الرسول صلى الله عليه وسلم ورد عليه الخياط بقوله : « وأما رميك للجاحظ ببغض الرسول فهو دليل أنك لا تعرف المحب من المبغض ، ولا الولى من العدو ، لأنه لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة ، واحتج للنبوة ، بلغ فى ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب الجاحظ وهذه كتبه فى إثبات الرسالة وفى تصحيح مجىء الأخبار مشهورة . الخ » .

٤ — وفى صدر « الحيوان » للجاحظ يعرض أبو عثمان لآراء خصومه ونقاده فيه وفى كتبه ، ويرد عليهم بلباقة وحصافة وذكاء شديد .

٥ – وروى المازني عن الجاحظ قال: «رأيت المريسي(١)، وقد سئل عن رجل، فقال: هو على أحسن حال وأهيؤها، فقلت لأصحابه: لحن، فقالوا لى: أترى أننا نبطل قول المريسي ونقبل منك، فذهبوا فسألوا ثمامة، فقال ثمامة: أخطأ الجاحظ، الجاحظ أحمق، هذا يجوز، على قول القائل: «إن سليمى والله يكلؤها (٢)».

وهذا النقد النحوى المصيب فيه الجاحظ لا المريسي ولا ثمامة، وما جاء به ثمامة ليس نظيرا للجملة التى لحن فيها بشر المريسي.

٦ – واتهمه «رينان» المفكر الفرنسي، وتبعه «كارادىفو» أباعثمان بأنه كبقية علماء العرب والإسلام فى الاعتماد على الحفظ، لاعلى البحث، ويقول (كارادى فو) أن الطابع الأدبى لا العلمى هو الغالب على كتب الجاحظ، وهذا ظلم كبير لأبى عثمان الذى كان أشهر العلماء المسلمين اعتمادا على التجربة والمعاينة والامتحان والبحث، وكان يقدم الشك أولا. وقد أسلفنا أنه سبق ديكارت فى مذهبه فى الشك، وسبق بيكون فى مذهبه التجريبى العلمى.

ويقول باحث معاصر: إن هذا الاتهام ينقضه كلام الجاحظ نفسه، الذى يدل على اهتمامه بالتجربة والخبرة الحسية، وهو يميل دائما إلى المعاينة فهو لايعتمد على السماع والنقل والحفظ، ولكنه يعتمد على الرؤية التى هى سبيل من سبل البحث العلمى التجريبى. على أنه كثيرا ماجمع بين الرؤية

---

(١) من أئمة المعتزلة، وكان يقول بخلق القرآن، وتوفى عام ٢١٨هـ (راجع ٢ : ٢١٣ البيان – ٧ : ٥٧ تاريخ بغداد – ٢ : ١٥٧ عيون الأخبار – ١٩٢ الفرق بين الفرق – ٢ : ٢٩ لسان الميزان – ٥٢٣ السمعانى)

(٢) ١٦٠ مجالس العلماء للزجاجي – ط الكويت ١٩٦٢

والتجربة ، واستعانته بالحواس فى التحقيق مماثلة لاستعانة الفيلسوف « بيكون » بها ، وقد سبق « بيكون » إلى المناداة بطريقة التجربة ، فاستعان بالحواس ، وأوصى بعدم المغالاة فيها لأنها قد تخدع ، ويزدحم كتابة « الحيوان » بمئات التجارب التى أجراها هو بنفسه ليصل إلى الحقيقة العلمية، ومن تجارب الجاحظ قبضه على الحيوان بنفسه أو بغيره ليقف على حركته، وتجربته على بعض الحيوانات بدفنها فى بعض النبات ليعرف حركاتها ، كما فعل فى « الجعل » حين دفنه فى الورد فمات ، فلما أعيد إلى (الروث) عادت إليه حركة الحياة من ساعته .

وهكذا نرى الجاحظ عالما تجريبيا عمليا متطلعا إلى المعرفة عن طريق الخبرة والتجربة ، ويذكرنا مافعله الجاحظ فى تاريخ المعرفة العربية بما فعله (رابليه) الفرنسى فى تاريخ التربية والتعليم فى القرن ١٦ الميلادى ، إذ دعا إلى نبذ المذهب الجدلى)[١] .

---

(١) ص ٢١ عدد ١٠٢٠ من مجلة الرسالة المصرية — أول أغسطس ١٩٦٣ - من مقال للأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، بعنوان « الاستظهار والتجربة فى الثقافة العربية » .

الفصل الرّابع

آثار الجاحظ

— ١ —

ترك الجاحظ آثارا فكرية وأدبية ودينية على جانب كبير من الأهمية في تاريخ الفكر العربي ؛ وقد ضاعت هذه الآثار ، ولم يبق إلا القليل الأقل منها ..

وهذه الآثار مظهر لملكة علمية ، ولذهنية عقلية ، ولمطالعات وبحوث ، عميقة ، إذ كان أبو عثمان أكثر الناس حبا للقراءة والتأليف ، ولا يعلم أحد من العلماء أكثر تأليفا منه ، كما يقول المسعودي (١) ، وقد اشتهر الجاحظ وثلاثة من معاصريه بكثرة التأليف ، وهم :

١ — هشام الكلبي (٢٠٦ هـ) ، وله نحو ١٣٩ مؤلفا (٢)

٢ — أبو عبيدة (١١٠ - ٢٠٩ هـ) ، وله نحو مائتي مؤلف (٣) . ويقول فيه الجاحظ : لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه (٤)

٣ — المدائني (١٣٥ - ٢٢٥هـ) وكتبه نحو المائتين ، ويقول المسعودي عنه : إن كان كثير الكتب ، إلا أنه كان يؤدي ما سمع (١)

---

(١) ٤ : ١٩٥ مروج الذهب

(٢) ١٤٩ الفهرست لابن النديم

(٣) ٢ : ١٠٦ وفيات الأعيان ، ٧٩ الفهرست

(٤) ١ : ٢٢٤ البيان

وكان يقال : أربعة لم يلحقوا ، ولم يسبقوا : أبو حنيفة فى فقهه ، والخليل فى أدبه ، والجاحظ فى تأليفه ، وأبو تمام فى شعره .

والقارىء لكتب الجاحظ وما حوته من آثار حفظه وتدوينه واستقرائه واستنتاجه يدرك سر إعجاب الأجيال بها ، حتى كان الناس يترقبون فى عصره صدورها كما نترقب اليوم ظهور الصحف والمجلات الذائعة ، ولم يكن عند أبى عثمان أحب من الكتاب والعلم كما قال أبو هفان (١)

— ٢ —

وتبلغ مؤلفات الجاحظ نحو ٣٦٠ كتابا فى رأى البعض ، وقد رأى أكثرها فى مشهد أبى حنيفة ببغداد سبط ابن الجوزى (٦٥٤ هـ)(٢) أو ٣٥٠ كتابا فى رأى آخر (٣) ، أو أكثر من ١٧٠ كتابا فى رأى فريق ثالث منهم ابن حجر (٤) ، أو نحو ١٦٠ كتابا فى رأى رابع (٥) ، وعدها ياقوت ١٢٨ مؤلفا (٦)

وسوف أحاول إحصاء هذه الكتب إحصاء دقيقا شاملا فى هذا الفصل .

ا — كتب فى القرآن الكريم :

١ — كتاب الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه ، ذكره الجاحظ فى مقدمة « الحيوان » ، ونقده الباقلانى وقال : إنه لم يأت

---

(١) ١٦ : ٧٥ معجم الأدباء لياقوت

(٢) مرآة الزمان الورقة ٥٨ من المجلد الثالث من الجزء العاشر ـ مصورة دار الكتب المصرية

(٣) ٢ : ٤١٩ أمراء البيان لمحمد كرد على

(٤) ٤ : ٣٥٧ لسان الميزان

(٥) السندوبى ـ أدب الجاحظ ـ فصل « مؤلفاته »

(٦) ٦ : ٧٥ ـ ٧٨ معجم الأدباء (مرجليوث)

فيه بجديد ولم يخرج فيه عما قاله المتكلمون قبله (١) ، وذكره ياقوت (٢) باسم «نظم القرآن»

٢ - كتاب آى القرآن ، جمع فيه آيات من القرآن يتعرف بها فرق ما بين الإيجاز والحذف وما بين الزوائد والفصول والاستعارات

٣ - خلق القرآن (٣) ، منه نسخة خطية بالمتحف البريطانى - ثانى ١٢٢٩

٤ - الرد على من ألحد فى كتاب الله

٥ - مسائل القرآن (٤)

ب - كتب فى الأحكام :

٦ - رسالة فى الميراث

٧ - « فى الشارب والمشروب ، منشورة فى مختارات رسائل الجاحظ بهامش « الكامل » للمبرد ، وفى رسائل الجاحظ نشر السندوبى (٥)

٨ - رسالة فى مدح النبيذ ، أهداها إلى الحسن بن وهب (٦)

---

(١) ٤٠٣ إعجاز القرآن للباقلانى - دار المعارف بالقاهرة

(٢) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء

(٣) ١ : ٩ و ٤ الحيوان ، ٣ : ١١٤ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

(٤) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء

(٥) ٢ : ٢٥١ - ٢٦٨ الكامل للمبرد ، ٢٧٦ - ٢٨٤ رسائل الجاحظ الطبعة الأولى ١٩٣٣ ، وراجع ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء ، ومنها نسخة خطية فى المتحف البريطانى (ثانى ١٢٢٩)

(٦) راجعها فى رسائل الجاحظ نشر السندوبى الطبعة الأولى ١٩٣٣ ص ٢٨٥ - ٢٩١

٩ - رسالة فى ذم النبيذ

١٠ - كتاب ذم الزنا

١١ - كتاب ذم اللواط (١)

١٢ - كتاب القحاب والـكلاب واللاطة (٢)

١٣ - ذم القواد (٣)

١٤ - أصول الفتيا والأحكام ، ويسميه ياقوت كتاب « الفتيا » (٤)

١٥ - رسالة فى إثم السكر

جـ - كتب فى الاعتزال والـكلام :

١٦ - كتاب فضيلة المعتزلة (٥)

١٧ - الاعتزال وفضله على الفضيلة (٦)

١٨ - إحالة القدرة على الظلم

١٩ - أحدوثة العالم

٢٠ - الاستطاعة وخلق الأفعال

٢١ - أفعال الطبائع

---

(١) ١ : ٣١ - ٤٠ الـكامل للمبرد

(٢) ١٢ الفرق بين الفرق للبغدادى

(٣) ٦٧ - ٧٢ طراز المجالس للشهاب الخفاجى

(٤) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء

(٥) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء ، ١ : ٥ الحيوان ، ١٥٤ الفرق بين الفرق ؛ كتاب الانتصار للخياط - وقد رد عليه ابن الراوندى بكتاب سماه « فضيحة المعتزلة »

(٦) ٣ : ١٢٧ ضحى الإسلام ، وقد يكون هو نفس الـكتاب السابق

٢٢ ـ الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير(١) .

٢٣ ـ الرد على الجهمية .

٢٤ ـ الرد على القولية .

٢٥ ـ الرد على من زعم أن الإنسان جزء لايتجزأ .

٢٦ ـ الرد على أبى إسحاق النظام وأشباهه (٢) .

٢٧ ـ العبر والاعتبار(٣) ، وقد يكون هو نفس كتاب «التفكر والاعتبار» المنسوب للجاحظ ، وقد يكون الكتابان هما نفس كتاب «الدلائل والاعتبار»

٢٨ ـ رسالة فى اللاشى والمتلاشى .

٢٩ ـ الوعد والوعيد .

٣٠ ـ رسالة فى نفى التشبيه ، أهداها إلى ابن أبى دؤاد(٤) .

٣١ ـ المعارف(٥)

٣٢ ـ مسائل وجوابات فى المعرفة (٥) .

٣٣ ـ مسائل كتاب المعرفة (٦) ويطلق عليه كتاب المعرفة (٧) .

٣٤ ـ جوابات كتاب المعرفة(٦) ، ويسمى «جوابات المعرفة» ، ولعله كتاب الجوابات المنسوب للجاحظ .

---

(١) منه نسخة خطية فى المتحف البريطانى (ثانى ٦٨٤) ونشر فى حلب عام ١٩٢٨ ، وقد يكون هو كتاب «التفكر والاعتبار» المنسوب للجاحظ ، ويرجح البعض أنه للحارث المحاسبى (١٥٣ أدب الجاحظ للسندوبى) ولجبريل بن نوح (نحو ٢٤٥ هـ) كتاب بهذا الاسم أيضا

(٢) المتحف البريطانى ثانى ١١٢٩ (٣) المتحف البريطانى ثانى ٦٨٤

(٤) مكتبة داود بالموصل ٧ : ٢٦٥

(٥) ١٣٣ الفرق بين الفرق (٦) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء

(٧) المتحف البريطانى ثانى ١١٢٩ : ١١

٣٥ ـ المسائل .

٣٦ ـ فضيلة الكلام(١) ، وللرازى (٢٢٠هـ) كتاب فى الرد عليه بعنوان: مناقضة الجاحظ فى كتابه « فضيلة الكلام » .

٣٧ ـ المخاطبات فى التوحيد(٢) .

د ـ كتب فى الفرق والآراء :

٣٨ ـ كتاب أصحاب الإلهام، ويسمى كتاب « الرد على أصحاب الإلهام »(٢)

٣٩ ـ بصيرة غنام المرتد(٣)

٤٠ ـ الرد على اليهود

٤١ ـ الرد على النصرانى واليهودى(٤)

٤٢ ـ الرد على المشبهة (٥) .

٤٣ ـ الرد على النصارى(٦) ، وهو منشور بهامش الكامل ، وطبع فى المطبعة السلفية ١٣٤٤ هـ ضمن ثلاث رسائل ، ونشره فنكل فى ثلاث رسائل

---

(١) الفهرست لابن النديم ، ويسميه المسعودى « تفضيل صنعة الكلام » ويقول إنه هو الرسالة الهاشمية (٤ : ٣٢٤ مروج الذهب) التى قال خصوم الجاحظ إنه خرج فيها عن حد الاعتزال (١ : ٧ الحيوان)

(٢) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء

(٣) أحرق بالنار لردته عام ٢٣٤ هـ (٣ : ١٣٠٢ الطبرى ـ ط أوربا)

(٤) ١ : ٥ الحيوان

(٥) منه نسخة خطية فى المتحف البريطانى (ثانى : ١١٢٩)

(٦) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء

بالقاهرة ١٩٢٦ ، ومنه نسخة خطية فى المتحف البريطانى[١] .

٤٤ ـ حجج النصارى على المسلمين[٢] .

٤٥ ـ حكاية قول أصحاب الزيدية .

٤٦ ـ ذكر مابين الزيدية والرافضة .

٤٧ ـ معارضة الزيدية

٤٨ ـ مقالات الزيدية والرافضة ، ويتفق مع رسالة «استحقاق الإمامة» فى بعض الأجزاء ، ومنه نسخة خطية (٣) .

٤٩ ـ رسالة فى فرط جهل الكندى (الفيلسوف العربى ٢٥٣ هـ) ، ولعلها رد على رسالته فى صناعة الشعر (٤) .

٥٠ ـ رسالة فى النابتة (٥) ٥١ ـ الشعوبية (٦)

هـ ـ كتب فى السياسة :

٥٢ ـ رسالة فى أمر الحكمين وتصويب رأى على[٧] ، وهى مهداة إلى أبى حسان .

---

(١) المتحف البريطانى ثانى : ١١٢٩ : ٦

(٢) ٧٢ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة

(٣) المتحف البريطانى ثانى : ١١٢٩ : ٢٣ مقالات

(٤) ٣٥٩ الفهرست لابن النديم ـ ولأبى زيد البلخى (٣٢٢ هـ) تلميذ الكندى رسالة فى صناعة الشعر أيضا (١٩٨ الفهرست)

(٥) نشرها داود جلبى فى مجلة لغة العرب ١٩٣٠ ، ويرجح البعض أنها ليست للجاحظ (٢ : ٣٦٠ أمراء البيان لمحمد كرد على)

(٦) ذكرها الجاحظ فى البخلاء (٢٦٣ سطر ١١)

(٧) امبروزيانا ١٢٩ هـ ـ وتسمى «تصويب على فى تحكيم الحكمين» =

٥٣ ـ رسالة فى بنى أمية (١) ، ومنها جزء منشور فى رسائل الجاحظ جمع السندوبى ، وهى مطبوعة فى الجزء الثالث من « عصر المأمون »(٢) .

٥٤ ـ الرد على العثمانية .

٥٥ ـ السلطان وأخلاق أهله .

٥٦ ـ الرسائل الهاشميات(٣) .

٥٧ ـ العثمانية ، وقد تعرض فيه للإمام على بالنقد ورد عليه علماء من الشيعة ، منهم : أبو عيسى الوراق (٢٤٠هـ) ، والحسن النخعى ، والاسكافى(٤) (٢٤١ هـ) وقد يكون هذا الكتاب هو كتاب « مسائل العثمانية »(٥) ، وهو كذلك عين كتاب « رسائل مقالات العثمانية » ويدافع الجاحظ فيه عن وجهة نظر العثمانية فى الإمامة ، ولما نقض الاسكافى كتاب العثمانية فى حياة الجاحظ دخل أبو عثمان حى الوراقين ببغداد فقال : أين هذا الغلام السوداوى الذى بلغنى أنه تعرض لنقد كتابى ، وأبو جعفر جالس ، فاختفى منه حتى لم يره ، وكان أبو جعفر الاسكافى علوى الرأى(٦) .

= (١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء) وقد تكون هى رسالته فى إثبات إمامة على (مجلة لغة العرب ٩ : ٤٩٧ - ٥٠١)

(١) منها نسخة خطية بالظاهرية بدمشق رقم ٩٤

(٢) ص ٢٩٢ وما بعدها (٣) ١ : ٥ الحيوان

(٤) ص ١ - ١٢ رسائل الجاحظ للسندوبى

(٥) مروج الذهب للمسعودى ، ونقده المسعودى نقدا لاذعا

(٦) ولجمال الدين الحلى (٦٧٣ هـ) كتاب مخطوط عنوانه « بناء المقالة العلوية فى نقض الرسائل العثمانية » فى ٢٥٣ صفحة ، ومنه نسخة خطية فى مكتبة الإمام كاشف الغطاء فى النجف رقم ٢٨٤ . وفى مكتبة الشيخ محمد رضا الشبيبى فى بغداد نسخة خطية من كتاب « النقود » فى الرد على رسالة الجاحظ ، وتاريخ نسخها عام ١٣٤٥ هـ

٥٨ ـ تفضيل بنى هاشم على من سواهم (١)

٥٩ ـ جوابات فى الإمامة (٢)

٦٠ ـ الدلالة على أن الإمامة فرض ، ولعله هو نفس كتاب « استحقاق(٣) الإمامة » و « رسالة وجوب الإمامة »

٦١ ـ الإمامة على مذهب الشيعة ، وربما كان هو كتاب « بيان مذاهب الشيعة » المنشور فى « مجموعة رسائل الجاحظ »

٦٢ ـ إمامة معاوية (٤)

٦٣ ـ إمامة ولد العباس ، أو إمامة بنى العباس (٤) ، ويقول المسعودى إن الجاحظ ألفه تقربا ، ونشر منه السندوبى صفحات فى كتابه « رسائل الجاحظ » التى جمعها ، ويرجح أن تكون وصية العباس حين وفاته إلى على ابن أبى طالب جزء من هذا الكتاب ، وقد ردها الصولى عن الجاحظ وأثبتها السندوبى(٥) ، وفيها يوصى العباس الإمام عليا بترك الشقاق للخليفة عثمان

٦٤ ـ الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم

٦٥ ـ فخر هاشم وعبد شمس ، وهو كتاب «فضل هاشم على عبد شمس» المنشور فى رسائل الجاحظ التى جمعها السندوبى

٦٦ ـ الرسالة اليتيمة

---

(١) مجلة لغة العرب ٩ : ٤١٤ ـ ٤٢٠

(٢) منه نسخة فى المتحف البريطانى (ثانى ١١٢٩ : ٢٦)

(٣) المتحف البريطانى ثانى ١١٢٩ : ٢٠ ، وهى منشورة فى رسائل الجاحظ

(٤) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء ، وأشار إليه المسعودى فى مروج الذهب

(٥) ١٢٣ و ١٢٤ أدب الجاحظ للسندوبى

٦٧ - كتاب التاج أو أخلاق الملوك ، نشره أحمد زكى باشا عام ١٣٣٢ هـ : ١٩١٤ م وكتب مقدمة أثبت فيها أنه للجاحظ ، والحق أنه منحول عليه (١) والظاهر أن مؤلفه فارسى معاصر لأبى عثمان وأهداه للفتح بن خاقان ، ويحتوى الكتاب (٢) على نصوص من كتاب آيين نامه (٣) ، وهو مصدر نفيس للحضارة الاجتماعية فى عصر السامانيين ؛ ويستدل السندوبى على أنه منحول على الجاحظ بالموازنة بين أسلوب مقدمته وأسلوب مقدمة رسالة مناقب الترك للجاحظ . ولابن المقفع كتاب التاج أيضا (٤) وهو فى سيرة انو شروان (٥)

و - كتب فى الأخلاق والمجتمع :

٦٨ - أخلاق الشطار

٦٩ - أخلاق الفتيان ، وفضائل أهل البطالة (٦)

٧٠ - رسالة إلى محمد بن عبد الملك الزيات فى الأخلاق المحمودة والمذمومة (٧)

---

(١) ٣ : ١٢٦ بروكلمان ، ٢ : ٣٦٠ أمراء البيان ، ١٤٥ - ١٥٢ أدب الجاحظ

(٢) ٣ : ١٢٧ بروكلمان

(٣) ترجمه ابن المقفع من الفارسية نقلا عن الكتاب البهلوى ، وهو نوع من الكتب المختصرة فى نظام الدولة (٣ : ٩٧ بروكلمان ، وهو كما يقول المسعودى كتاب كبير ويقع فى آلاف الصفحات

(٤) ٣ : ٩٧ بروكلمان

(٥) ١ : ١٨٥ ضحى الإسلام

(٦) ٦ : ٧٦ معجم الأدباء (مرجليوث)

(٧) مكتبة داود جلبي بالموصل ٢٦٤ : ٣

٧١ ـ كتاب أخلاق الملوك (١)

٧٢ ـ كتاب الاستبداد والمشاورة فى الحرب

٧٣ ـ تهذيب الأخلاق ، والظاهر أنه منحول للجاحظ ، وأنه من تأليف أحد المسيحيين وقد يكون هو عدى بن يحيى الذى نشر الكتاب فى القاهرة باسمه ، كما نشر فيها أيضا باسم محيى الدين بن عربى

٧٤ ـ الحاسد والمحسود ، ومنه نسخة خطية فى مكتبة الأزهر (٢)

٧٥ ـ الحزم والعزم

٧٦ ـ رسالة فى العفو والصفح

٧٧ ـ الفصل مابين العداوة والحسد

٧٨ ـ الكبر المستحسن والمستقبح

٧٩ ـ النبل والتنبل وذم الكبر وهى فى المتحف البريطانى (٣)

٨٠ ـ كتمان السر وحفظ اللسان

٨١ ـ رسالة فى الكرم

٨٢ ـ كتاب الاخوان

٨٣ ـ رسالة فى القيان ، طبعت بالمطبعة السلفية مع مجموعة ثلاث رسائل عام ١٣٤٤ ﻫ

---

(١) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء ـ ومنه نسخة خطية بأياصوفيا ٢٨٢٨

(٢) برقم ٧٠٤٦ أدب ـ وقد طبع الكتاب عام ١٣٢٤ ﻫ فى مجموعة رسائل الجاحظ

(٣) ثانى ١١٢٩ : ١٨

٨٤ ـ رسالة فى المودة والخلطة موجهة إلى أبى الفرج الكاتب ، ومنها نسخة خطية بالمتحف البريطانى (ثانى ١١٢٩ : ١١) ونشرت فى آخر مجموعة رسائل الجاحظ التى جمعها السندوبى

٨٥ ـ رسالة فى وصف العوام ، ذكرها الشهاب الخفاجى (١) ويتفق مطلعها مع مطلع رسالة الجاحظ فى نفى التشبيه

ز ـ كتب فى الاقتصاد :

٨٦ ـ رسالة إلى أبى النجم (٢) فى الخراج ، وقد تكون هى نفس رسالة الجاحظ إلى أبى النجم وجوابه ، وقد ذكرهما الباحثون على أنهما متغايران

٨٧ ـ أقسام فصول الصناعات ومراتب التجارات

٨٨ ـ كتاب الأخطار والمراتب والصناعات

٨٩ ـ تحصين الأموال

٩٠ ـ التبصر بالتجارة (٣)

٩١ ـ غش الصناعات (٤)

٩٢ ـ مدح التجارة وذم عمل السلطان ـ مطبوع فى مجموعة « رسائل الجاحظ » المنشورة عام ١٣٢٤ هـ

٩٣ ـ المعاد والمعاش فى الأدب وتدبير الناس ومعاملتهم (٥)

٩٤ ـ المعادن والقول فى جواهر الأرض

---

(١) ص ١٧٥ طراز المجالس ط ١٢٨٤ بولاق

(٢) هو هلال الانبارى الكاتب الأديب توفى نحو عام ٢٧٠ هـ

(٣) نشر فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق (١٢ : ٣٢١ - ٣٥٥)

(٤) ١٦٢ الفرق بين الفرق للبغدادى

(٥) راجع مخطوطة المتحف البريطانى ثانى ١١٢٩ : ١٢

٩٥ ـ النواميس فى حيل أهل الغش والتدليس (١)

٩٦ ـ كتاب الوكلاء والموكلين (٢) وهو مطبوع عام ١٢٢٤ فى مجموعة « رسائل الجاحظ »

ح ـ كتب فى الأدب :

٩٧ ـ كتاب إلى إبراهيم بن المدبر (٣) فى المكاتبة

٩٨ ـ استطالة الفهم وجمع فيه الجاحظ نبذا من كلام الحكماء والشعراء كما يقول الشهاب الخفاجى فى « طراز المجالس »

٩٩ ـ كتاب الاسم والحكم (٤)

١٠٠ ـ استنجاز الوعد (٥)

١٠١ ـ امتحان عقول الأولياء بعث بها إلى أبى الفرج نجاح بن سلمة (٢٤٥ هـ)

١٠٢ ـ الأمثال

١٠٣ ـ الأمل والمأمول

١٠٤ ـ الأنس والسلوى

---

(١) ١٥٢ الفرق للبغدادى

(٢) منه نسخة خطية فى المتحف البريطانى (ثانى ١١٢٩ : ١٢)

(٣) كاتب بليغ كان صديقا للجاحظ وتوفى عام ٢٧٩ هـ وهو صاحب الرسالة العذراء ، وللجاحظ فيه شعر (٣١٣ و ٣١٤ رسائل الجاحظ)

(٤) ١ : ١٤٩ الحيوان

(٥) المتحف البريطانى ثانى ١١٢٩ : ٢١

١٠٥ ـ "البخلاء ، من أروع كتب الجاحظ ويحق للعربية أن تفاخر به (١) ، نشره فان فلوتن ١٩٠٠م ، ونشر رشر قسما منه ، ونشر مارسيه تصحيحات له ، وطبع فى مصر عام ١٣٢٣ هـ وعام ١٩٣٨ بتحقيق للعوامرى والجارم ، وعام ١٩٤٧ بتعليقات للحاجرى ، ولمحمد المبارك بحث عن فن القصص فى البخلاء .

١٠٦ ـ البلاغة والإعجاز (٢) .

١٠٧ ـ البيان والتبيين ، من أهم كتب الجاحظ ، ألفه فى أخريات حياته وأهداه إلى ابن أبى دؤاد فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، ويقول فيه المسعودى: إنه من أشرف كتب الجاحظ لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب مالو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به (٣) ، وقال فيه ابن خلدون : سمعت من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة : أدب الكاتب لابن قتيبة ، والكامل للمبرد ، والبيان للجاحظ ، والنوادر للقالى ، وماسوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها (٤) ـ وطبعت منتخبات منه عام ١٣٠١هـ فى القسطنطنية ضمن مجموعة بعنوان «خمس رسائل» ، وكتب على المنتخبات إنها تأليف الجاحظ ، ويبدو أن الذى من تأليفه «البيان» لا المنتخبات المختارة منه ، التى لا يعلم اسم من اختارها ، وقد يكون أحد الذين أشرفوا على طبع هذه الرسائل أو غيره ؛ ونشرت منتخبات أخرى من الكتاب عام ١٩١٠ فى القاهرة ، وفى بيت المقدس عام ١٩٣٣ فى ٢٤٨ صفحة وهى منتخبات من اختيـــار شريف

(١) ٦٨ من حديث الشعر والنثر ـ طه حسين

(٢) المتحف البريطانى ثانى ١١٢٩ : ١٦

(٣) ٤ : ١٩٦ مروج الذهب

(٤) ٥٥٣ ، ٥٥٤ مقدمة لابن خلدون

النشاشيبي وخليل بيدس . وطبع الكتاب في القاهرة عام ١٣١٣ هـ في جزءين ، ونشره محب الدين الخطيب عام ١٣٣٢ هـ - ١٤ في ثلاثة أجزاء ، ونشر عام ١٩٢٧ في ثلاثة أجزاء أيضا بتعليقات للسندوبي ، وأعاد طبعه عام ١٩٣٣ ، ونشرته مكتبة الخانجي في القاهرة عام ١٩٦١ في أربعة أجزاء بتحقيقات لعبد السلام هارون ، وللمستشرق الروسي كراتشكوفسكي (١٩٥٠ م) بحث عن القسم الخاص بالبلاغة من الكتاب ، وقد نقد بعض الباحثين منهج الجاحظ في الكتاب (١) ومنه نسخ خطية في مختلف مكتبات العالم ، وقد ألفه الجاحظ بعد « الحيوان » وفيه يشير إلى كتاب « الحيوان » ، ويقول : كانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار ؛ فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر ، ولم يؤلف الكتاب إلا بعد عام ٢٣٣ وهو العام الذي قتل فيه ابن الزيات منافس ابن أبي دؤاد .

١٠٨ - التربيع والتدوير من أطرف رسائل الجاحظ كتبها في أحد الوراقين من غلاة الشيعة وكان يعيش في مكة ؛ ووجه إليه فيها أبو عثمان مائة سؤال في شتى أنواع المعرفة ، ومنها نسخة خطية في المتحف البريطاني (ثاني ١١٢٩ : ٣) وقد نشرت في استامبول عام ١٣٢٤ هـ ، وفي ليدن مع بعض الرسائل عام ١٩٠٣ ؛ وفي مصر مع مجموعة من رسائل الجاحظ عام ١٣٢٤ هـ ، ونشرها السندوبي في كتابه « رسائل الجاحظ » عام ١٩٢٣ .

١٠٩ - التمثيل .

١١٠ - ذم أخلاق الكتاب ؛ طبع ضمن ثلاث رسائل للجاحظ عام ١٣٤٤ هـ في المطبعة السلفية بالقاهرة ، وفي هامش الكامل للمبرد .

---

(١) ١ : ٤١٢ ضحى الإسلام

١١١ ـ رسائل الجاحظ ، منهـــا مختارات فى برلين(١) ، وفى المتحف البريطانى (٢) ، وطبعت الرسائل فى القاهرة ١٣٢٤ هـ على هامش الـكامل للمبرد ، وعام ١٩٣٣ باختيارات حسن السندوبى ، وتشتمل هذه المجموعة الأخيرة على مختارات من اثنتى عشرة رسالة ، وقد أخرج الحـاجرى وكراوس مجموعة رسائل للجاحظ .

١١٢ ـ سحر البيان(٣) .

١١٣ ـ عناصر الآداب .

١١٤ ـ الفرق فى اللغة (٤) .

١١٥ ـ فضل اتخاذ الـكتب ، ولعلها رسالة أبى عثمان فى مدح الـكتاب والرسالة التى عنوانها « مدح الـكتب والحث على جمعها » .

١١٦ ـ رسالة فى القلم .

١١٧ ـ مائة مثل من أمثال على بن أبى طالب رواها عنه فى آخر حياته تلميذه أحمد بن طاهر ، وذكرها ابن قتيبة فى عيون الأخبار ، وطبعت فى « التحفة البهية » باستامبول عام ١٣٤١ هـ ، ومنها نسخ خطية بمـكتبة برلين ٨٨٥٦ و ٨٨٥٧ ، وربمـا كانت هى مائة حـكمة ومثل بالعربية والفارسية للوطواط (٥٧٨ هـ) « مجلة لغة العرب ١٩٣١ » .

ط ـ كتب فى المعارف العامة :

١١٨ ـ الأخبار ، ومنه قطعة فى « المنية والأمل المرتضى ، ويذكر

---

(١) نسخة خطية برقم ٤٦٦

(٢) ثانى ١١٢٩ ، وهى مختارات من ٢٧ رسالة

(٣) منه نسخة خطية فى كوبريلى ١٢٨٤

(٤) منه نسخة خطية بمـكتبة القرويين بفاس ١٢٦١ (١٤ معارف ٥٢)

ياقوت(١) كتابا للجاحظ بعنوان : « الأخبار وكيف تصح » وكتابا بعنوان : « تصحيح الأخبار » وقد تكون هذه الكتب كلها كتابا واحدا .

١١٩ ـ الأوفاق والرياضيات .

١٢٠ ـ الجوارى(٢) ، وقد يكون هو كتاب « مفاخرة الجوارى » أو كتاب « مفاخرة الغلمان والجوارى » .

١٢١ ـ حانوت عطار .

١٢٢ ـ الحلبة .

١٢٣ ـ صناعة القواد ، ويسمى كتاب القواد ، « أو القواد وأسباب الصناعات » .

١٢٤ ـ العرافة والزجر والفراسة على مذهب الفرس(٣) .

١٢٥ ـ العرس والعروس(٤) .

١٢٦ ـ العرجان والبرصان .

١٢٧ ـ العشق والنساء(٥) ، وقد طبعت فى رسائل الجاحظ ، والكتاب أصل لرجوع الشيخ إلى صباه .

١٢٨ ـ فضل العلم .

١٢٩ ـ كتاب المعلمين .

---

(١) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء ـ وفى الانتصار (ص ٢٢ و ١٥٥) ذكر لكتاب مجىء الأخبار وربما كان هو أحد الكتب السابقة

(٢) ١٦ : ١٠٧ معجم ، ٣٤ الكنايات للجرجانى

(٣) ليدن أول ١٢١٠

(٤) ٥ : ١١٥ كشف الظنون

(٥) منه نسخة خطية بالمتحف البريطانى ثانى ١١٢٩ : ٦

١٣٠ ـ فنون شتى مستحسنة ، منه نسخ فى الظاهرية بدمشق (٨٥ و ١٢٥)

١٣١ ـ رسالة فى الكيمياء

١٣٢ ـ الغناء والمغنون والصنعة ، ويسمى طبقات المغنين ، ألفه الجاحظ ٢١٥ هـ كما ذكر فيه [1] .

١٣٣ ـ النرد والشطرنج

١٣٤ ـ النعل

١٣٥ ـ تنبيه الملوك والمكايد [2] ويشك فى نسبته للجاحظ

١٣٦ ـ الحنين إلى الأوطان [3] ، والظاهر أنه منحول للجاحظ [4] ، ويقول بروكلمان : إن عده منحولا أمر يعسر القطع به [5] ، ولموسى بن عيسى الكسروى ـ وكان يعاصر الجاحظ وهو أحد المترجمين من الفارسية إلى العربية ـ كتاب بهذا العنوان [6] .

١٣٧ ـ كتاب الطفيليين [7] .

ى ـ كتب فى النبات :

١٣٨ ـ كتاب التفاح

---

(١) مجلد ٢ ح ٨ مجلة المنتقد

(٢) منه نسخة خطبة بكوبر لى ١٠٦٥ ولها مصورة شمسية بالقاهرة ثانى ٦٩ برقم ٢٣٥٤

(٣) طبع بالمنار بالقاهرة عام ١٣٣٣ هـ بإشراف الشيخ طاهر الجزائرى

(٤) ١٥٣ أدب الجاحظ

(٥) ٣ : ١٢٨ بروكلمان

(٦) ٣ : ١٠٢ بروكلمان ـ تاريخ الأدب العربى

(٧) ٤ : ١٩٦ مروج الذهب

١٣٩ ـ الزرع والنخل والزيتون والأعناب ، أهداه أبو عثمان إلى ابراهيم بن العباس الصولى رئيس ديوان الرسائل للمأمون ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار

ك ـ كتب فى الحيوان :

١٤٠ ـ الأسد والذئب

١٤١ ـ الحيوان ؛ من أهم كتب الجاحظ وأشهرها ، ويعد أثرا من آثار السن والتجربة ، ويثنى عبد القاهر الجرجانى على بلاغة مقدمته ومقدمات كتب الجاحظ (١) ، وقد أهداه إلى ابن الزيات فأجازه عليه بخمسة آلاف دينار ، ويذكر البغدادى أنه مسروق من حيوان أرسطو ومما ذكره المدائنى (١٣٥ ـ ٢٣٤ هـ) ، وقد اختصره عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩ هـ) وسماه « اختصار الحيوان » ، ولخصه ابن سناء الملك المصرى الشاعر (٥٨٠ هـ) ؛ ومنه مخطوطات فى شتى مكتبات العالم ، ومنه مختارات فى الاسكوريال (٢) ، ونشر فى القاهرة عام ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ فى ٧ أجزاء ، ونشره عبد السلام هارون فى سبعة أجزاء عام ١٣٥٧ ، ونشر تهذيبا له فى جزئين ونشر فان فلوتن مختارات منه ، وكتب آسين بالاسيوس تحليلا للحيوان فى مجلة إيزيس (١٤ : ٢٠ ـ ٥٤) . وكتب مصطفى الشهابى تعريفا بمصطلحات الحيوان (٣) ، وكتب فيدمان بحثا عن الكيمياء القديمة عند الجاحظ (٤)

---

(١) ٦ ـ ٧ أسرار البلاغة

(٢) ثانى ٨٩٧ و ٩٠١ ـ وممن اختصروه أبو هاشم هبة الله (٨٠٦ هـ)

(٣) مجلة المجمع العلمى العربى ١٩٣١ ص ٥٠١ ومجلة المشرق ٢٩ : ٦٢٨

(٤) راجع عن الحيوان : ١ : ٤١٦ ضحى الاسلام ، ٣ : ١١١ بركلمان ، ١٩٦ النقد المنهجى عند الجاحظ

١٤٢ - البغال ومنافعها (١)

١٤٣ - الإبل ، ويقول ياقوت إنه ليس من كلام الجاحظ ولا يقاربه(٢)

ل - كتب فى الجغرفيا :

١٤٤ - افتخار الشتاء والصيف

١٤٥ - الأمصار وعجائب البلدان ، وربما كان هو كتاب « الأوطان والبلدان » الذى تحدث فيه عن مكة والمدينة (٣) ، ويقال له كتاب البلدان أيضا

١٤٦ - سلوة الخريف بمناظرة الربيع والخريف : نشر فى استامبول عام ١٣٠٢ ﻫ بمطبعة الجوائب عن نسخة خطية كتبت عام ٤٤١ ﻫ ، وفى بيروت ١٣٢٠ ﻫ . ويشك كثيرون فى نسبته (٤) للجاحظ،ويبدوأنه لكاتب فارسى عاش فى أواخر القرن الرابع الهجرى

م - كتب قصصية :

١٤٧ - حكاية عثمان الخياط فى اللصوص ووصاياه،أو كتاب اللصوص ؛ ومنه نسخة خطية بالموصل ٢٦٤٠ ، ويسمى « حيل اللصوص » (٥)

١٤٨ - حيل المكدين ، ولعله كتاب النواميس فى حيل أهل الغش والتدليس (٦)

---

(١) منه نسخة خطية بمكتبة الموصل ١٤ و ٢٦٥

(٢) ١٦ : ١٠٦ معجم الأدباء

(٣) منه نسخة فى المتحف البريطانى ثانى ١١٢٩ : ١٥

(٤) ١٥٣ أدب الجاحظ

(٥) البخلاء ج ١ ص ١ سطر ٣

(٦) ص ١٥٢ الفرق بين الفرق للبغدادى

١٤٩ - المضاحك ، أو مضاحيك البغدادى(١) .

١٥٠ - الملح والطرف .

١٥١ - نوادر الحسن .

ن - كتب فى الإنسان والأجناس :

١٥٢ - الصرحاء والهجناء .

١٥٣ - أمهات الأولاد .

١٥٤ - العرب والعجم .

١٥٥ - العرب والموالى ، أو فضل الموالى على العرب(٢) .

١٥٦ - فخر السودان على البيضان ، وطبع بلندن عام ١٩٠٣ مع بعض الرسائل ، ثم طبع مع مجموعة رسائل الجاحظ عام ١٣٢٤ هـ .

١٥٧ - فخر القحطانية والعدنانية .

١٥٨ - مفاخرة السودان والحمران .

١٥٩ - مناقب الترك وعامة جند الخلافة أهداه إلى الفتح بن خاقان (٢٤٧ هـ) ، وهو مطبوع بلندن عام ١٩٠٣ مع عدة رسائل ؛ ونشره إبراهيم المويلحى (١٨٤٦ - ١٩٠٦) فى جريدته « مصباح الشرق » عن نسخة خطية وطبع فى القاهرة عام ١٨٩٨ بعنوان « فضائل الأتراك » ، ونشر عام ١٣٢٤ مع رسائل للجاحظ ، وترجم للتركية والإنجليزية .

---

(١) ١٥٨ المرجع

(٢) هكذا ذكره ابن عبد ربه (٢ : ٧٤ سطر ٢٥ ط ثانية)

س - كتب فى الجدل :

١٦٠ - خصومة مابين الحول والعور

١٦١ - ذم العلوم ومدحها ، ومنه نسخة خطيـــة فى مكتبة الفاتح باستامبول ٣٨٩٨

١٦٢ - تفصيل النطق على الصمت ، منه نسخة خطية فى المتحف البريطانى (ثانى ١١٢٩ : ٢٢) ، وطبع بمصر عام ١٣٢٤ هـ مع رسائل أخرى

١٦٣ - تفضيل البطن على الظهر فى المتحف البريطانى ١١٢٩ : ١٧ ثانى

١٦٤ - الجد والهزل ، أهداها إلى ابن الزيات ، وتسمى « المزاح والجد »

١٦٥ - الحجاب وذمه (١) وطبع فى رسائل الجاحظ جمع السندوبى

١٦٦ - فرق مابين الجن والإنس

١٦٧ - فرق مابين الملائكة والجن

١٦٨ - فرق مابين النبى والمتنبى ، أو كتاب النبى والمتنبى

١٦٩ - حجج النبوة (٢) ، وهو مطبوع فى رسائل الجاحظ ، ويشير فيه الجاحظ إلى التحدى وخلق القرآن وامتحان ابن حنبل عام ٢١٩ هـ فى مجلس المعتصم

١٧٠ - الحجة فى تثبيت النبوة

١٧١ - النبوات

---

(١) ١٧٢ - ١٧٥ طراز المجالس للشهاب الخفاجى

(٢) منه نسخة خطية فى المتحف البريطانى ثانى ١٢٩ رقم ٨ ، وينقـــل عبد القاهر نصا عن كتاب « النبوة » (٢٩٨ دلائل الإعجاز)

١٧٢ ـ فضل ما بين الرجال والنساء

١٧٣ ـ فضل الفرس على الهملاج (١)

١٧٤ ـ مدح الوراقة

١٧٥ ـ ذم الوراقة

١٧٦ ـ مناظرة ما بين الخؤولة والعمومة

١٧٧ ـ مفاخرة المسك والرماد أشار إليها الصفدى (٧٦٤ هـ) فى شرحه على لامية العجم للطغرائى

١٧٨ ـ نقض الطب ، ألف الرازى (٣٢٠هـ) كتابا فى نقده (٢) ، وكذلك ابن مندويه الأصفهانى الطبيب أحمد بن عبد الرحمن (٣)

١٧٩ ـ المحاسن والأضداد ـ طبع فى القاهرة طبعات عدة منسوبا للجاحظ ، وممن نسبه له محي الدين بن عربى فى كتابه « محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار » ، ونفى نسبته عنه بعض الباحثين (٤) بدليل أن فيه شعرا لابن المعتز (٢٤٩ ـ ٢٩٦ هـ) ، وإشارات إلى أحداث تاريخية وقعت عام ٢٩٤ هـ ، ويقول محمد كرد على (٥) : إن الكتاب كله أو جله من قلم الجاحظ أو جمعه بعضهم من كلامه وكلام غيره ، وهذا رأى بروكلمان أيضا فهو يقول : إنه مجموعة ضمت إلى كتاب صحيح النسبة للجاحظ قصصا وأخبارا من كتاب يحمل نفس التسمية من تصنيف البيهقى (٦) ، كما أضاف

---

(١) هو البرذون السهل القياد

(٢) ٣٠٠ الفهرست (٣) ٢ : ٢٢ طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة

(٤) ١٥٥ أدب الجاحظ

(٥) ٢ : ٤٣٢ أمراء البيان

(٦) من أصحاب ابن المعتز واعتمد فى كتابه على الجاحظ (٣ : ١٣٥ بروكلمان)
المحاسن والأضداد ، للبيهقى أبو الفضل ابراهيم فى القاهرة فى جزءين
(٢) هـ ١٩٠٠ م

إلى القسم الثانى عن النساء والحب والزواج نوادر ساسانية وعربية قديمة ومعاصرة [١] . ونلاحظ على الكتاب مايلى :

١ ـ يحتوى على قصص هندية على لسان الحيوان وغيره [٢] ، وقصص فارسية [٣] ، وقصص عربية كثيرة نادرة ، ومنها قصيدة قصصية شعرية رائعة لشهاب بن حرقة السعدى [٤] الأموى

٢ ـ وهو حافل بروائع الأدب والقصص والفكاهات والنوادر والطرائف وبكثير من بلاغات العرب

٣ ـ وفيه أعلام متأخرة عن عصر الجاحظ كابن المعتز [٥] ، وأحمد بن عبد العزيز بن أبى دلف [٦] الذى توفى نحو عام ٢٩٨ هـ [٧] ، وأبى على الأسكرى المصرى من جلاس الأمير تميم بن تميم بن المعز الفاطمى ، وتميم بن المعز توفى عام ٣٧٤ هـ

٤ ـ وفى الكتاب روح شيعية : ظاهرة نلمسها فى تمجيد الحسن بن على وبلاغته [٨] ، وهى ليست معروفة عن الجاحظ

٥ ـ وفى الكتاب أعلام معاصرون للجاحظ وورد فيه تاريخ ٢٤٠ هـ [٩]

وكل ذلك يدل على أن اصل الكتاب للجاحظ ، وأضيف إليه بعض النصوص المتأخرة عن عصره ، ويؤكد نسبة الكتاب للجاحظ أن مدح الشىء وذم ضده مما ألف فيه الجاحظ كثيرا كما رأينا

---

(١) ٣ : ١٢٧ بروكلمان (٢) ١٢٢ - ١٢٥ المحاسن

(٣) ١٢٦ - ١٢٨ ، ١٣٦ - ١٣٨ المحاسن (٤) ٥٥ المرجع

(٥) ٣٠ و ٣٣ و ٨٨ و ١٠٧ المرجع (٦) ٢٩ المرجع

(٧) له أخ اسمه بكر توفى نحو عام ٢٨٥ هـ (٤ : ٢٧٣ مروج الذهب) ، وجدهما ابو دلف توفى عام ٢٢٦ هـ (٤ : ٦٢ المرجع)

(٨) ٧٩ - ٨٤ المحاسن (٩) ١٤٩ المرجع

غ - كتب فى التاريخ :

١٨٠ - أديان العرب ومنه نسخة خطية بمكتبة أحمد تيمور بدار الكتب المصرية [١]

١٨١ - الأصنام [٢] ذكر الجاحظ فيه أصنام العرب فى الجاهلية ، وصحح فيه نسب النضر بن كنانة جد الرسول [٣]

١٨٢ - أطعمة العرب [٤]

١٨٣ - فضائل سلالة النبي

١٨٤ - القضاة والولاة

١٨٥ - الملوك والأمم السالفة والباقية

١٨٦ - جمهرة الملوك

١٨٧ - رسالة فى موت أبى حرب الصفار البصرى

---

(١) معالم ١٣٠ (٢) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء ، ١ : ٣ الحيوان

(٣) ٧٨ و ٧٩ أدب الجاحظ

(٤) ٢ : ٤٩ الأمثال للميدانى

الفصل الخامس

كتب خالدة للجاحظ

١ – البخـــلاء

– ١ –

كانت البصرة فى عهد الجاحظ مدينة تجارية بحرية كبيرة،ومن شأن حياة المدن المشتغلة بالتجارة والمال أن تفسد فيها بعض القيمة الخلقية والروحية وكانت مجتمعا لكثير من أصحاب الآراء والمذاهب والنحل ، ومن بينهم الشعوبيون الذين حاولوا أن يغضوا من مثل العربى وقيمه ولا سيما الكرم .

ونتيجة لهذا وذاك أصبح البخل ـ فى مجتمع البصرة وبعض المجتمعات الأخرى كخراسان ـ مذهبا يعتقد وفلسفة يدافع عنها بعض الناس . وكان لابد للجاحظ ـ وهو عربى الروح والدم واللسان ـ أن يسخر من هـذا المذهب ودعاته ، وأن يعرض له ولهم فى تهـكم ونقد مريرين ، فكان كتاب البخلاء ، الذى يعد تحفة من آثار الجاحظ العقلية والأدبية ، وقد صبغت عقلية أبى عثمان الاعتزالية والفلسفية الـكتاب بصبغتها ، فهو كله قطع فنية رائعة من أدب الجدل والحجاج والحوار والمناقشة والنقد . يعرض الفكرة فى الدفاع عن البخل ، ثم يناقشها عقليا ، ويؤيدها منطقيا ، ويلتمس لتأييدها كل الشواهد والمثل من حياة الناس بمختلف طبقاتهم وبيئاتهم ومستوياتهم مما أضفى على الـكتاب أهمية كبيرة ، ويزيد من أهميته أنه أوضح صورة شعبية لحياة المجتمع العربى فى القرنين الثانى والثالث بعد الهجرة ، والدارس للعقلية العربية فى هذه الفترة يحتاج إلى مطالعة البخلاء الذى يمثلها خير تمثيل وأصدقه .

وقد سبق الجاحظ الناس ، فوضع فى البخلاء أصول «علم البخل» وفلسفته ، واحتج له بما لامزيد معه ، وبخلاء الكتاب يصمون الكرم بكثير من المثالب ، ويتجنون عليه فى ملح نادرة ، وفصول بارعة ، وإنه لنطالعك صور حية نابضة من حياة البخلاء التى كانوا يحيونها ، وكيف كانوا يضطربون فى تلك الحياة ويتغلغلون ويتفاهمون(١) ، إنه كتاب طريف حقا بما جمع فيه الجاحظ من أخبار البخلاء وفلسفات المقتصدين ، ولكن هل يدل الكتاب على أن الجاحظ كان بخيلا ؟ لا ، بل إنه ليدل دلالة قاطعة على سخريته من البخل ومذاهب البخلاء وآرائهم الجدلية العجيبة ، ويخالف فى ذلك بعض الباحثين، فيذهبون إلى أن الجاحظ فى سخريته بالبخلاء كان يلقنهم الحجج على حسن الانصاف بإدخار المال ، وأنه الحزم عينه ، والتدبير الذى به قوام الحياة ؛ ثم هو ينسب الحديث إلى هذا وذاك ، فلا تستطيع أن تأخذ عليه كلمة ، أو تتعرف ذات نفسه ، ولا بد أنه كان بخيلا ، لأن الولوع بالشىء يحبب إلى النفس التحدث عنه والإفاضة فيه(٢) وهذا غير صحيح فى رأيى ؛ فكل ما فى الكتاب لايدل إلا على السخرية والتهكم وتصوير طبقة من طبقات المجتمع فى عصر الجاحظ .

— ٢ —

وفى صدر البخلاء مايدل على أن الجاحظ أهداه لعظيم من عظماء الدولة لم يذكر لنا اسمه ، وقد يكون هو ابن الزيات ، أو الفتح بن خاقان ، أو ابن أبى دؤاد . وقد ألفه وهو مريض مفلوج يشكو من الفالج طرفا(٣) ، وأغلب الظن أنه أهداه إلى ابن أبى دؤاد وأنه ألفه بعد الحيوان والبيان ، ويحتمل

---

(١) ٤ و ٥ من مقدمة الجارم والعوامرى للبخلاء ط ١٩٣٧ بالقاهرة

(٢) ص ١٥ المرجع نفسه

(٣) ٢ : ٤٥ البخلاء تحقيق الجارم والعوامرى

أن يكون آخر كتب الجاحظ ، ويشبه الجارم والعوامرى الجاحظ بالأديب الإنجليزى (ثكرى)، ويشبهان البخلاء بكتابة «النفاجين» ، ويؤيد باحث أن البخلاء ألفه الجاحظ فى أواخر حياته وقريبا من عام ٢٥٥ هـ[١] . وأعلام البخلاء بعضها حقيق كسهل بن هارون[٢] والكندى (٢٥٣ هـ) وكثير من عامة الشعب الذين ذكرهم الجاحظ بأسمائهم الحقيقية لفرحهم بذلك وبعضها الآخر رمزى ، وهى قصص أناس ذوى نفوذ فى الخلافة ومكانة فى الدولة ولا نستطيع أن ندل على هذه الأسماء لأن معاصرى الجاحظ وتلاميذه لم يتركوا لنا شيئا يدل على هذا الجانب .

ويبدأ الجاحظ كتابه برسالة سهل بن هارون فى البخل وهى موجهة منه إلى بنى عمه ، حين ذموا مذهبه وتتبعوا كلامه ، وهى رسالة طريفة أهداها إلى الحسن بن سهل وزير المأمون ، فلم يكافئه عليها بشىء ، ثم ينتقل أبو عثمان إلى قصص أهل خراسان فى البخل ، ثم قصص بخلاء البصرة من المسجديين وغيرهم ممن كان الجاحظ يجلس إليهم فى المسجد مما يلى أبواب بنى سليم وهو حدث السن[٣]، ومما شمله الكتاب رسالة أبى العاص[٤] بن عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفى إلى ابن عمه ورد ابن عمه عليه ، وغير ذلك من أحاديث البخلاء وطرف معانيهم وكلامهم .

والكتاب موسوعة عامة ، ويتناول ألوانا من طرائف القصة ، ويتحدث عن أعلام كثيرة مشهورة فى عصر الجاحظ كالكندى والنظام وثمامة

---

(١) ٤٦ فن القصص فى كتاب البخلاء لمحمد المبارك ط دمشق ١٩٤٠

(٢) يجعل شارل بيلا وفاته عام ٢٤٤ هـ (٤٠٠ الجاحظ)

(٣) ٣ : ٣٦٠ الحيوان

(٤) كان أبوه عبد الوهاب الثقفى محدثا وتوفى بالبصرة عام ١٩٤ هـ (١ : ٣١٤ العبر للذهبى) ، وأخوه عبد المجيد كان صديقا لابن مناذر (١٩٨ هـ) الشاعر (١٢ : ١٧ الأغانى)

وأبى الهذيل وسهل بن هارون وابن المقفع ، وسواهم ؛ ويتحدث كذلك عن شعراء عصر الجاحظ وأدبائه ؛ ومن شخصيات الكتاب عبد الله بن هارون العروضى(١) وهو شاعر مقل كان يقول أوزانا غريبة وأخذ العروض عن الخليل ، وكان بينه وبين النظام عداوة(١) ومنهم أعلام النهضة الأدبية فى عصر الجاحظ .

وإذا كان مصطفى عبد الرازق قد تحدث عن الكندى ، وذكر ما كتبه الجاحظ عن بخله ، وذهب إلى أن الجاحظ ألف بخلاءه قبل وفاته بأشهر معدودات .

فإن بعض الباحثين(٢) ؛ يرى أن هذا الكتاب ألف فى آخر عهد ابن الزيات وأوائل إصابة الجاحظ بالفالج ؛ فى الوقت الذى كتب فيه رسالته « بين الجد والهزل » ؛ أى بين عامى ٢٢٩ و ٢٣٢ هـ ، وقبل وفاة الجاحظ بأمد طويل .

ويرى الحاجرى(٢) فى تحقيقه للبخلاء أن الكندى الذى تحدث عنه الجاحظ فى الكتاب شخص منسوب إلى قبيلة كندة غير الكندى الفيلسوف ، ولكن الحجج الفلسفية التى ذكرها الجاحظ منسوبة للكندى تؤكد أنه يقصد الكندى الفيلسوف نفسه(٣) .

وليست الرسالة التى نسبها الجاحظ لسهل بن هارون بقلم سهل نفسه كما

---

(١) ٣ : ٢٤٨ الحيوان .

(٢) راجع البخلاء ـ تحقيق الحاجرى ـ الطبعة الثانية ١٩٦٤ ، أو الطبعة الأولى التى صدرت عام ١٩٤٨

(٣) راجع دراسة لصديق شيبوب عن البخلاء تحقيق الحاجرى فى مجلة قافلة الزيت عدد رجب ١٣٨٤ هـ

ظن ذلك بعض العلماء فى القديم كياقوت وابن النديم . بل أن الجاحظ كتبها ونسبها إلى سهل بن هارون الذى كان ذا نزعة شعوبية، والذى قاوم هو والكتاب الفرس الجاحظ حين تولى رياسة ديوان الرسائل فى عصر المأمون . . على أنه لو نسبنا هذه الرسالة إلى سهل لضاع جزء كبير من البخلاء من نسبته للجاحظ ، ولما كان الجزء الباقى كافيا لبيان فضل الجاحظ فى تأليف الكتاب ، على أن القصة الفنية عند الجاحظ فى البخلاء يرجع أسلوبها إلى الجاحظ نفسه لأن خصائصها الأدبية شبيهة بخصائص الجاحظ القصصية فى البيان والحيوان، والجاحظ يجيد فى القصة الواقعية إجادة بارعة حتى ليخرجها صورة حية نابضة بالحياة ، وإن نسبها إلى أناس معروفين ذكر أسماءهم تهكما بهم أو إلى أناس أخفى ذكر أسمائهم لغرض فى نفسه .

وليس الجاحظ بأول من دون أخبار البخلاء ، وروى نوادرهم . ويذهب بعض الباحثين : إلى أن غرض الجاحظ من تأليفه لكتاب البخلاء هو الرد على الشعوبية الذين كانوا يرددون الشك فيما نسب إلى العرب من أريحية وكرم ويردون أمثلة كثيرة لبخل العرب ، فروى الجاحظ الكثير مما يؤثر من بخل الخراسانيين وغيرهم . كما كان الجاحظ يقصد غرضا سياسيا هو التندر بالأمويين فيما روى عنهم من بخل ونهم وشراهة فى الطعام والأكل (١) .

ولكن طه الحاجرى فى تحقيقه للبخلاء يذكر أن عمل الجاحظ فى البخلاء كان عملا أدبيا خالصا يكشف عن دخائل النفس البشرية ويصف دقائق الحياة الواقعية . وليس فى الكتاب دلالة على أن الجاحظ كان بخيلا ، بل قد يكون فى تندر الجاحظ بالبخلاء دلالة على كرمه ، وإجادة الجاحظ

---

(١) راجع البخلاء بتحقيق الحاجرى ، وراجع مقالا لصديق شيبوب فى دراسته : فى قافلة الزيت عدد رجب ١٣٨٤ ﻫ .

لرسم شخصيات البخلاء وإنطاقها بما هو أشبه بها مرده إلى موهبته الأدبية العالية، وإلى مقدرته على التصوير واستبطان النفس الإنسانية، وقد تكون طبيعة الجاحظ الساخرة ونفسه المرحة ونزعته إلى الضحك والانطلاق هى التى أملت عليه الكتابة عن البخلاء. وكما تندر الجاحظ بالبخلاء من الفرس تندر بأشباههم من العرب؛ وهو يصور الحياة فى البصرة وخاصة حيـــاة تجارها الأثرياء الحريصين على المـــال.

— ٣ —

وفى الكتاب تبدو روح الجاحظ الخلاقة الناقدة (١) ويروى عن أعلام الفكر فى عصره من مثل النظام وثمامة وأبى الهذيل وغيرهم.. وقد ساق أبو عثمان طرائف الكتاب دون شرح إلا قليلا، متكلا على معرفة القارىء (٢) ويضرب بعض المعتزلة للشيعة مثلا (٣) ويشير إلى نفور الناس من الطبيب العربى المسلم فى عصر الجاحظ لاعتقادهم أن الطبيب لا يكون إلا غير عربى وإلا لمثل أهل جنديسابور (٤).

وأسلوب تأليف الكتاب جرى على مذهب الجاحظ فى الاستطراد (٥) وسمو الحجاج، والإيجاز فى موضعه والإطناب فى موضعه، وقد تحدث عن البخل وأنشأ كلاما طويلا فيه، مما يدل على سعة عقله وأنه بارع الدقة فى ملاحظة أعمال الناس ودراسة نفسياتهم وميولهم، والتقاط أدق حركات البخلاء، وهو لا يغفل عن تحسين الاقتصاد والدعوة إليه، وأبطال قصصه أصحاب جدل ومنطق، يلجأون إلى البراهين المختلفة والحوار السوفسطائى وهم من أدباء البخلاء ممن لا تشمئز النفس منهم، ولا تمل أحاديثهم.

---

(١) ٢ : ١٩١ و ١٩٢ البخلاء.   (٢) ٢ : ٢٢٠ المرجع.
(٣) ١ : ١٦٣ المرجع   (٤) ٢ : ٤ و ٥ المرجع.
(٥) يؤثر الجاحظ الاستطراد (راجع مثلا ١ : ١٣٨، ٣ : ١٠٥ البيان)

وقد عرف الجاحظ كيف يبث فيهم من ظرفه وذوقه وروحه ؛ وقصص البخلاء لم تخضع لمنهج واحد ، ولا لترتيب فى يكون وحدة تأليفية ، وهى تمتاز بالواقعية وبدقة التصوير وقوة الملاحظة ، وبالاعتماد على التحليل النفسى وعلى تجسيم الصورة وإشاعة الحياة والحركة فيها .

٢ — البيان والتبيين

— ١ —

يصف الجاحظ كتابه « البيان » بأنه قد جمع استقصاء المعانى ، واستيفاء جميع الحقوق ، مع اللفظ الجزل والمخرج السهل ، فهو سوقى ملوكى ، وعامى خاصى(١) .

وقد ألفه بعد « الحيوان » ، وأهداه إلى ابن أبى دؤاد(٢) فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، ويشير فيه إلى الحيوان(٣) ، فيقول مثلا : كانت العادة فى كتب الحيوان أن أجعل فى كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار(٤) ، والجزء من الكتاب يسمى مصحفا

وكان لظهوره ضجة فى شتى الأوساط والبيئات ، وعند مختلف العلماء والأدباء ، وحمل بعد ظهوره إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات ، وعده المسعودى من أشرف كتب الجاحظ ، وقال عنه إنه جمع فيه بين

---

(١) ٣ : ٣٧٥ البيان

(٢) معتزلى بليغ وصاحب نفوذ واسع فى دولة الخلافة ولى القضاء للمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وتوفى عام ٢٤٠ هـ

(٣) راجع ١ : ١٣٨ ، ٣ : ١٧٣ و ٣٠٢ البيان

(٤) ٣ : ٣٠٢ البيان ط الخانجى

المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار(١)، ونوه به أبو هلال العسكرى(٢) وعده من أشهر كتب البلاغة ثم استطرد إلى أنه لم يبن عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة (٢) وقال ابن رشيق (٣٩٠-٤٦٣هـ) إنه لا يبلغ جودة وفضلا (٣)، وجعله ابن خلدون أحد أركان الأدب الأربعة)(٤).

والكتاب - بلا ريب - كان مصدرا لثقافة الأدباء والشعراء العرب على طول العصور، ومن مادته الواسعة نهل الكتاب والبلغاء والمؤلفون قديما وحديثا، ومن أوائلهم: ابن قتيبة، والمبرد وابن عبد ربه وأبى هلال فى الصناعتين والحصرى (٤٥٣هـ) فى زهر الآداب وابن رشيق فى العمدة، وعبد القاهر الجرجانى فى الدلائل والأسرار، وأسامة بن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ) فى كتاب «لباب الآداب»، وابن الأثير (٦٣٧ هـ) فى المثل السائر وسواهم .. وهو أول سفر ظهر فى الأدب جامعا لفنون كثيرة منه (٥)، ولأنواع عدة من اللغة والأدب والخطابة والشعر، ويأتى على ذكر الخطباء والبلغاء والمنشئين وآثارهم، وهو من أجل الوثائق الأدبية فى الجاهلية والإسلام (٦) ولا يبلغ جودة وفضلا (٧)؛ فقد جمع بين دفتيه الكثير من بلاغات العرب ومن أصول النقد والبلاغة.

---

(١) ٤ : ١٩٦ مروج الذهب

(٢) ٦و٧ الصناعتين

(٣) ١ : ١٧١ العمدة.

(٤) ٥٥٣ المقدمة لابن خلدون

(٥) ٨٠ العصر العباسى للاسكندرى

(٦) ٣٥ الجاحظ لمردم

(٧) ١ : ٢٢٧ العمدة لابن رشيق

وفى الجزء الأول يشرح الجاحظ البيان ، ويبين عيوبه ويضع حدودا عامة للبلاغة ومذاهبها . وفى الجزء الثانى يتحدث عن الخطابة والشعر ، وفى الثالث يرد على الشعوبية مطاعنها التى قدحت بها فى العرب ، لاسيما نعوه عليهم من أخذ العصا والقوس عند الخطابة وفى مواقف الكلام .

والكتاب فى مجمل الأمر ثمرة من ثمرات الرجولة المكتهلة والفكر الذكى ، وقد خدم الجاحظ به قضية البيان خدمة لاتقدر بقيمة .

وفضلا عن أنه أصل من أصـــول الأدب فإن قيمته فى البيان العربى خطيرة ، لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء فى البلاغة وعناصرها ومذاهبها وألوانها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من ابتكاره وتجديده ، وقد أخذ علماء الأدب والبلاغة بعده منه كل العناصر التى كتبها فى هذا السفر الكبير ، كابن قتيبة وابن المعتز وابن المدبر وقدامة ابن جعفر والآمدى صاحب الموازنة والقاضى الجرجانى صاحب الوساطة وأبى هلال العسكرى صاحب الصناعتين ، وابن سنان صاحب كتاب سر الفصاحة،وعبد القاهر صاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز وسواهم .

وللكتاب أثره كذلك فى النقد الأدبى فهو سجل حافل بالآراء المختلفة فى النقد ، مما لايزال إلى اليوم موضع الاهتمام من جميع الباحثين ، والجاحظ الذى نقد مذهب أصحاب الصنعة من الشعراء وآثر عليها مذاهب المطبوعين كان يضع بذلك أساسا كبيرا لتطور الدراسات النقدية ، وعصرنا الحاضر يؤمن برأى الجاحظ ويسير فى تياره الفكرى والأدبى كما يسير على ضوئه فى البيان العربى وأصول بلاغته ..

وأسلوب الاستطراد ظاهر فى الكتاب ، واضح فيه ، ومن ثم نقده أحمد أمين بأن الفوضى غالبة عليه ، والجاحظ عنده (١) مسئول عن الفوضى

(١) ١ : ٤١٤ ضحى الإسلام

التي سادت كتب الأدب العربي ، فقد جرت على منواله ، وحذت حذوه ، فالكامل للمبرد ، وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد لابن عبد ربه تأثرت بالجاحظ وروحه تأثرا عميقا .

وهذا خطأ من أساسه ، فالجاحظ إنما ألف الكتاب ليكون موسوعة في الأدب والبيان ، لا ليكون كتابا منهجيا محدودا ، وليس الاستطراد فيه إغفالا للموضوع ، ولا نسيانا لأصل البحث ، ولصميم الفكر الأدبي في الكتاب ..

ويرتاب بعض الباحثين المعاصرين في شخصية الجاحظ في الكتاب ؛ ورأى أنها تكاد تكون معدومة فيه (١) ؛ وهذا جور ما بعده من جور ، فشخصية الجاحظ سواء في جمعه أم في ابتكاره واضحة كل الوضوح في كتاب « البيان » .

والسمة الغالبة عليه هو أنه مظهر لامتزاج الثقافات في عصر الجاحظ ، هذا الامتزاج الذي نراه فيه ، وللثقافة العربية الحظ الأكبر ، ومع هذا لحظ الثقافات الأخرى في الكتاب غير قليل من يونانية وفارسية (٢) وهندية وغيرها ..

---

(١) ٧ مقدمة نقد النثر

(٢) ١ : ٤١٥ ضحى الإسلام

٣ — كتاب الحيوان

من أشهر وأروع مؤلفات الجاحظ ، ومن آثار التجربة والسن ، وهو حافل بضروب الآراء وألوان الثقافات والمعارف ، وكان البصريون يفتخرون به وبكتاب البيان كما فخروا بكتاب العين للخليل وبالكتاب لسيبويه ، ووصفه الجاحظ فقال : « هذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم لأنه وإن كان عربيا أعرابيا ، وإسلاميا جماعيا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة » ويؤكد الجاحظ أن كتابه كتاب علم لا كتاب رأى أو أدب ، وأنه لقى فى تأليفه صعابا جمة ، وصادف منه حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه وأول ذلك العلة الشديدة [١] على أنه لم يذكر فيه شيئا من الغرائب إلا ومعها شاهد [٢] ، ولم يصل فيه الصدق بالكذب [٣] .

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن الكتاب يوسم بأنه كتاب أدب وهو أقرب إلى ذلك من أن يعد كتابا فى طبائع الحيوان ، ورد على هذا الرأى محمد كرد على [٤] ردا مقنعا مفحما لأن ما حققه الجاحظ فى صنوف الحيوان قبل غيره من العلماء كاف فى عد الجاحظ السابق المبرز فى موضوعه وفنه وبأن الشعر الكثير الذى نقله لا يزرى بما كتب ، وهو يملى على الناس روح عصره ، وما كان فيه من أدب فهو أدب واقعى ، وبجواره أمتع الفوائد

---

(١) ٤ : ٢٠ الحيوان

(٢) ٦ : ١٢ و ١٣ الحيوان

(٣) ٥ : ٧ الحيوان

(٤) ٢ : ٤٢٦ أمراء البيان

الأدبية والمسائل الدينية وأجمل النوادر والحكايات ؛ وأجمع من هذا كله كلامه على أجناس الحيوان . مما كتبه عن تجربة وعيان ، وفيه كلام على الناس والبلاد والأجواء والأمزجة والعادات مما لا يستطيع كتابته إلا واسع الثقافة أو بعض من قد مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحارى واستذرى الهضاب ودخل فى الغياض ومشى فى بطون الأودية (١) .

ولما كان الغرض من تأليف الجاحظ لهذا الكتاب هو بيان ما فى الحيوان من الحجج على حكمة الله وقدرته الباهرة ، فقد رجع إلى القرآن ، وفيه الكثير عن الحيوان وبعض سوره سميت بأسماء بعض الحيوانات . ومنها : البقرة ـ الأنعام ـ العنكبوت ـ النحل ـ النمل ـ الفيل ؛ كما رجع إلى الحديث وكلام الصحابة ، وينسب للإمام على وصف جميل للطاوس وإلى الشعر ، ولبشر بن المعتمر المعتزلى (٢١٠ هـ) قصيدتان طويلتان فى هذا الجانب(٢) ، والجاحظ سابق فى التأليف فى الحيوان وكتابه أول كتاب عربى عن الحيوان . وقد ألف اليونانيون فى الحيوان ، ومنهم ديمقراطيس وأرسطو ، ومع أن أبا عثمان نقل عن أرسطو إلا أنه صحح له آراءه ونقدها وكان كتاب أرسطو تسع عشرة مقالة . وقد نقله ابن البطريق من اليونانية إلى العربية ، وكان مترجما إلى السريانية .

وكان بين المعتزلة نزاع كلامى فى المقايسة بين الكلب والديك ؛ وكان على رأس الفريق الأول النظام ، وعلى رأس الثانى معبد ، وقد رد عليهم الجاحظ ردا طويلا(٣) .

وقد استعان الجاحظ بالشعر العربى لأن العرب كما يقول أبو عثمان قد

---

(١) ٦ : ١٢ و ١٣ الحيوان
(٢) ٦ : ٩١ الحيوان
(٣) ١ : ٩٣ ـ ١٠٤ الحيوان

ثقفوا معرفة الحيوان وبرعوا فى ذلك براعة فائقة ، وقل معنى سمع فى باب معرفة الحيوان من الفلاسفة والمتكلمين إلا وهو ، أوقريب ، منه فى أشعار العرب(١) .

ولآراء الجاحظ ودراساته الشخصية فى عالم الحيوان قيمتها وخطرها ، وكان يستمدها من كل مصدر ، ويأخذها من كل خبير ، ويرجع فيها إلى كل عليم وإلى تجاربه الخاصة وكان الجاحظ يحب الحيوان من أعماق نفسه(٢) .

والكتاب معرض لكل الثقافات من عربية ويونانية وفارسية وهندية ،. ومن استقراء موضوعات الكتاب تتجلى لنا قيمته وأصالته ؛ وقد حوى من التاريخ وأحوال العرب وثقافاتهم ودياناتهم وعاداتهم ؛ مايؤلف مجموعة واسعة من الحقائق التى أعمل فيها الجاحظ عقله وأجهد فكره إجهاداً شديداً .

وفى الجزء الأول والثانى تناول الكلب والديك ، وفى الثالث تناول الحمام والذباب والغربان وغيرها ، وفى الرابع الذرة والنحل والقرد والخنزير والحيات والظليم ، واستطرد إلى ذكر النيران وأكمل استطراده فى الجزء الخامس الذى تناول فيه أيضا الفأر والجرذان والسنانير . والجزء السادس تضمن تفسيراً لقصيدة البهرانى فى الحيوان ، ولقصيدتى بشر بن المعتمر ، إلى ماتناوله فيه من حيوانات : كالهدهد والتمساح والأرانب ، وفى السابع تناول أسرار كثيرة من أسرار خلق الحيوان ؛ كما تناول الفيل والزرافة . . والنصوص التى يأتى بها الجاحظ يذكرها دون شرح إلا القليل؛ وقد شعر بخطورة ذلك ، فاعتذر فى الجزء السابع بقوله : « وأنا أعلم أنى لو فسرت لك معانى هذه الأشعار وغريبها لكان أتم للكتاب ولكنى

---

(١) ٣ : ٨٣ الحيوان

(٢) ٣ : ٢٩٩ — ٣٠٤ الحيوان

أعرف ملالة الناس للكتاب إذا طال »(١) .

وقد اختصر عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩ هـ) كتاب « الحيوان »، وكذلك فعل ابن سناء الملك الشاعر المصرى (٦٨٠ هـ) وسمى تلخيصه « روح الحيوان » ، وألف الدميرى على نهجه كتابه « حياة الحيوان الكبرى » .

ونال كتاب الجاحظ اهتمام العلماء والباحثين على طول العصور .

٤ — رسالة التربيع والتدوير

١ ـ هذه الرسالة طرفة من طرف الجاحظ ، كتبها فى أحد الورافين من غلاة الشيعة ومن خصوم المعتزلة عامة والجاحظ خاصة ؛ وكان يعيش فى مكة ، واسمه أحمد بن عبد الوهاب ؛ ويبدو أنه كان يطعن على الجاحظ ، ويغالى فى ثلب آرائه وتنقص مذهبه ودينه ، وقد ندد الجاحظ فيها به ، ووصف ماهو عليه من دمامة الخلق وقبح التركيب ، مع دعواه أنه جميل الصورة ، معتدل الخلق حسن التركيب . وقد وجه الجاحظ فيها إليه مائة سؤال ، وطلب إليه الجواب عنها ، وكلها معاياة وإلغاز ، وأكثر هذه المسائل من الأساطير والخرافات ؛ ولكنها تملك على النفس مشاعرها لسمو العبارة ودقة المعنى : ويصفه الجاحظ بأنه من الحشوية وبأنه مربع مدور ؛ وبأن ادعاءه لأصناف العلم على قدر جهله بها ؛ وبأنه يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، وليس فى يده من جميع الآداب إلا انتحال لاسم الأدب .

ويقول : إنه لما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ونألف سبيله ، رأيت أن أكشف قناعه ، وأبدى صفحته للحاضر والبادى وسكان كل ثغر ومصر بأن أسأله عن مائة سؤال أهزأ فيها ، وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان فى مكة ، ليكفوا عنا من غربه وليردوه بذلك إلى ماهو أولى به (٢) .

---

(١) ٧ : ٢٢٢ الحيوان (٢) ١٨٨ رسائل الجاحظ نشر السندوبى .

وقد نعت الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب فيها بالعرض والضخامة ، وفصل لذلك شكل التربيع والتدوير اللذين سميت بهما الرسالة ، ووصف ابن عبد الوهاب بأنه من بجيلة ومن أصحاب صالح بن على وسليمان بن وهب وندماء جعفر الخياط ، وقال إنه من الرافضة المشبهة (١) .

٢ ـ والرسالة تدل على براعة الجاحظ فى الجدل والحوار وفى الفكاهة والسخرية وهى أصل لما كتب فى بابها من رسائل بعد عصر الجاحظ .. ودلالتها الواضحة على ثقافة الجاحظ لاتحتاج إلى بيان ، وأسئلة أبى عثمان لابن عبد الوهاب تتضمن جميع معارف عصره فى المنطق والفلسفة والكيمياء وفى الإنسان والحيوان والجماد والنبات وفى الجغرافيا والتاريخ والفلك وغيرها ، ويذكر فيها ابن الزيات (٢٣٣ هـ) بصيغة تدل على أنه يتحدث عنه بعد نكبته عام ٢٣٣ هـ ، فيقول : وقد كنت أتعجب من محمد بن عبد الملك (٢) الخ » ، ولكن جاء ذكر لها فى « الحيوان » مما يدل على أنها ألفت قبل تأليف « الحيوان » يقول الجاحظ : فإن أعجبتك هذه المسائل فاقرأ رسالتى إلى أحمد بن عبد الوهاب الكاتب (٣) ، وأرجح أنها ألفت نحو عام ٢٣٠ هـ .

ومعارف الجاحظ الواسعة فى الرسالة مصدرها كل مصدر لثقافة الجاحظ ومعارفه ، وقد ذكر فيها أهم القضايا العلمية والتاريخية والدينية والفلسفية والجدلية التى كانت تشغل أذهان الناس فى عصره ، وفيها يعرض لمشكلة المعرفة ويرى أن الخطأ كثير غامر ، ومستول غالب ، وأن الصواب قليل خاص ، ومقموع مستخف ، وأن الحواس تخطىء وتضل .

إلى غير ذلك مما تضمنته من آراء ونظريات وإثارة لمشكلات المعرفة فى عصره .

---

(١) ٢٢٣ المرجع .
(٢) ٢١٠ المرجع السابق .
(٣) ١ : ٣١١ الحيوان .

صور من أدب الجاحظ وفكره

١ - أسلوب الترجمة(١) :

إن الترجمان لا يؤدى أبدا ماقال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه، ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها، ويؤدى الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على المجرى ، وكيف يقدر على أدائها ، وتسليم معانيها والإخبار عنها ، على حقها وصدقها ، إلا أن يكون فى العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب وواضعه .. ! ؟

فمتى كان ابن البطريق (٢) ، وابن ناعمة (٣) ، وأبو قرة (٤) ، وابن فهريز (٥) ، وابن وهيلى ، وابن المقفع : مثل أرسطو ؟ ومتى كان خالد (٦) مثل أفلاطون ... ! ؟

---

(١) ١ : ٧٥ - ٧٩ الحيوان .

(٢) يحيى بن البطريق كان يترجم من اليونانية إلى العربية ، وكان فى خاصة الحسن بن سهل .

(٣) هو عبد المسيح الحمصى الناعمى المعروف بابن الناعمة مترجم متوسط الجودة .

(٤) هو أبو على ابن أبن قرة ، كان منجما للعلوى البصرى صاحب الزنج . ثم وقع أسيرا فى يد الموفق فاستبقاه وصار فى جملته وعمل كتابا فى علة كسوف الشمس والقمر .

(٥) هو حبيب بن فهريز ، وكان مطرانا للموصل . عرب كتبا كثيرة للمأمون . وكانت بينه وبين جبرائل ابن بختيشوع صداقة ومودة ، وكان ينقل له الكتب . وقد ذكر الجاحظ ابن فهريز هذا فى كتابه «البيان والتبيين» ص ٩٦ ج ١ .

(٦) هو خالد بن عبد الملك المروزى . كان من أكابر المنجمين فى عهد المأمون وكان من خاصة منجمى الدولة . وله زيج حاز شهرة واسعة فى العصر الأول .

ولابد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة ، فى وزن علمه فى نفس المعرفة . وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقول (عنها) والمنقول إليها حتى يكون فيهما سواء وغاية .

ومتى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذمنها وتعترض عليها . وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعتين فيه ، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة ؟ وإنما له قوة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات .

وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقل ، كان أشد على المترجم وأجدر أن يخطىء فيه . ولن تجد ألبتة مترجماً يفى بواحد من هؤلاء العلماء .

هذا قولنا فى كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون . فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل بما يجوز عليه مما لايجوز عليه ، حتى يريد أن يتكلم على صحيح المعانى فى الطبائع ، ويكون ذلك متضمنا بما يجوز على الله تعالى مما لا يجوز ، وبما يجوز على الناس مما لايجوز . وحتى يعلم مستقر العام والخاص والمقابلات التى تلقى الأخبار العامية المخرج فيعجلها خاصية . وحتى يعرف من الخبر ما يخصه الخبر الذى هو أثر مما يخصه الخبر الذى هو قرآن ، ومايخصه العقل مماتخصه العادة ، أوالحال الرادة له على العموم ، وحتى يعرف الصدق والكذب ، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع ، وعند فقد أى معنى ينقلب ذلك الاسم . وكذلك معرفة المحال من الصحيح ، وأى شىء تأويل المحال . وهل يسمى المحال كذبا أم لايجوز ذلك ؟ وأى القولين أفحش : المحال أم الكذب ؟ وفى أى موضع يكون المحال أفظع والكذب أشنع ؟ وحتى يعرف المثل والبديع والوحى والكناية وفصل ما بين الخطل والهذر والمقصور والمبسوط والاختصار . وحتى

يعرف أبنية الكلام ، وعادات القوم ، وأسباب تفاهمهم ، والذى ذكرنا قليل من كثير،ومتى لم يعرف ذلك المترجم أخطأ فى تأويل كلام الدين،والخطأ فى الدين أضر من الخطأ فى الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء ، وفى بعض المعيشة التى يعيش بها بنو آدم .

وإذا كان المترجم الذى قد ترجم لا يكمل لذلك أخطأ على قدر نقصانه من الكمال . وما علم المترجم بالدليل من شبه الدليل ؟ وما علمه بالاخبار النجومية؟ وما علمه بالحدود الخفية ، وما علمه بإصلاح سقطات الكلام وإسقاط النساخين للكتب ؟ وما علمه ببعض الخطرفة لبعض المقدمات ؟ !

وقد علمنا أن المقدمات لابد أن تكون اضطرارية ، ولابد أن تكون مرتبة وكالخط المندور . وابن البطريق وأبو قرة لا يفهمان هذا موصوفا منزلا ومرتبا مفصلا ، من معلم رفيق ، ومن حاذق طب ! فكيف بكتاب قد تداولته اللغات ، واختلاف الأقلام ، وأجناس خطوط الملل والأمم ؟ ! ولو كان الحاذق بلسان اليونانية يرمى إلى الحاذق بلسان العربية ، ثم كان العربى مقصرا عن مقدار بلاغة اليونانى ، لم يجد المعنى . والناقل التقصير ، ولم يجد اليونانى الذى لم يرض بمقدار بلاغته فى لسان العربية بدا من الاغتفار والتجاوز . . . ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفاً أو كلمة ساقطة فيكون إنشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعانى أيسر عليه من إتمام ذلك النقص حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام ! فكيف يطيق ذلك المعارض المستأجر والحكيم نفسه قد أعجزه هذا الباب ؟ !

وكان للنقلة والتراجمة ، فى ذلك الحين ـ كما يقول الصلاح الصفدى ـ طريقان :

الأول ـ طريق يوحنا بن البطريق (١) وابن ناعمة الحمصى (٢) وفرقتهما ـ

---

(١) هو يوحنا أو يحى بن البطريق : كان قيما بلغة الروم اللاتينية ، عاجزا عن معرفة العربية ، وكان فى خاصة الحسن بن سهل .

(٢) هو عبد المسيح بن عبد الله الحمصى الناعمى المعروف بابن ناعمة . كان من رجال الترجمة والنقل ، متوسط الجودة .

وذلك أنهم كانوا ينظرون إلى كل لفظة مفردة من الكلمات اليونانية ، أو غيرها من اللغات الأخرى ، وما تدل عليه من معنى ، فيأتون بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها فى الدلالة على ذلك المعنى ، فيضعونها فى مكانها ، ثم ينتقلون إلى غيرها . وهكذا حتى ينتهى نقل الكتاب على هذه الصورة . ولا شك أن هذه الطريقة عقيمة جداً ، ومن الرداءة فى أقصى حد . لأن الناقل قد يضطره عدم إحاطته باللغة العربية ، وعدم وقوفه على سائر مفرداتها التى تقابل الكلمات الأعجمية ، إلى ترك الكثير من هذه الكلمات كما هى على عجمتها . وهنا يصبح الكتاب لا هو بالعربى ، ولا هو بالعجمى . وقد وقع من جراء هذه الترجمة خلل كثير فيما ترجم من الكتب على هذه الطريقة ، وظلت فيها أكثر الكلمات اليونانية ، أو الفارسية ، أو الهندية ، أو السريانية أو اللاتينية ، على حالها . هذا فضلا عن أن خواص التراكيب والنسب الإسنادية فى أى لغة كثيراً مالا يتفق مع مافى أى لغة أخرى من هذه الخواص . بل ما يقع من الخلل عند استعمال المجازات ومرامى الاستعارات .

الثانى — طريق حنين بن إسحق (١) ، والعباس بن سعيد الجوهرى (٢) مولى المأمون ، وغيرهما ممن نحا نحوهما . وذلك أن يقرأ الناقل جملة الكلام فيحصل معناها فى ذهنه ويعبر عنها من اللغة العربية بجملة

---

(١) هو أبو زيد حنين بن إسحق العبادى . كان طبيبا بارعا عالما بعلوم الأوائل . كما كان فصيحا لسنا بليغا يقول الشعر ، كان أستاذه الخليل بن أحمد . وقد نقل إلى العربية كثيرا من الكتب القديمة إذ كان يجيد اليونانية والسريانية والرومية (اللاتينية) وكان بعض الخلفاء يعطيه أجر النقل زنة الكتاب ذهبا . وخدم المتوكل فى الطب . مات سنة ٢٦٠ ﻫ .

(٢) هو العباس بن سعيد الجوهرى . كان فلكيا منجما عالما بالأرصاد وآلاتها . وهو الذى ندبه المأمون فى جماعة من أصحابه لاجراء الرصد . وله فى ذلك زيج مشهور . وكان من أكابر المهندسين والحساب .

تطابقها ، سواء ساوت الألفاظ الألفاظ أم خالفتها . وهذه الطريقة أجود من غيرها بلا مراء . ولهذا قالوا : إن كتب حنين بن إسحق لم تحتج إلى تهذيب إلا فى العلوم الرياضية ، لأنه لم يكن قيما بها ، بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعى والآلهى ، فإن ماعربه منها لم يحتج إلى إصلاح . أما أقليدس (١) فقد ذكروا أن ثابت بن قرة الحرانى هذبه ، وكذلك المجسطى والمتوسطات بينهما .

٢ — فصل للجاحظ فى الحسد (٢) :

الحسد ـ أبقاك الله ـ داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود . علاجه عسر وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، وماظهر منه فلا يداوى وما بطن منه فمداويه فى عناء ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « دب اليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء » . وقال بعض الناس لجلسائه : « أى الناس أقل غفلة؟ » فقال بعضهم : « صاحب الليل والعاهة إلى أن يصبح » . فقال : « إنه لكذا ، وليس ذاك » فقالوا له : « فأخبرنا بأقل الناس غفلة » . فقال : الحاسد ، إنما همه أن ينزع الله منك النعمة التى أعطاكها ، فلا يغفل أبدا » . ويروى عن الحسن أنه قال : « الحسد أسرع فى الدين من النار فى الحطب اليابس . وما أتى المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمته عليه » . قال عز وجل : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » .

والحسد عقيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق ، وحرب البيان ،

---

(١) هو اقليدس الصورى . كان أوحد أهل زمانه فى معرفة علم الهندسة والحساب وهو من أكابر الفلاسفة الرياضيين .

(٢) من رسالة الجاحظ فى الحاسد والمحسود .

فقد ذم الله أهل الكتاب به فقال : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم » .

فعنه تتولد العدواة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم من الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقح الشر بين الحلفاء ، يكمن فى الصدر كمون النار فى الحجر !

ولو لم يدخل على الحاسد ـ بعد تراكم الهموم على قلبه ، واستدمان الحزن فى جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنقص عمره ، وكدر نفسه ونكد عيشه ـ إلا استصغاره نعمة الله عنده ، وسخطه على سيده بما أفاد غيره ، وتمنيه عليه أن يرجع فى هبته إياه ، وألا يرزق أحداً سواه ، لكان عند ذوى العقول مرحوما ، وكان لديهم فى القياس مظلوما ، وقد قال بعض الأعراب : « ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد ، نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم . الحاسد مخذول وموزور ، والمحسود محبوب ومقصود ، والحاسد مغموم ومهجور والمحسود غاش ومزور .

والحسد ـ رحمك الله ـ أول خطيئة ظهرت فى السموات ، وأول معصية حدثت فى الأرض ، خص به أفضل الملائكة فعصى ربه ، وقاسمه فى خلقه ، واستكبر عليه فقال : (خلقتنى من نار وخلقته من طين) فلعنه وجعله إبليسا ، وأنزله من جواره ، بعد أن كان أنيسا ، وشوه خلقه تشويها ، وموه على قلبه تمويها ، نسى به عزم ربه فواقع الخطيئة ، فارتدع المحسود ، فتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد فى حسده فشقى وغوى . وأما فى الأرض فابنا آدم حسد أحدهما أخاه فعصى ربه ، وأثكل أباه . وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فقد جمله الحسد إلى غاية القسوة ، وبلغ به أقصى حدود العقوق إذا ألقى الحجر عليه شادخا فأصبح عليه نادما صارخا .

ومن شأن الحاسد ـ إذا كان المحسود غنيا ـ أن يوبخه على المال فيقول : جمعه حراما ، ومنـــع أيتاما وألب عليه محاويج أقاربه ، فتركهم له أخصاما ، وأعانهم فى الباقى ، وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر ، فقال : لقد كفروا معروفك وأظهروا فى الناس ذمك . ليس أمثالهم يوصلون . فإنهم يشركون ... وإن وجد له خصم أعانه عليه ظلما ، وإن كان من المعاشرة فاستشاره غشه : وتفضل عليه بمعروف كفره ، والدعاء إلى نصره ، وإن سئل عنه همزه . وإن كان عنده شهادة كتمها ، وإن كانت منه إليه زلة عظمها . وقال : إنه يحب أن يعاد ولا يعود ، ويرى عليه العقود .

وإن كان المحسود عالما قال : مبتدع برأيه متبع ، حاطب ليل ، ومبتغى نيل ، لايدرى ماحمل ، قدترك العمل ، وأقبل على الحيل ... وإن كان المحسود ذا دين قال : يوصى ليغزوا اليه ويحج ليثنى عليه ، ويصوم لتقبل شهادته ، ويظهر النسك ليودع المال بيته ، ويقرأ فى المسجد ليزوجه جاره ابنته ، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته . وما لقيت حاسدا قط إلا تبين مكنونا بتغيير لونه ، وتحويص عينه ، وإخفاء سلامه ، والاقبال عـــلى غيرك ، والاعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك .

وكان عبد الله بن أبى قبل نفاقه نسيج وحده ، لجودة رأيه وبعد همته ونبل شيمته ، وانقيادالناس له باسيادة ، وإذعانهم له بالرياسة وما استوجب ذلك إلا بعد ما استجمع له لبه وتبين لهم عقله وفقد بينهم جهله ورأوه بذلك أهلا لما أطاق له حملا .

فلما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقدم المدينة ورأى عبد الله عزرسول الله ، شمخ بأنفه فهدم إسلامه لحسده وظهر نفاقه . وماصار منافقا حتى صار حسودا ولا صار حسودا حتى صار حقودا ، فحمق بعد اللب ، وجهل بعد العقل وثوب النار بعد الجنة ، ولقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم

فى المدينة فشكاه إلى الأنصار فقالوا : يارسول الله لا تلمه فإنا كنا قدنا له الخرز قبل قدومك لنتوجه .

ورسالة الجاحظ « الحاسد والمحسود » التى ينصح فيها القارىء باتخاذ الحيطة والتوقى من سهام الحسد والحاسدين ، من أهم رسائله ، وأبلغ ما كتب من نثر فنى .

وأسلوبه هنا هو أسلوب الجاحظ الذى تظهر فيه شخصيته ظهورا تاما ، حتى الترى فيه رقة الألفاظ وسماحة العبارة وجمال الأسلوب والزهد فى الصور البيانية وهو يتردد بين السجع والازدواج ، مع ميل إلى الاسهاب والترادف وتعاور العبارات على الفكرة الواحدة .

والرسالة تمثل النثر الفنى فى عصر الجاحظ أصدق تمثيل ، فى بلاغته وجماله وتمشيه مع الحضارة العقلية والفكرية والأدبية التى سادت الأدب والثقافة آنذاك

وفى هذا الفصل من رسالة « الحاسد والمحسود » يبين ضرر الحسد ، وينفر منه ، ويظهر خفاياه ، ويكشف نفسية صاحبه كشفا ، ويبدو من أسلوب الجاحظ هنا أنه أشبه بالعالم النفسى الذى يفصح عن طوايا النفوس ومشاعرها وأحاسيسها إفصاحا شديدا .

ولا شك أن الجاحظ قد سبق بهذا التحليل النفسى فى أسلوبه الكتاب والبلغاء والأدباء ، وأثرى بذلك الأدب ولغة العرب إثراء شديدا .

٣ — البيان :

قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعانى : المعانى القائمة فى صدور العباد ، المتصورة فى أذهانهم ، والمتجلجلة (١) فى نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة فى معنى معدومة . لايعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه (٢) ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره . وعلى ما لايبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره ، وإنما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها . وهذه الخصال هى التى تقربها من الفهم ، وتجليها (٣) للعقل ، وتجعل الخفى منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً ؛ وهى التى تلخص الملتبس (٤) . وتحل المنعقد ، وتجعل المهمل مقيداً ، والمقيد مطلقاً ، والمجهول معروفاً ، والوحشى مألوفا ، والغفل (٥) موسوماً ، والموسوم معلوما . وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ، ودقة المدخل ، يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع (٦) . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه . وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف الأعجام . والبيان اسم جامع لكل شىء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجب دون الضمير ، حتى يفضى

---

(١) المتجلجلة : المضطربة .

(٢) الخليط : المخالط ، أى المشارك والصاحب .

(٣) تجليها : تظهرها . (٤) الملتبس : المختلط .

(٥) الغفل : ما لاعلامة فيه .

(٦) نجع الطعام أو الدواء أو الكلام : نفع .

السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان بذلك البيان . ومن أى جنس كان ذلك الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأى شىء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع . .

وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكان الله عزوجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ، ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة .

٤ — ومن كتاب الجاحظ إلى ابن الزيات :

لا والله ، ما عالج الناس داء قط أدوى من الغيظ ، ولا رأيت شيئا هو أنفذ من شماتة الأعداء ، ولا أعلم بابا أجمع لخصال المكروه من الذل ؛ ولكن المظلوم مادام يجد من يرجوه ، والمشتكى مادام يجد من يرثى له ؛ فهو على سبب ، درك وإن تطاولت به الأيام ، فكم من كربة فادحة ، وضيقة مصمتة ، قد فتحت أقفالها ، وفككت أغلالها ؛ ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك ، وفى حسن النية بينى وبينك ؛ لا مشتت الهوى ، ولا مقسم الأمل ، على تقصير قد احتملته ، وتفريط قد اغتفرته (١) .

٥ — فى الكتاب المنسوب للجاحظ بعنوان « الدلائل والاعتبار على الخلق

---

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٧٧

والتدبير ، وهو نفس الكتاب المنسوب إلى تلميذ الامام الصادق بعنوان « توحيد المفضل » : « تأمل خلق الأوراق فانك ترى فى الورقة شبه العروق مثبوثة فيها اجمع . . . ويقاع الأرض كلها بلا حركة ولا كلام الا الارادة النافذة فى كل شىء » ، وجاء أيضا فيه : « فكر فى ضرب من التدبير فى الشجر ، فانك تراه يموت فى كل سنة موتة فتحتبس الحرارة الطبيعية فى غوره ، وتتولد مواد الثمار ثم تحيى وتنتشر ... وترى الرياحين تلقاك فى افنانها كأنها تحييك بأنفاسها » . ومما ذكره الجاحظ فى كتاب الحيوان أن من طباع حر الشمس الايقاظ والبسط والنشر ، ذاكرا عن النبات الخيرى بأنه ينضم ورقه بالليل ويتفتح بالنهار .

ومن الأمور التى تدهش القارىء موضوع « الخلايا وتنفسها » لحامل جائزة نوبل فى الطب والفيزيولوجيا فى تشرين الأول من العام الماضى فيودور لينن من معهد الخلايا الفيزيولوجية فى مونيخ ، وهنا نجد موضوعاً طريفاً . ومع ذلك فاننا نقرأ للجاحظ بعض الأمور التى تذكرنا بكشوف هذا العلامة الفذ ، اولا من جهة أن الحياة هى عبارة عن احتراق ، فقد جاء فى كتاب الحيوان للجاحظ . « انى وجدت الانسان يحيى ويعيش حيث تحيى النار وتعيش وتموت وتتلف حيث يموت الانسان ويتلف ، وقد تدخل نار فى بعض المطامير والجباب والمغارات والمعادن فتجدها متى ماتت هناك ، علمنا متى صار فى ذلك الموضع الانسان مات ، ولذلك لا يدخلها أحد مادامت النار إذا صارت فيها ماتت ، ويعمد اصحاب المعادن والحفاير إذا هجموا على فتق فى الأرض او مغازة فى اعماقها إلى شمعة فى طرفها أو فى رأسها نار فان ثبتت النار وعاشت دخلوا » .

إن أغرب شىء يذكره هو التنفس الذى لاينحصر فى الرئتين فحسب بل هو ممتد لجميع أطراف الجسم أو مانسميه اليوم بتنفس الخلايا ، وان الاحتراق يجرى فى الانسجة ، واننا اذ نرى كشفا علميا جديداً يقره آخر حامل

لجائزة نوبل فى الفيزيولوجيا ، نجد الجاحظ يروى لنا فى كتاب الحيوان مايلى : (١) « لولا أن تحت كل شعرة وزغبة مجرى نفس ، لـكان المخنوق يموت مع أول حالات الخنق ، ولـكن النفس كأن لها اتصال بالنسيم من تلك المجارى على قدر الاقدار فـكان نقطها جوف الانسان . فالريح أو البخار لما طلب المنفذ فلم يجده دار وكثف وقوى فاستدله الجلد فسد له المجارى ، فعند ذلك ينقطع النفس ولولا اعتصامها بهذا السبب لـكانت انقطعت إلى اصلها مع أول حالات الخنق » . وكان يأتى بذلك بمثال : « ان لم تـكن النفس غمرت بما هيج عليها من الآفات ولم تنقطع الطفر إلى اصلها جاز أن يكون الضياء الساقط على أرض البيت عند سد الـكوة لم ينقطع إلى أصله ولـكن السد هيج عليه من الظلام القائم فى الهواء ، ماغمره وقطعه عن أصله ، ولا فرق بين هذين » .

ويروى انه كان يعظم شأن الهواء ويخبر عن احاطته ، ذاكرا عن الآلة التى يصعدفيها الماء . اننا لنرى هنا مبدأين من مبادىء العلوم الطبيعة الحاضرة ألا وهى مراقبة الطبيعة وعمل الفـكر والروية . وان كانت النتائج لا تنطبق على العصر الحاضر تمام الانطباق ، بيد أن عصر الجاحظ شعر بأمور لم يـكشفها العلم الا بعد عصور عديدة(٢) .

٦ — ويقول الجاحظ :

« فحين حملوا حدهم (يعنى العرب) ووجهوا قواهم إلى قول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام وقيافة البشر بعد قيافة الاثر وحفظ النسب والاهتـداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الانواء والبصر

---

(١) ٥ : ٣٧ الحيوان طبع القاهرة - ١٩٠٦

(٢) راجع مجلة المعرفه السورية عام ١٩٦٥ - من مقال للدكتور محمد يحيى الهاشمى بعنوان « علمهم وتراثنا »

بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس واحكام شأن المناقب والمثالب بلغوا فى ذلك الغاية (١) والجملة هنا تبتدىء بقوله : « فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم » ، وتنتهى إلى قوله : « بلغوا فى ذلك الغاية » . ويتخلل البداية والنهاية كلام طويل متشعب .

ويقول كذلك :

« فحين لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ولا الطب والفلاحة والهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا بشق انهار ولا جباية غلات ، ولم تكن هممهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان وكانت هممهم إلى ذلك مصروفة وكانت لهذه المعانى والاسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها « أحكموا ذلك الأمر بأسره (٢) .

وهى جملة واحدة أطول من الأولى .

فهناك عنصران أساسيان ترتكز عليهما الجملة وهما البداية والنهاية يتخللهما كلام طويل متشعب ، يتفرع كأغصان الشجرة ، يلتوى ويعرج .

٧ — وقد أشار الجاحظ فى رسالته إلى الفتح بن خاقان فى « مناقب الاتراك وعامة جند الخلافة » إلى أن البنوى خراسانى لأن نسب الابناء نسب آبائهم » يريد أن البنوى وهو من جلب طفلا صغيرا من خراسان وربى تربية عسكرية ببغداد خراسانى من جهة الولادة . وذكر أن المولى عربى لان « السنة قد نقلت الموالى إلى العرب » فهم عرب بالولاء » ثم أضاف قوله :

وإذا كان الامر على ماوصفنا فالبنوى خراسانى وإذا كان الخراسانى مولى والمولى عربيا ، فقد صار الخراسانى والبنوى والمولى والعربى شيئا

---

(١) « مناقب الاتراك » ص ٥٤

(٢) « مناقب الاتراك » ص ٤٦ .

واحدا وأدنى ذلك أن يكون الذى معهم من خصال الوفاق غامرا لما معهم من خصال الخلاف بل فى معظم الأمر وفى كبر الشأن وعمود النسب متفقون فالأتراك خراسانية وموالى الخلفاء قصرة ، فقد صار فضلُ التركى إلى الجميع راجعا وصار شرفه إلى شرفهم زائدا . وإذا عرف سائر الأجناد ذلك سامحت النفوس وذهب التعقيد ومات الضغن وانقطع سبب الاستثقال ، فلم يبق إلا التحاسد والتنافس الذى لا يزال يكون بين المتقاربين فى القرابة وفى الصناعة وفى المجاورة . على أن التوازر والتسالم فى القرابات وفى بنى الأعمام والعشائر أفشى وأعم من التخاذل والتعادى . . . ولابد فى أضعاف ذلك من بعض التنافس والتخاذل ، إلا أن ذلك قليل من كثير . وليس يكون أن تصفو الدنيا وتنقى من الفساد والمكروه حتى يموت جميع الخلاف وتستوى لأهلها وتتمهد لسكانها على ما يشتهون ويهوون لأن ذلك من صفة دار الجزاء وليس كذلك صفة دار العمل » (١) .

وهذا الأسلوب طابعه الجدل والمنطق ، وذكر السبب وقرنه بالمسبب أو النتيجة .

وقد يستخدم الجاحظ الأسلوب السوفسطائى لتأييد رأيه كقوله فى رسالته «فخر السودان على البيضان» : قال النبى صلى الله عليه وسلم « بعثت إلى الأحمر والأسود وقد علمت أنه لايقال للزنج والحبشة والنوبة بيض ولا حمر ، وليس لهم أسمر إلا السود ، وقد علمنا أن الله عز وجل بعث نبيه (إلى بنى آدم) كافة وإلى العرب والعجم جميعا ، فإذا قال بعثت إلى الأحمر والأسود ولسنا عنده حمرا ولا بيضا وقد بعث الينا فانما عنانا بقوله الأسود ولا يخرج الناس من هذين الاسمين فإن كانت العرب من الأحمر فقد دخلت

---

(١) رسالة « مناقب الأتراك وعامة جند الخلافة » ط . فان فلوتن - أبريل ١٩٠٣ ص ٢١

فى عداد الروم والصقالبة وفارس وخراسان ، وإن كانت من السود فقد اشتق لها هذا الاسم من اسمنا . وإنما قيل لهم أدم وسمر وسود حين دخلوا معنا فى جملتنا كما تجعل العرب الاناث من الذكور ذكورا . وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أن الزنج والحبشة والنوبة ليسوا بحمر ولا بيض وأنهم سود ، وقد بعثه الله تعالى إلى الأسود والأحمر فقد جعلنا والعرب سواء ونكون نحن السود دونهم . فان كان اسم السود وقع علينا فنحن السودان الخلص والعرب أشباه الخلص فنحن المقدمون فى الدعوة ، (١) .

ويكثر استعمال هذا الأسلوب المنطقى الجدلى فى كتب الجاحظ من مثل كتاب « الحيوان » وكتاب « التربيع والتدوير » و « رسالة مناقب الأتراك وعامة جند الخلافة » و كتاب « فخر السودان على البيضان » وكتاب « العثمانية » وغيرها . وقد يستخدم الجاحظ الأسلوب العلمى الجدلى لتأييد مذهبه الدينى أو العلمى .

٨ – ويقول الجاحظ فى كتابه المشهور « رسالة مناقب الأتراك » :

« ثم زعمت أن الأتراك قد شاركوا هؤلاء القوم فى هذا النسب وصاروا من العرب بهذا السبب مع الذى بانوا به من الخلال وحبوا به من شرف الخصال . على أن ولاء الأتراك للباب قريش ولمصاص عبد مناف وفى سر هاشم، وهاشم موضع العذار من خد الفرس والعقد من لبة الكعاب، وهو الجوهر المكنون والذهب المصفى وموضع المحة من البيضة والعين فى الرأس والروح من البدن ، وهم الأنف المقدم والسنام الأكوم والطينة البيضاء والدرة الزهراء والروضة الخضراء والذهب الأحمر ، فقد شاركوا العرب فى أنسابهم والموالى فى أسبابهم وفضلوا بهذا الفضل الخاص الذى

---

(٦) كتاب « فخر السودان على البيضان » ط . فان فلوطن ص ٧٥

لا يبلغه فضل وإن برع بل لا يكثره شرف وإن عظم، ولا مجد وإن قدم فزعمت أن أنساب الجميع متقاربة غير متباعدة . وعلى حسب ذلك تكون الموازرة والمكانفة والطاعة والمناصحة والمحبة للخلفاء والأئمة (١) .

وهو هنا يلجأ إلى الأسلوب الوجدانى الغنائى للتأثير على القارىء ببلاغة التركيب فى نثره الفنى الجاحظى، وهذا النحو من النثر الفنى يمتاز بطول النفس وقد أحدثه الجاحظ بالترديد والإكثار من التراكيب والمترادفات والاستطراد إلى حد الغلو ، وهذا ما يسميه المستشرقون تلاعب الجاحظ ، وربما تكون حيوية الجاحظ هى التى جعلته يميل ميلا خاصا إلى هذا النوع من الأسلوب . فهو يسجع ولكن سجعه كألحان الموسيقى وقد وضع قانونا للسجع الجميل فى قوله فى كتاب « البيان والتبيين » ويمكنك الاقتناع به : « إذا لم يطل ذلك ، ولم تكن القوافى مطلوبة مجتلبة أو ملتمسة ، متكلفة »(٢) ، ومن هذا الأسلوب أيضا قوله .

« إن كلامه صلى الله عليه وسلم : هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف .. استعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق . وهذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم

---

(١) رسالة « مناقب الأتراك » ص ٧

(٢) « البيان والتبيين » ط القاهرة ١٩٤٧ ج ١ ص ٢٨٢

ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطىء ، ولا يعجل . ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ولا أبين عن فحواه ـ من كلامه صلى الله عليه وسلم »[1] .

وبفضل التقطيعات الصوتية المنسجمة والتنغيم الموسيقى العذب يصل الجاحظ فى نثره إلى إحداث « حال شعرية » تؤثر فى القارىء والسامع تأثيرا كبيراً .

٩ — ويقول الجاحظ فى خصال الديك :

« فى الديك الشجاعة،وفى الديك الصبر عند اللقاء .. وفى الديك الجولان وهو ضرب من الروغان ، وجنس من تدبير الحرب ، وفيه الثقافة (الحذق) والتسديد ، وذلك أنه يقدر إيقاع صيصيته (أى طرف منقاره) بعين الديك الآخر ويتقرب إلى المذبح فلا يخطىء . . وله مع الطعنة سرعة الوثبة والارتفاع فى الهواء . وسلاحه طرير (ماض) وفى موضع عجيب ، وليس ذلك إلا له .. »[2] ، ولا ننس أن هذا الفخر يدخل فى إطار تلك المساجلات الكلامية أو الجدلية بين فريقين من المعتزلة فريق ينتصر للكلب وفريق يشيد بذكر الديك . على أن الأسلوب الملحمى أبرز ههنا .

---

(١) « البيان والتبيين » ط . عبد السلام هارون ـ القاهرة ١٩٤٨ حـ ٣ ص ١٦ — ١٨

(٢) كتاب « الحيوان » جـ ٢ صـ ٢٣٣

ونجد الأسلوب الملحمي الغنائي هنا وفي مواطن كثيرة من رسالة «مناقب الأتراك» فهاهو يقول على لسان الخراساني :

«ونحن فتحنا البلاد وقتلنا العباد وأبدنا العدو بكل واد» (ص ٨) .. «ونحن قوم لنا أجسام وأجرام وشعور وهام (طويلة عظيمة) ومناكب عظام وجباه عراض وقصص غلاظ وسواعد طوال» (ص ١٠) .. «ونحن أصحاب اللحى وأرباب النهى وأهل الحلم والحجى . . ولنا الطبول المهولة والبنود العظام ونحن أصحاب التجافيف والأجراس والبازفكند واللبود الطوال والأغماد المعقفة والشوارب المعقربة والقلانس الشاشية والخيول الشهرية والكافركوبات والطبرزينات في الأكف ، والخناجر في الأوساط وحسن الجلسة على ظهور الخيل ، ولنا الأصوات التي تسقط الحبالى» (ص ١٠) .

١٠ — وفي «البيان والتبيين» وفي مقدمة كتاب «الحيوان» يقول لمن عاب كتبه :

«بهرك ما سمعت ، وملأ صدرك الذي قرأت ، وأبعلك وأبطرك ، فلم تتجه للحجة وهي لك معرضة ، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية ، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل ، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد»[1] .

مما تجد فيه أسلوب الجاحظ في النقد الأدبي ، وفي الرد على خصومه ، ومما يعلمنا الجاحظ به كثيرا من أصول النقد .

١١ — ويقول الجاحظ في رسالته «التربيع والتدوير» : بل ما يهمك

---

(١) كتاب «الحيوان» ج ١ ص ١٢

من أقاويلهم ، ويتعاظمك من اختلافهم ، والراسخون فى العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب منك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا ، ولئن اختلفوا فى طولك لقد اتفقوا فى عرضك ، وإذا قد سلموا لك بالرغم سطراً ومنعوك بالظلم شطرا فقـــد حصلت ما سلموا وأنت على دعواك بما لم يسلموا »(١) .

وهو أسلوب من أساليب الوصف « الكاريكاتورى » المضحك الساحر .

١٢ — وقد أجاد الجاحظ فن الأقصوصة فى كتاب «البخلاء» وفى كتاب « الحيوان » وقرأ قصة الخناقين وهم طائفة من غلاة الشيعة من الروافض كانوا يقتلون أعداءهم فى المذهب خنقا ، ثم أصبح القتل جبلة فيهم فطمع بعضهم فى حمال لايملك سوى ثويب ودريهمات : « وانظر كيف أخذوا أهل درب بأسره وذلك أن بعضهم رغب فى ثويب كان على حمال ، وفيه دريهمات معه فألقى الوهق فى عنقه فغشى عليه ولم يمت وتحرك بطنه فأتى المتوضأ وتحرك الحمال والساجور فى عنقه فرجعت نفس الحمال . فلما لم يحس بأحد عنده قصد نحو باب الدار وخرج وزياره فى عنقه وتلقته جماعته فأخبرهم الخبر ، وتصايح الناس فأخذوا عن آخرهم »(٢) .

فأسلوب الأقصوصة جميل إيحائى ، ولما تتابعت حوادثها بسرعة كبيرة عمد الجاحظ إلى الأسلوب القصصى الحى ، فى هذه الأقصوصة أزمة تنفرج قليلا ثم تعود إلى التأزم من جديد وتبلغ حد المأساة ، إذ يعلمنا الجاحظ أن

---

(١) كتاب « التربيع والتدوير » ط بلات دمشق ١٩٥٣ ص ١٤

(٢) كتاب « الحيوان » ﺣ ٢ ص ٢٦٤

الحمال وأصحابه أخذوا عن آخرهم أى قتلوا خنقا ، وتتابعت حوادث الأقصوصة بسرعة كبيرة فأكثر الجاحظ من الأفعال فتتابعت بسرعة كذلك، فأمعن النظر فى قوله : « فألقى الوهق فى عنقه فغشى عليه ولم يمت ، وتحرك بطبنه فأتى المتوضأ وتحرك الحمال والساجور فى عنقه فرجعت نفس الحمال . . الخ » .

فإن أبا عثمان الكاتب القصصى يجعلنا نتلهف من أول وهلة لمعرفة النهاية فتنقطع أنفاسنا بانقطاع أنفاس الحمال وترجع برجوعها ، وهذا سر عبقريته (١) .

(١) راجع مجلة الفكر التونسية عدد مارس ١٩٦٥ من مقال للأستاذ أحمد خالد عن « أسلوب الجاحظ »

ملاحظة أخيرة

اقتضى تأليف هذا الكتاب الرجوع إلى مئات المصادر المطبوعة والمخطوطة والمباشرة وغير المباشرة ، وقد ذكرنا أهم المراجع المباشرة التى لها صلة أصيلة بالجاحظ فى هوامش الكتاب ، ومن بينها كل مؤلفات الجاحظ ورسائله ، وقد نشر الحاجرى وكراوس مجموعة رسائل الجاحظ فى القاهرة عام ١٩٤٣ ، ويطبع رسائل الجاحظ الآن عبد السلام هارون فى القاهرة ، وقد صدر الجزء الأول منها .

وفى الفهرست لابن النديم أشياء قليلة عن الجاحظ .

وكذلك فى كتاب الأنساب(١) للسمعانى ، وطبقات الألبا لابن الأنبارى(٢) والمنتظم لابن الجوزى (مخطوط ، ومنه نسخة خطية فى مكتبة باريس ١٥٠٥) ، ومرآة الزمان لسبط بن الجوزى ، والتهذيب للنووى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣) ، والوافى بالوفيات للصفدى ، وعيون التواريخ(٤) للكتبى ، وسرح العيون لابن نباته (٥)، ومرآة الجنان(٦) لليافعى، وميزان الاعتدال لابن حجر(٧).. ففى هذه المراجع آراء كثيرة عن الجاحظ .

وقد ترجم ابن عساكر للجاحظ فى كتابه « تاريخ دمشق » وهذه الترجمة

---

(١) ص ١١٨

(٢) ٢٥٤ - ٢٥٨

(٣) ٢ : ١٠٨ - ١١٢

(٤) ١٥٣ ب - ١٥٧ ب

(٥) ١٣٣ وما يليها

(٦) ٢ : ١٦٢ - ١٦٥

(٧) ٤ . ٣٥٥ - ٣٥٧

نشرها كرنكو فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق (المجلد التاسع ١٩٢٩) .

ومن المراجع المهمة: كتاب المعارف لابن قتيبة وكتاب عيون الأخبار له أيضاً ، وكتاب الكامل للمبرد ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وزهر الآداب للحصرى ، والأغانى لأبى الفرج ، والمثـــل السائر لابن الأثير ، وفحولة الشعراء للأصمعى .

إن المؤلفات المباشرة التى كتبت عن الجاحظ كثيرة ، وقد أحصيناها كلها وذكرناها فى هوامش هذا الكتاب ورجعنا إليها .

أما المؤلفات غير المباشرة ومن بينها جمهرة من كتب الأدب والتاريخ واللغة والفلسفة ومختلف الفنون ، فإنها كثيرة ، ويكاد يكون إحصاؤها فى هذا المجال عملا عسيراً ، أو تفاخراً وزهواً بالجهد المبذول فى هذا الكتاب .. لذلك آثرت ترك ذكرها وحذفت فصل المراجع اكتفاء بما ذكرته فى هامش الكتاب من مراجع مباشرة .

ومن بين المصادر التى اطلعت عليها : الأدب العربى لبلاشير ، والأدب العربى لكليمان هوار ، وكتاب النظام للعقاد ، وكتاب إبراهيم بن سيار النظام لعبد الهادى أبو ريده ، والفلسفة الإسلامية لمصطفى عبد الرازق .

ومن كتبي التى رجعت إليها : ابن المعتز ، الحياة الأدبية فى العصر العباسى ، من بلاغة العرب ، من تراثنا الأدبى ، وغيرها .

وأحمد الله إليه ، على ما أعانى عليه ، من جهد بذلته ، وعمل قدمته ، والله ولى التوفيق ؟

الكلمة الأخيرة

هذا هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المفكر العربى العظيم ، والأديب الكاتب الفيلسوف ، والإمام المعتزلى صاحب الآراء الطريفة فى الدين والعقيدة .

وتلك صورة واسعة لعصره وبيئته ، ولحياته وشخصيته وثقافته ، ولآرائه فى السياسة والاعتزال ، ولمنهجه فى البحث العلمى ، ولمنزلته أديبا وكاتبا فى طليعة أدباء العرب ، ومؤسسا للنقد والبلاغة العربية . . وعرض لمكانته فى الفكر الإنسانى والفكر العربى ولتراثه ، ولآراء الأجيال فيه .

ولعل هذه الصورة الشاملة الواسعة الجديدة تكون قد ألمت بأطراف الموضوع إلماما يقرب هذه الشخصية النادرة إلى أذهان الشباب العربى فى كل مكان ، وإلى قلوبهم وأرواحهم فى كل ناحية .

ومن الله أستمد التوفيق ، وأسأله السداد والصواب ، وما توفيقى إلا بالله ؟

(فهرست)

الصفحة　　　　الموضوع

الصفحة	الموضوع

كتب للمؤلف

١ – تفسير القرآن الحكيم - ١٣ جزء
٢ – البناء الفني للقصيدة العربية
٣ – دراسات في النقد الأدبي
٤ – دراسات في الأدب المقارن
٥ – قصة الأدب في مصر - ٥ أجزاء
٦ – من تراثنا الأدبي (بالاشتراك)
٧ – دين الإنسانية

تحت الطبع

١ – قصة الأدب المهجرى

٢ – قصة الأدب العربى فى ليبيا

٣ – العروض العربى

٤ – الرصافى تحقيق ديوانه ودراسة لحياته وشاعريته ـ بالاشتراك

٥ – مذاهب النقد العربى